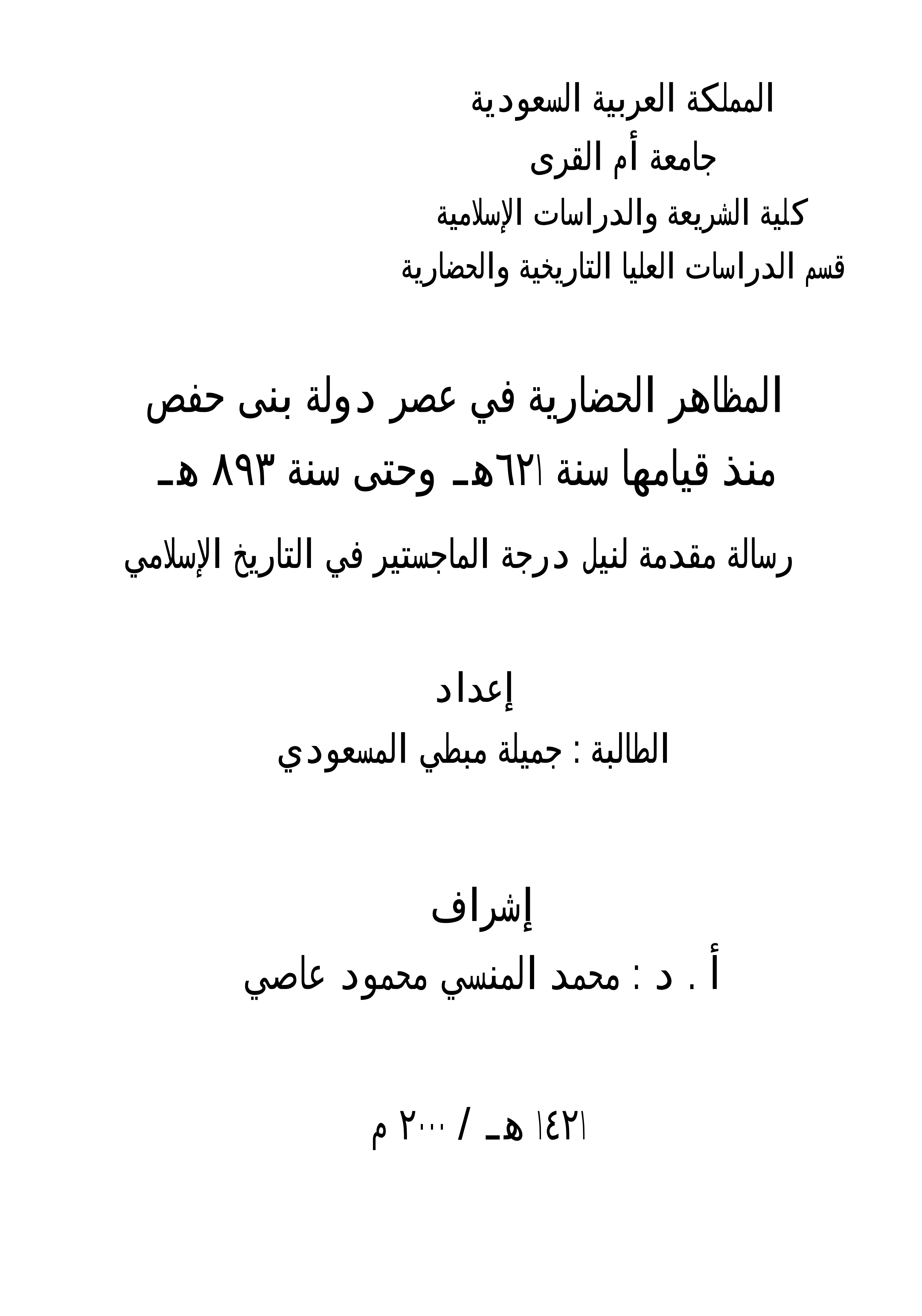


المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

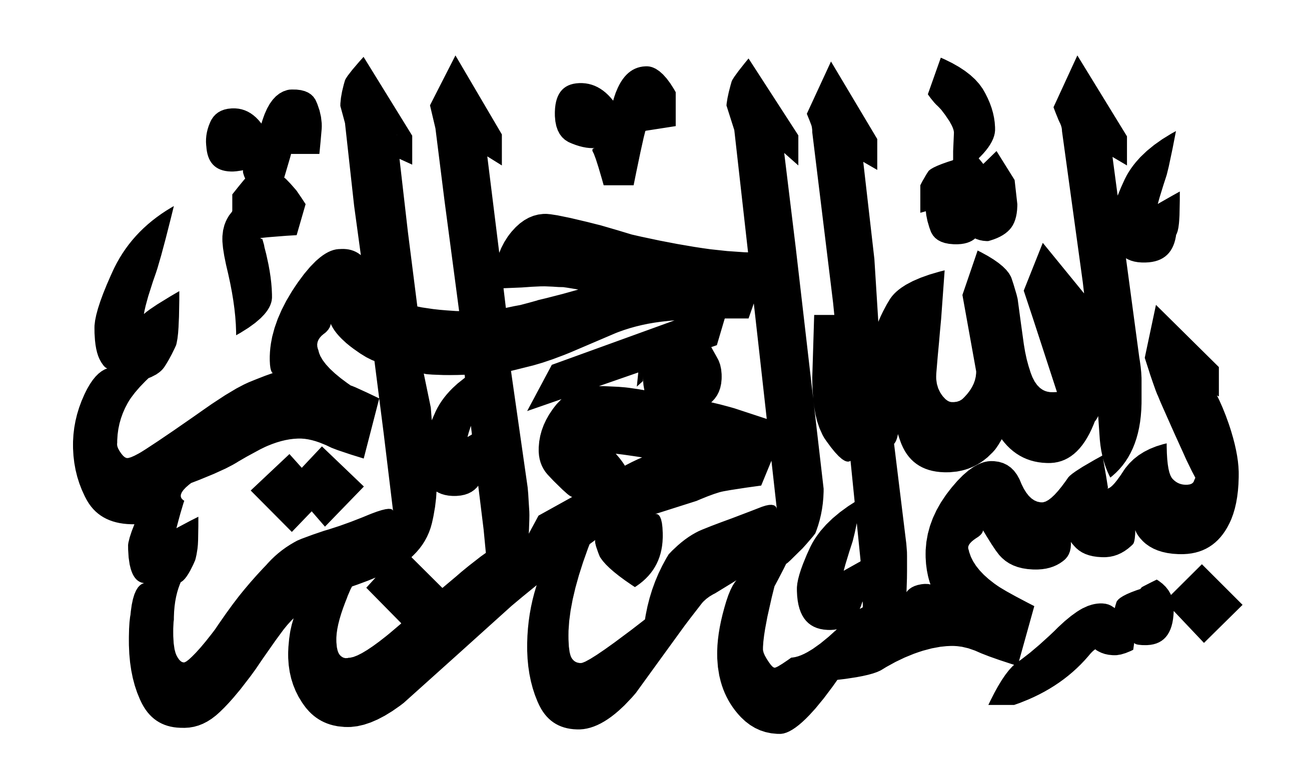
المظاهر الحضارية في عصر دولة بنى حفص منذ قيامها سنة ٦٢١هـ وحتى سنة ٨٩٣ هـ

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد
الطالبة : جميلة مبطي المسعودي

إشراف
أ . د : محمد المنسي محمود عاصي

١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم

} وقل ربي زدني علماً {

صدق الله العظيم

الإهداء

إلى والدي الفاضلين ...... حفظهما الله .

اللذين ساعداني على الكتابة بما وفراه لي من الراحة والهدوء وبما وجدته منهما من تشجيع .

إلى أبني الحبيب جهاد ....

تلك الشمعة التي أضاءت حياتي ..

إلى كل من قدم لي تسهيلاً إلى طريق العلم ....

إلى هؤلاء جميعاً أهدي ثمرة جهدي .....

المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ....

فالمغرب الإسلامي اسم أطلقه الفاتحون المسلمون على شمال غرب إفريقيا منذ القرن الأول الهجري ، ثم قسموا هذا النطاق الجغرافي الشاسع إلى ثلاثة أقسام :

هي المغرب الأدنى – المغرب الأوسط – المغرب الأقصى ، وليس هذا التقسيم خبط عشواء بل لقد نظروا إلى موقع حاضرة الخلافة (دمشق) واعتبروها مركز للعالم الإسلامي فقسموا بلاد المغرب هذا التقسيم بالنسبة للقرب أو البعد عن دار الخلافة .

وأطلق المسلمون على المغرب الأدنى اسم إفريقية أيضاً وكان يشمل المنطقة الممتدة من طرابلس وحتى مدينة بجاية وكانت تشمل تونس الحالية مع جزء من ولاية طرابلس وقاعدتها القيروان ، ثم مدينة تونس فيما بعد .

وكانت بلاد المغرب أول من بدأ التفكك السياسي في العالم الإسلامي إذ شهدت أرضه نشوء أولى الدويلات المستقلة ، ثم تجزأت وحدتها إلى دول متعددة منها ما كان للعباسين سيادة شكلية عليه كدولة الأغالبة ١٨٤هـ ، ومنها ما قام رغماً عن الخلافة العباسية وخروجاً على سلطانها مثل دولة بني مدرار أصحاب سجلماسة سنة ١٤٠هـ والرستمين أصحاب تيهرت ١٦٠هـ والأدارسة أصحاب فاس ١٧٢هـ .

ومـن الغريب أن بلاد المغرب كما بدأت هذا الانشقاق وتعددت فيها الدويلات ، فسرعان ما تجاوزت هذه المرحلة إلى مرحلة تعدد الخلافات نفسها إذ ظهرت فيها الدولة الفاطمية ٢٩٦هـ التي ادعت الخلافة في المغرب قبل انتقالها إلى مصر ، ثم توالى ظهور الدول في المغرب الإسلامي كبني زيري ٣٦٧هـ ، وبني حماد ٣٩٥هـ ، والمرابطين ٤٥٠هـ ، والموحدين ٥٤٠هـ وبا يار هذه الدولة الأخيرة ورث أملاكها ثلاث دول لعبت دوراً خطيراً في المغرب الإسلامي هي : الدولة المرينية في المغرب الأقصى ، وبنو عبد الواد ٦٣٣هـ في المغرب الأوسط ، وبني حفص ٦٢١هـ في المغرب الأدنى ، والدولة الأخيرة هي التي يتناول بحثنا دراسة المظاهر الحضارية التي تميزت ا في هذا النطاق الجغرافي .

والحفصيون ينتسبون إلى شعبة كبيرة من المصامدة وهي قبيلة من أكبر قبائل المغرب وأقواها ، وكان عميدهم عمر بن يحيى ت سنة ٥٧١هـ من كبار رجالات دولة الموحدين ومن أشد أنصارها كما أنتظم أولاه في سلك كبار الولاة والقادة بالمغرب والأندلس ، وعندما دبت عوامل الضعف والتفكك في كيان الدولة الموحدية نتيجة لعدة عوامل أشرنا إلى أهمها عند تقديمنا لهذا البحث .

وكانت بداية النهاية عند هزيمتهم في معركة حصن العقاب بعدوة الأندلس سنة ٦٠٩هـ .

فأعلن أبو زكرياء محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص استقلاله عن الدولة الموحدية ، واستولى على المغرب الأدنى ٦٢١هـ ، واستطاع الحفصيون القضاء على كل مناوئيهم من أنصار الموحدين ، ولقد وفد على تونس في عهدة وفدا من أهل

بلسنية يطلبون منه النجدة أمام الخطر الأسباني الذي يهددهم وهذا يدل على ذيوع صيته وقوته ، ولقد وفد على المغرب الأدنى في عهده عنصر جديد من أهل الأندلس الذين هاجروا فرار بدينهم وأرواحهم أمام زحف الأسبان على مد م ، ولقد استفادت منهم الدولة الحفصية أيما فائدة في الميادين الحضارية .

ثم ازدادت الدولة الحفصية قوة وشهرة حتى لقد بايع أهل الحجاز وشريف مكة أبي نمي بن قتادة ٦٥٩هـ محمد المستنصر بالله الحفصي ولما أتته البيعة من مكة المكرمة قرئت على منبر جامع الزيتونة ومن يومئذ تلقب الحفصيون بلقب أمير المؤمنين .

واتسعت أملاك الحفصيين اتساعاً كبيراً فحكموا طرابلس وبجاية والجزائر وقسنطينة وبونة والزاب وغيرها ، ونتيجة للاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي وانتشار الأمن تقدمت الحضارة وتعددت مظاهرها وأشكالها ، فبرع الحفصيون في إقامة نظام سياسي وإداري وقضائي ضمن لهم الاستقرار والاستمرار لفترة طويلة في حكم بلاد المغرب ، كما تميزوا باتخاذ القرارات السياسية الصائبة في حل مشكلات البيت الحفصي .

كما برعوا في النظام الإداري وكان من أنظمتهم ا لمس الأعلى الذي يحضره السلطان الحفصي وأعيان دولته ، وشيوخ الشورى ، ووزير الجند ووزير المال والمحتسب وصاحب النظر في المظالم وكانت مهمته عقد المعاهدات لتنظيم الملاحة وتوثيق العلاقات التجارية والسياسية ، كما انشأوا ا الس التأديبية والدواوين المختلفة : كوزارة القلم ووزارة الأشغال ، ومجلس الشورى والحجاب ، كما أنشأوا

داراً لطباعة النقود يرأسها المحتسب ، والحفصيون هم أول من أصلح المكاييل ، ونسكوا الدرهم التونسي ، والدينار التونسي المسميان (بالجديد) .

كما اهتموا بالجيش وفرقة وتشكيلاته التي تكونت من البربر والعرب والأندلسيين الوافدين ومماليك الترك والفرنج .

كما تميز النظام القضائي خلال هذه الفترة بالاستقلال والعدل وكان خاصاً بقضاياً الأمن وال اع ، فعرفوا نظام المحاكم العليا وقاضي الجماعة ، وكانوا لا يبقون القاضي في منصبه أكثر من عامين ، وكانت المحاكم الشرعية على عهد الحفصيين تنظر في جرائم الملوك وأبنائهم فقد حكم القاضي ابن عبد الرفيع ت ٧٣٤هـ قاضي الجماعة بتونس على الأمير محمد الحفصي بالقصاص في جريمة قتل ارتكبها ولم ينجه إلا عفو أوليا الدم .

وكان للعائلات قاضي خاص يسمى (قاضي الأنكحة) صيانة للحرمات وحفاظاً على الأسرار الزوجية ، ولعنايتهم بالشعائر الإسلامية خصصوا لها قاضياً يسمى (قاضي الأهلة) .

وعظم العمران والتشييد في هذا الطور من عهد الحفصيين بالعاصمة تونس وفي غيرها فبنوا سوق العطارين والمدارس الدينية كالمدرسة الشماعية ٦٣٣هـ ، وجامع القصبة ، وجامع التوفيق الذي بنته الأميرة عطف .

كما انتعشت الحياة الثقافية بجمهور من العلماء والمفكرين والأدباء الذين ساهموا في ترقية التراث الإسلامي ولعل من أهمهم ابن الأبار البلنسي ، وعثمان عتيق المعروف

بابن عربية ، محمد بن يحيى بن الحباب التونسي – أبو الحسن الحضرمي النحوي الملقب بابن عصفور وغيرهم .

وازدهرت الحياة الاقتصادية في هذا الطور من عهد الدولة الحفصية ، فراجت التجارة وانتشرت الأسواق واكثروا من الزراعة والغرس ، و ضت الصناعات المعهودة في ذلك العصر ، وانعش الأقتصاد نظام عادل في جميع المكوس .

وإلى ذلك يشير الرحالة الذين زاروا دولة الحفصيين في تلك الفترة كالبكري والعبدري وابن بطوطة وغيرهم .

وفي هذا الطور من حياة الدولة الحفصية هاجمت أوربا تونس فيما يعرف بالحملة الصليبية الثامنة سنة ٦٦٨هـ فمنذ أن سقطت صقلية وجنوب إيطاليا وجـزر المتوسط بيد النورمـان وبقايا المسلمين فيها يذوقون العذاب ألواناً على يـد المسيحيين (الصليبيين) .

وكانت الدولة الحفصية تعقد المعاهدات مع ملوك صقلية ومالطة لحماية الإقليات المسلمة فيها ، حتى حدث الخلاف بين شارل دانجو ملك صقلية وبعض ملوك بني حفص فأوعز شارل دانجو إلى أخيه لويس التاسع ملك فرنسا بغزو تونس ولكن الحملة باءت بالفشل وانتشر الوباء بين البحارة الصليبين ومات لويس التاسع وأقبر بتونس ولم تنفعه العبرة بعد خلاصة من الأسر في مدينة المنصورة بمصر .

ومن هذا المنطلق يكمن العامل الرئيسي في اختيار موضوع البحث لتوضيح المظاهر الحضارية في الدولة الحفصية منذ قيامها في الفترة من ٦٢١هـ / ٨٩٣هـ

وتشمل تلك المظاهر الحياة الإدارية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وبالإضافة إلى ما سبق فإن العوامل التي دفعتني للكتابة في هذا الموضوع :

١ – إلقاء الضوء على أبرز الجوانب التاريخية لدولة بني حفص والتعريف بأهم سلاطينها .

٢ – جمع المادة التاريخية من المصادر والمراجع وتنقيتها من الخلط والغموض .

٣ – دراسة الجوانب الحضارية في هذا الطور دراسة متكاملة وجمع ما تفرق من أخبارها ولا نكون مبالغين عندما نشير إلى أن الجوانب الحضارية أكثر تفرقاً وندرة من الأخبار التاريخية لتلك الدولة .

وقد اشتملت الرسالة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وبعض الملاحق وفهرس لأبرز المصادر والمراجع ، ثم ختمت بفهرس للموضوعات فأما المقدمة فاقتصرت فيها على عرض الموضوع وذكر سبب اختياره وأهميته وعرض لأبرز مصادر ومراجع البحث .

وفي التمهيد : عرفت تعريفاً موجزاً بالأحوال الدينية والسياسية والاجتماعية والعسكرية في المغرب قبل قيام الدولة الحفصية وأثر هذه العوامل في يئة الظروف الملائمة لقيامها .

وكان الفصل الأول وعنوانه : (قيام دولة بني حفص وسياستها) ومهدت فيه للتعريف ذه الدولة وقيامها وأشهر أمرائها كمدخل للتحدث عن الجوانب الحضارية وقد اشتمل هذا الفصل على أربعة مباحث تحدثت فيها عن : نسب الحفصيين وأصلهم ومدى صحة إدعائهم بالانتساب إلى البيت الشريف ، وعن

جهود أبي زكرياء الأول في قيام الدولة بعد إعلانه الانفصال عن الدولة الموحدية ، واتساع نفوذ أبو زكرياء الأول وخضوع معظم بلاد المغرب لطاعته ، ثم عن ذيوع صيت الحفصيين واستنجاد الأندلسيين م ضد العدوان المسيحي الأسباني والمساعدات التي قدمها أبو زكرياء للمسلمين في الأندلس .

ثم تحدثنا عن المستنصر الحفصي وعن بيعة مكة المكرمة له وتلقبه بخليفة المسلمين وما أعقب ذلك من فشل الحملة الصليبية الثامنة على تونس والنتائج المترتبة عليها .

ثم عـن عهد الاضطرابات والفتن التي قامت في عهد السلطان أبو إسحاق إبراهيم واستمرت حتى سقـوط الدولة الحفصية تحت الاحتلال المـريني من سنة ٧٤٨ هـ إلى ٧٥٠ هـ .

ثم تناول البحث العصر الذهبي الثاني للدولة الحفصية والذي بدأ من عهد أبي العباس أحمد الثاني من سنة ٧٧٢هـ واستمر في عهد السلطان أبو فارس عبد العزيز وأبو عمرو عثمان حتى أن السلطان أبو فارس الحفصي استطاع الانتصار على المسيحيين وطردهم من جزيرة جربة ٨٣٥هـ ، واستطاعت الدولة في هذا العصر الحد من سلطان العرب ونفوذهم وامتد نفوذ الدولة حتى جدد أهل فاس بيعتهم للحفصيين سنة ٨٨٧هـ ، وبانتهاء عصر السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان سنة ٨٩٣هـ بدأ عصر الضعف الذي انتهى بسقوط الدولة الحفصية ودخولها تحت الاحتلال الأسباني .

وتناول الفصل الثاني : (نظام الحكم والإدارة في الدولة الحفصية) النظام السياسي والطريقة الوراثية المتبعة في توليه الحكم وسلبيا ا وإيجابيا ا ، وكذا

النظام الإداري وأهم الدواوين والإدارات الموجودة في هذا العهد ، وتناولت الدراسة أيضاً النظام الحربي المتمثل في الجيش البري ومكوناته وأسلحته المعروفة في ذلك العصر والجيش البحري ومدى قوته وتطوره ، وناقش هذا الفصل أيضاً النظام القضائي ومدى استقلاليته عن النظام السياسي ونجاحه الكبير في كسب احترام العامة والخاصة وبروز عدد من القضاة المشهورين الذين تميزوا بالصلابة في الحق والاستقلالية في الحكم .

وعالج الفصل الثالث وعنوانه : (الحياة الاقتصادية) بمباحثة الأربعة كل الحيوات الاقتصادية وما يرتبط ا ويتعلق بازدهارها فذكرت في المبحث الأول من هذا الفصل الزراعة التي حققت الدولة من خلالها شبه اكتفاء ولا سيما من القمح والشعير بل أ ا أصبحت تصدر الفائض من هذين المنتوجين الزراعيين إلى الخارج ، وتناولت الدراسة أيضاً الصناعة وأبرز الصناعات الموجودة في ذلك العصر وطريقة تنظيم الصناعات والأسواق الخاصة ا وأماكن تواجدها ، ثم المورد الثالث المتمثل في التجارة والتي كان لها أكبر الأثر في الرقي الاقتصادي الذي شهدته تونس في هذا العهد فأنشئت العديد من الأسواق وتعددت أنواعها فهناك أسواق دائمة وأسواق تقام في أيام معينة من الأسبوع ، وكذلك نظمت التجارة الخارجية على أسس ومعايير حدد ا المعاهدات والاتفاقيات المبرمة بين الحفصيين والدول الأوربية .

وفي الفصل الرابع وعنوانه : (الحياة الاجتماعية) تناول هذا الفصل الطبقات السكانية الموجودة في إفريقية والعلاقات القائمة بين هذه الطبقات المختلفة ومدى تلائمهم أو اختلافهم ، وإلقاء الضوء كذلك على العادات الاجتماعية لسكان

تونس والمتمثلة في المأكل والملبس والعمران ، حيث أعطيت وصفاً دقيقاً عن المسكن الحفصي وتمازج التيارات العمرانية ومدى استيعاب الحفصيين لهذا التمازج واللمسات الفنية العمرانية المصاحبة لهذا العهد .

أما الفصل الخامس والأخير فقد ناقش موضوع (الحياة الثقافية) بمباحثة المتعددة وقضاياه الثقافية المتفرعة : فتحدثت فيه عن التكوين الثقافي للدولة والمؤسسات العلمية من مـدارس ومساجد وزوايا والمكتبات الثقافية ودورها في التعليم ، مع إبراز الدور الذي قام به السلاطين الحفصيين في تشجيع العلم ونشره وامتد الحديث إلى أشهر العلوم النقلية والعقلية وأبرز علمائها ، ثم تطرقنا إلى العلاقات الثقافية بين الدولة الحفصية ودول الجوار ، والتمازج الثقافي بين المشرق والمغرب .

وتضمنت الرسالة خاتمة تبرز أهم النتائج التي توصلت إليها بعد الدراسة الشاملة لهذا الموضوع دراسة جيدة ومستفيضة ، كما اشتملت الرسالة على بعض الملاحق التي تبين أبرز المظاهر الحضارية في مجال العمارة ، وفهرس للمصادر والمراجع .

عرض لأهم مصادر البحث ومراجعة :

ولقد اعتمدت في هذا البحث على كثير من المصادر والمراجع خاصة المغربية وغيرها والتي امدت البحث بمادة علمية تاريخية وحضارية جيدة ، وبعضها كان معاصراً للأحداث مما كان له أبرز الأثر في الكشف عن كثير من مظاهر الحضارة وأثارها وبعض المصادر كان قريب العهد من المعاصرة ، فكان شارحاً ومكملاً لبعض جوانب النقص في المصادر الأخرى ، كما أتاح عدم المعاصرة لبعض المصادر والمراجع حرية النقد لكثير من الأحداث التاريخية ، كما اعتمدت على بعض المراجع الحديثة

التي كشفت النقاب عن كثير من الجوانب المهمة ، كما استفدت من أراء كتا ا في كثير من المواضيع في هذا البحث ، كما قمت بمناقشة بعض الآراء والرد عليها .

وسأقتصر في هذا العرض على التعريف ببعض هذه المصادر والمراجع ، ولعل من أهمها :

١ – كتاب : (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومـن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) :

لعبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) (١٣٣٢ – ١٤٠٤ م) .

المولود بتونس ولكن أجداده أندلسيون من أهل أشبيلية ، ولقد درس على عدد من الأندلس .

اتصل بالوزير الغرناطي (لسان الدين بن الخطيب) في المغرب وكان بينهم صداقة حميمة ، دخل ابن خلدون في الحياة السياسية في البلاط المريني بفاس والحفصيين في تـونس وبني عبد الواد في تلمسان ، ولكنه اعتزل هذه الحياة سنة ٧٧٦ – ٧٨٠ هـ .

ألف خلالها مقدمة لكتابة في علم التاريخ وعاش ابن خلدون مدة طويلة انتقل خلالها إلى الشام ومصر ، فولى منصب قاضي المالكية في القاهرة ست مرات ودرس على ابن خلدون عدد من المؤرخين مثل المقريزي ، ومن أشهر مؤلفات ابن خلدون كتاب (العبر وديوان المتبدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) ، ويقع في سبعة أجزاء ، تناول فيها أخبار العرب وأجيالهم منذ بدأ الخليقة إلى عصره ثم أخبار البربر وأجيالهم ودولهم وأشهر قبائلهم ، ولقد استعنت

به في معظم مباحث الرسالة وأفادني فائدة قيمة عند التحدث عن القبائل المغربية والدويلات المستقلة .

٢ – كتاب : (نفـح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) : لأحمد المقري (ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م) .

وهو مؤرخ جزائري من مدينة مقرة من أعمال قسنطينة ، طاف بلاد المغرب وعمل خطيباً بجامع القرويين بفاس ، ثم رحل إلى المشرق .

وسبب تأليف هذا الكتاب إعجاب المقري الشديد بالعالم والأديب لسان الدين بن الخطيب الغرناطي ، فعكف على تأليف كتاب يتناول شخصية لسان الدين من حيث إنتاجه الأدبي والعلمي ، وبعد أن أتم ذلك رأي أن يمهد له بتاريخ عام للأندلس فظهر الكتاب على قسمين الأول يتضمن التعريف بالأندلس ، والثاني بابن الخطيب وأطلق عليه اسم (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) ، ونشر (نفح الطيب) في مطبعة بولاق في أربعة أجزاء سنة ١٦٨٢هـ ، ثم أعاد الشيخ محي الدين عبد الحميد نشره في عشرة أجزاء ، ومن مؤلفات أيضاً (أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض) يتناول فيه حياة هذا القاضي ومؤلفاته .

وقد استفدت من هذين المصدرين فائدة كبيرة ، ولا سيما (نفح الطيب) في التعرف على الحياة الأدبية ، وتراجم للأدباء الأندلسيين الوافدين على تونس ، ثم بنبذة على الحياة الأدبية في العصر الحفصي وبالأخص في بلاط المستنصر الحفصي .

٣ – كتاب : (وصـف إفريقيا) للحسن الـوزان المشهور بيوحنا ليون الإفريقي (١٤٨٨ – ١٥٣٢ م) .

الرحلة المغربي واسمه الذي عرف به الحسن بن محمد الوزان الفاسي الغرناطي ولد في غرناطة سنة ١٤٨٨م وبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م هاجرت أسرته إلى مدينة فاس بالمغرب وهناك طاف الحسن الوزان بلاد المغرب والسودان العربي وارتحل إلى المشرق وزار مصر والشام والحجاز والأناضول ثم عاد إلى مصر ليبحر منها عائد إلى المغرب ، ولكنه أسر من قبل قراصنة النصارى وحمل إلى روما وقدم هدية إلى البابا ليون العاشر ، وعاملة معاملة كريمة جعلت الحسن يعتقن الديانة المسيحية وسمى نفسه ليون على اسم (البابا) ، وقيل أنه في أخر حياته عاد إلى وطنه وعاد إلى الإسلام توفي سنة ١٥٣٢هـ .

ويعتبر كتابه (وصف إفريقيا) من أهم المؤلفات المتناولة لتأريخ بلاد المغرب وقد ترجم إلى جميع لغات العالم ونقله إلى العربية محمد الحجي ، ومحمد الأخضر ، ويقع في جزأن ولقد استعنت في هذا البحث بالجزء الثاني الذي خصصه لمملكة تونس وتحدث فيه عن مد ا واصفاً إياها وصفاً دقيقاً تاريخاً وجغرافياً ، وكان لهذا الجزء فائدة عظيمة في معرفتنا بالحياة الاقتصادية في تونس .

٤ – كتاب : (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية) للغبريني : أبو العباس أحمد (٦٤٤ – ٧١٤ هـ) . وهو من أهم كتب التراجم التي أفادتني .

وهو أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي الغبريني ، وكنيته أبو العباس ، وشهرته الغبريني نسبه إلى (بني غبري) بطن من بطون قبائل الأمازيع البربر في المغرب الأوسط ولي القضاء بمواضع عديدة أخرها مدينة بجاية ، ترك لنا مؤلفاً يتناول تراجم العلماء في القرن السابع ، وهو الكتاب السابق الذكر .

ويتميز هذا الكتاب بالشمول وتسجيله لبعض الأحداث التاريخية ، كما حفظ لنا صورة صادقة عن الحياة العقلية في مدينة بجاية بشكل خاص وفي المغرب الأوسط بشكل عام .

وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة في مدينة الجزائر سنة ١٩١٠م ، ثم نشر بعد ذلك من قبل دار الآفاق الجديدة في بيروت ، سنة ١٩٧٩م .

ولا ننسى في نهاية هذه الدراسة الفائدة الكبيرة التي قدمتها بعض المراجع الحديثة للبحث ومن أهمها :

١ - كتاب : (تاريخ إفريقية في الهد الحفصي)

لروبير برنشفيك : وهو مستشرق فرنسي ، ألف كتاباً ضخماً يتناول فيه تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر الميلادي إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، وقسمه إلى جزائيين تناول في الجزء الأول منه الحياة السياسية بشكل مستفيض ، وفي الجزء الثاني تناول المؤسسات والحياة اليومية من أنشطة اقتصادية – وثقافية – واجتماعية ، ولقد أفادني هذا الكتاب فائدة كبيرة ، ولكن أخذت بعض آراء هذا المستشرق بتحفظ .

٢ – كتاب : (الدولة الحفصية) .

لأحمد عامر : ولد بسوسة سنة ١٣٢٦هـ ، عمل مدرساً بالمعهد الثانوي بتونس ثم تفرغ للكتابة فألف كتاباً يتناول العصر الحفصي أسماه (الدولة الحفصية) استعرض فيه الحياة السياسية – الاجتماعية – الاقتصادية والثقافية ، ولقد استفدت منه في كثير من الجوانب الحضارية .

٣ – كتاب : (مدينة تونس في العصر الحفصي) .

لعبد العزيز الدولاتلي : والذي يتناول فيه الأنشطة الاجتماعية – الثقافية – والاقتصادية – والنمو العمراني .

ومجمل القول أنني قد استفدت من هذه المراجع فائدة كبيرة ، فهي دراسات حضارية تاريخية بالغة القيمة والأهمية بالإضافة إلى اشتمالها على كثير من الآراء التي أفادتني في كتابة هذا البحث .

وإذا كان الفضل يجب أن ينسب إلى أهله ، وإذا كان الاعتراف بالجميل واجباً في الأعناق يجب أن يذكر لذويه .

فلا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني أو قدم إلى خدمة علمية وعلى الأخص الدكتور / محمد المنسي محمود عاص الذي أشرف على هذا البحث ، منذ أن كان فكرة إلى أن خرج إلى النور على هذه الصورة التي أرجو من الله عز وجل أن تكون مشرفة ومقبولة ، فله مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان .

وأتقدم كذلك بالشكر إلى لجنة المناقشة التي تكرمت بالموافقة على قبول هذه الرسالة ومناقشتها ، وستكون ملاحظا ما وتوجيها ما نبراساً يضاف إلى الجهود التي تثري البحث .

كما أشكر كل من ساهم في إنجاح هذا البحث سواء بتقديم المصادر والمراجع أو بتقديم النصح والإرشاد .

وأسأل الله عز وجل أن أكون قد وفقت في إبراز الهدف الذي قصدته من هذا البحث ، وقد بذلت في كتابته وإخراجه كل ما في وسعي ، وظن أني قد حققت الغاية

والهدف ، وأن كانت الأخرى فحسبي أني قد بذلت الجهد ، والكمال لله سبحانه وتعالى ، والنقص من لوازم البشر .

والحمد لله أولاً وأخراً ....

الطالبة
جميلة مبطي المسعودي

التمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

موجز عن أحوال المغرب الأدنى قبيل قيام الدولة الحفصية

إن الحديث عن قيام الدولة الحفصية واستقرارها السياسي ومظاهرها الحضارية يستلزم إعطاء فكرة تاريخية موجزة عن حالة الدولة التي كانت تحكم المغـرب الأدنى قبلها حتى نستطيع استخلاص العوامل والظروف التي كان يمر ـا هـذا الكيـان السياسي قبل قيام الدولة الحفصية ، ثم إن دراسة العوامل الـسياسية والاقتـصادية والاجتماعية التي مهدت لسقوط الدولة الحاكمة في المغرب الأدنى قبل قيام الحفصيين يعطينا فكرة واضحة عن المناخ الملائم الذي قامت فيه دولة بني حفص ، وقـد كانت بلاد المغرب بأقسامها الثلاثة يحكمها قبل ظهور دولة الحفصيين [دولـة الموحـدين ٥٤٠هـ] التي حكمت المغرب بالإضافة إلى بلاد الأندلس .

ولقد بلغت دولـة الموحـدين أوج عظمتها في عهـد عبد المؤمن بـن علي ت ٥٥٨هـ [١]، وابنه يـوسف ت ٥٨٠ هـ [٢]، وحفـيده يعقـوب المنصـور ت ٥٩٥هـ ، وقد استطاعت دولة الموحدين أن تقيم دولة قوية مترامية الأطـراف شملت المغرب الإسلامي كله – الأدنى والأوسط والأقصى ، علاوة على بلاد الأندلس التي دانت لهم بالطاعة والولاء خاصة بعد انتصارهم في معركـة الأرك ٥٩١هـ ـ ، ولكن سرعان ما ظهرت بذور الضعف وعوامل الا يار ، ومنذ المراحل المبكرة مـن

---

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ،ص١٣٠ .

(٢) ابن خلدون ، العبر جـ ٦ ، صـ ٤٩١ / ٤٩٢ ، ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ٢٣١ .

تاريخ هذه الدولة خفية حينا وظاهرة أحياناً أخرى ، ضعيفة التأثير والأثر في آن وقوية وعنيفة في آن آخر [٣] .

ولعل من أهم العوامل التي مهدت لسقوط الموحدين الصدام العسكري بينهم وبين القوى المعادية لهم في الداخل والخارج ، وذلك لأن دولة الموحدين قامت على عصبية قبلية قوية هي عصبية (المصامدة) التي أخضعت قبائل عدة في المراحل الأولى من قيامها ، لذلك كان من الطبيعي أن تتمرد تلك القبائل وتثور تلك العصبيات للانفصال عن الدولة ، كما هو الحال في تمرد قبائل صنهاجة وزناته – أكبر قبائل المغرب – والتي كانت لها السيطرة على المغرب قبل قيام الموحدين ، كما أن ممالك وإمارات أسبانيا كانت تتحين الفرص للانقضاض على دولة الموحدين ، حين تظهر لها بوادر الضعف والوهن ، حتى واتتها الظروف بتوجيه ضربة عنيفة للموحدين في معركة العقاب ٦٠٩هـ ، وحينئذ تكالبت قوى الأسبان وأخذت توجه ضربات عنيفة ومتوالية ضد الموحدين في الأندلس حتى أوهنت منها العظم ومهدت لسقوطها وطردها من الأندلس .

ومن العوامل الدينية والاجتماعية التي أدت لسقوط دولة الموحدين وإشاعة الكراهية ضد حكمهم : أنهم اعتبروا أنفسهم – دون سواهم – أهل التوحيد [١] ، وأن على الجميع الالتزام بآراء ابن تومرت ٥٢٤هـ [٢] ووجهوا التهم إلى من خالفهم [٣] واتهموهم بالكفر ، وأحلوا دمائهم وأموالهم وحرمتهم ، بل وجهوا نفس التهمة إلى من بقى على طاعة المرابطين من الرعية ، لذا كرههم الناس بعد أن اشتطوا

---

(٣) عقيلة الغناي ، سقوط دولة الموحدين ، صـ ٦ .

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ١٨٨ ، أحمد العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب ١٠٨ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص١٤٤ ، عبد الواحد المراكشي ، المعجب ١٨٣ ، البيذق ، أخبار المهدي ، جـ ١ ، ص٨٢ .

(٣) البيذق : أخبار المهدي ، ٨٣ .

من فرض عقيدتهم وأخذت هذه الكراهية تنمو وتشتد في النفوس حتى إذا ما ظهرت بوادر الضعف على الدولة ، أظهرت الرعية ما في قلوبها من حقـد وعملـت علـى المشاركة في كل معركة تؤدي إلى إسقاط دولة الموحدين .

كما كان من العوامل التي هيأت لسقوط دولة الموحدين ما قام به عبد المؤمن بن علي ت . ٥٨٠هـ من تغيير نظام الحكم من خلافة مبنية على البيعة والـشورى ، وهو النظام الذي وضعه المهدي بن تومرت [١] إلى خلافه وراثية في عقبه ممـا أدى إلى تنافس بين الأبناء والأحفاد حول الاستئثار بكرسي الخلافة ، وما نتج عن ذلك مـن مؤامرات وفتن كانت سبباً رئيسياً في سقوط دولة الموحدين ، بالإضـافة إلى ظهـور الأحزاب السياسية بين رجال الدولة وكثرة المؤامرات التي بـدءوا يـدبرونها ضـد بعضهم البعض ، وقامت منافسات سياسية حامية بين الفرقاء واكبتها معارك عسكرية شرسة ، هددت الحياة الاقتصادية في دولة الموحدين ، وأفسدت الحياة الاجتماعيـة وأشاعت في البلاد الفوضى والدمار وانعدام الأمن ، ومن ثم أسرعت بالدولـة نحـو السقوط .

وعل الرغم من الصورة السياسية المشرقة التي تجلت في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلا أن دولة الموحدين تعرضت لضربات عسكرية موجعة في عدد مـن الجبهات في المغرب والأندلس ، فقد تمرد على الدولة ابـن مـردنيش [٢] في شـرق الأندلس وشجع تمرده قبائل صنهاجة وعمارة وأوربة [٣] في المغرب على الثورة ضـد الدولة ، ولقد تكلف الموحدون الكثير من الرجال والعتاد والأموال حتى تمكنوا مـن القضاء على حركات التمرد .

---

(١) البيذق : أخبار المهدي ٣٣ ، ٩٢ ، ابن عذاري البيان المغرب جـ ٣ ، ص٢٤ .

(٢) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص٢٣٢ .

(٣) ابن الأثير الكامل ، جـ٩ ، ص٩٠ ، الناصري ، الاستقصا ، جـ٢ ، ص١٤٧ .

ومن العوامل التي أدت إلى إضعاف دولة الموحدين ثورة بني غانية [٤] في جـزر شرق الأندلس بعد هزيمة الموحدين قرب مدينة شنترين بالأندلس ومقتـل خليفتـهم يوسف بن عبد المؤمن ، فنقض بنو غانية الطاعة وهجموا على المغـرب الأوسـط ، استولوا على بجاية قاعدة الحكم فيه واضطر الموحدون إلى محاربتهم وسحبوا عدد كبير من جيوشهم في الأندلس مما شغلهم عن الدفاع عن هذه الجبهة ، وكان ذلك سـبباً مباشراً لطردهم من الأندلس .

كما تعرضت بلاد المغرب في عهد الموحدين إلى هجوم حملات عسكرية قادمـة من مصر في العهد الأيوبي بقيادة " قراقوش " [١] القائد والوزير الأيوبي وكان هدفها احتلال بعض مناطق المغربين الأدنى والأوسط حتى يتم تكوين خط دفاعي يحمي مصر الأيوبية من مخططات الموحدين للاستيلاء على مصر والمشرق الإسلامي .

هذه بعض الأسباب التي عملت على إضعاف دولة الموحدين ، ومن ثم سقوطها وا نيارها ، ولقد ورث أملاكها ثلاث دول لعبت دوراً خطيراً في المغرب الإسـلامي وهي :

دولة بني مرين في المغرب الأقصى ، وبنو عبد الـواد ٦٣٣هـ ـ في المغـرب الأوسط ، والحفصيون ٦٢١هـ في المغرب الأدنى وهي الدولة التي نؤرخ لمظاهرهـا الحضارية .

وإذا كان عميد البيت الحفصي عمر بن يحيى ت . ٥٧١هـ نشأ في أكنـاف الموحدين وتحت عباء م وكان من أخلص أنصارهم [٢] إلا أنه سرعان ما خطط أهـل

---

(٤) ابن خـلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص٣٩٠، ٣٩١ ، عبد الـواحد المراكشي ، المعجب ٢٦٨ ، محمد عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ .

(١) ابن خلدون ، وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ ، البيذق ، أخبار المهدي ، ص ٣٠ / ٣١ ، ابن جبير الرحلة ٥٣ / ٥٤ .

(٢) البيذق ، أخبار المهدي ، ٩٢ .

بيته لأنفسهم ولمصلحتهم بعد أن توقعوا حدوث كثير من عوامل الضعف والفساد في جسد الدولة ، وقرب ا يارها ، وسرعان ما تحقق أمل الحفصيين سنة ٦٢١هـ حينما تمكن أبو زكريا محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص من الاستقلال عن الدولة الموحدية وأعلن قيام دولتهم في تونس في نفس العام ، وهي الدولة التي نؤرخ لها ولحضار ا في هذه الرسالة .

الفصل الأول

قيام دولة بني حفص وسياستها

- ويشتمل على المباحث الآتية :
- نسب بني حفص والتعريف بحكامهم .
- جهود أبي زكريا الحفصي فـي تأسـيس الدولة .
- أمير المؤمنين محمد المستنصر بالله وبداية عهد الاستقرار .
- أبو إسحاق إبـراهيم بـن أبـي زكريـا الحفصي وبداية مرحلة الاضمحلال .

المبحث الأول : نسب الحفصيين وأصلهم :

ينسب الحفصيون إلى أبي حفص عمـر بن يحيى بن محمد بن والد بن علي بن أحمد بن ولال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن وافتن بن محمد بن محمد بن محبة بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عبد الله بن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه [١] .

وهم من قبائل هنتاتة [٢] البربرية ، وكان لشيخهم عمر دور كبير في نجاح دعوة المهدي بن تومرت [٣] ولقد سماه ابن تومرت بعمر وكناه أبا حفص بعد أن كان أسمه البربري [فصكة أو مزال] [4] ، وكان الشيخ أبو حفص مسانداً للمهدي وأحد العشرة السابقين لدعوته والمسمون بالجماعة [٥] .

(1) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع : الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، ص ٤٨ ، وزامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ١١٥ / ١١٦ .

(2) أعظـم قبائـل المصامدة البربرية ، ويسكنون جبل درن المسمى الآن جبل الأطلس . ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والعرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، جـ ٦ ، ص ٣٧١ .

(3) محمد بن عبد الله بن تومرت من أهل سوسة من قبيلة هرغة البربرية ، يدعي أنه يتصل في نسبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، رحل إلى المشرق لطلب العلم سنة ٥٠١ هـ . ولقي الشيخ الغزالي والشيخ أبا بكر الشاسي فأخذ عنهما أصول الفقة ، ونزل ببلاد المغرب في بجاية ، فأخذ في التدريس والوعظ ، ومال الناس إليه وأحبوه ، ورحل عن بجاية بعد طلب وإليها له بالرحيل فـ ل ملالة من قرى المغرب ولقي عبد المؤمن بن علي وهو متوجه إلى المشرق فرأي فيه ابن تومرت بعض العلامات التي كانت عنده بعد أن عـرف أنه من قيس عيلان حيث يرى المهدي أن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس عيلان ، من بني سليم " وهكذا بدأت دعوة المهدي بمساندة عبد المؤمن وبنيه من بعده وتوفي المهدي سنة ٥٢٤ هـ . عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٦ .

(4) المراكشي : المعجب ، ص ٢٧٥ .

(5) المسمون بالجماعة منهم ، عبد الواحد الشرقي ، عبد المؤمن بن علي ، عمر بن عبد الله الصنهاجي ، الشيخ عمـر بن أبي حفص ، يوسف بن سليمان ، عبد الله بن سليمان ، أبو عمران موسى بن علي الضرير ، أبو إبراهيم إسماعيل الهزرجي بن بخيت ، وأيوب الجدميوي ، المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

لقبة المهدي بالشيخ وكان يجله ويقدره ويدعوه [المبارك] ويقول " لا يزالون بخير ما بقي فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده " [١] .

واستمر دور الشيخ أبي حفص بعد وفاة المهدي ، ففي عهد عبد المؤمن[٢] خليفة المهدي كان للشيخ أبي حفص دور كبير في حمل المصامدة على طاعة عبد المؤمن ، فلم يستطع عبد المؤمن إعلان ولايته إلا بعد ثلاث سنوات من موت المهدي عندما قال له الشيخ " نقدمك كما كان الإمام يقدمك فعلم أن أمره منعقد " [٣] .

فكان الشيخ صاحب الحل والعقد في عهد عبد المؤمن ، فكان عبد المؤمن يرسله في مقدمة الجيوش ومن ذلك أنه أرسله في مقدمة جيشه حين زحف على المغرب الأوسط قبل فتح مراكش[٤] سنة ٥٣٧هـ فحمل البربر على طاعته ، وأرسله لتأديب الثائر محمد بن هود الذي أدعى الهداية وتبعه الناس وتغلب على المغرب الأوسط ولم يبق منه إلا مراكش وفاس فاستطاع الشيخ أبو حفص الظفر بهذا الثائر وقتله وقضى على ثورته [٥] .

---

(1) المراكشي : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(2) عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي ، ولد بتاجرا من أعمال تلمسان ، ويذكر انه ينسب إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وأنه تربى ونشأ في كومية قبيلة بربرية ولد سنة ٤٨٧هـ ، وتوفي سنة ٥٥٨هـ بعد أن أسس دولة الموحدين . المراكشي : المعجب ، ص ١٦٩ .

(3) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٧١ .

(4) مراكـش : اسم بربري قديم قد يكون مشتق من أوركشي يعني ابن كوش ومعنى كوشي بالبربرية الأسود . وسميت بعبد اسود أستوطنها وكان يخيف الناس واسمة مراكش . المراكشي : المرجع السابق ، ص ١٠٠ ، أما ابن خلكان : فيرى أن معنى مراكش أمشي مسرعاً بلغة المصامدة لأن موضعها كان مأوى للصوص وكان المسافرين يقولون لرفقائهم هذه الكلمة حثاً لهم على الإسراع ، جـ٥ ، ص ٤٧ .

(5) ابن عذاري : أبو عبد الله المراكشي : البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، جـ٣ ، ص ٣١ .

ولما عزم عبد المؤمن على الرحلة إلى إفريقية سنة ٥٥٤هـ استخلف الشيخ على المغرب ، ثم جعله والياً على قرطبة [١] وأعمالها [٢] واستمر دور الشيخ في عهد يوسف [٣] بن عبد المؤمن ، فلم يستطيع يوسف إعلان ولايته إلا بعد مضي خمس سنوات عندما بايعه الشيخ أبو حفص وكان الشيخ يهدف من عدم مبايعته مباشرة بعد وفاة أبية لاختباره ومعرفة قدرته على الحكم ، ووصف ابن خلدون ذلك الموقف بقوله : " ولما ولى يوسف بن عبد المؤمن تخلف الشيخ أبو حفص عن بيعته ، ووجم الموحدون لتخلفة حتى استنبل غرضه في حكم امضاة بمعقد سلطانة ، وأعجب بفضلة وأعـطاه صفقة يمينه وأعلن بالرضا بخلافته فكانت عند يوسف وقومه من أعظم البشائر ، وتسمى بأمير المؤمنين سنة ثلاث وستين وخمسمائة " [٤] .

وفي سنة ٥٦٢هـ أرسل الأمير يوسف الشيخ أبا حفص لتأديب الثائر في جبال غمارة المدعو سبع بن منقاد الذي شق عصا الطاعة وأعلن الثورة ، واستطاع الشيخ القضاء على ثورته ، وقد بقي الشيخ أبو حفص في دوره القيادي والاستشاري في دولة الموحدين حتى توفى سنة ٥٧١هـ [5] .

---

(1) قرطبة (Cordoba): مدينة بالأندلس وسط بلادها وبـها ملك بني أمية قال عنها ابن حوقل أعظم مدن الأندلس ليس لها شبية بالمغرب في السعة وكثرة الأهل وهي حصينة ومسورة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ٥٣ .

(2) المراكشي : المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٨ .

(3) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، تولى أمر الموحدين بعد وفاة أبيه ، له مشاركة في الأدب والعلم واتساع في اللغة ، أجتمع عنده من العلماء ما لم يجتمع لغيره من الملوك . الزركشي محمد بن إبراهيم : تاريخ الدولتين الموحديه والحفصية ، ص ١٥/١٤ ، المراكشي : المعجب ، ص ١٩٩ .

(4) العبر ، جـ ٦ ، ص ٣٧٢ .

(5) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ٣ ، ص ٢٤٠ .

ويرجع ابن النخيل [١] نسب بني حفص إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو الذي وضع شجرة النسب الحفصية ، إلا أنه يساورنا الشك في صحة هذا النسب ، لما عرف عن بلاد المغرب من اختلاق الأنساب إلى البيت الشريف فمثلاً زناتة [٢] كانت تدعى أنها من العرب وأبناء زيان [٣] ملوك تلمسان [٤] يدعون أنهم من ولد القاسم بن إدريس العلوي وبنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة [٥] يدعون أنهم من

---

(1) محمد بن إبراهيم بن عبد العزيز بن نخيل الأندلسي أبو عبد الله نزيل تونسي ، أديب وكاتب ومؤرخ ، لمع نجمة عندما جعله عبد الواحد الحفصي رئيساً لديوان الأعمال ثم رئيساً لديوان الرسائل ، ألف كتاباً سماه (تاريخ الدولتين) ذكرة المؤرخون كابن خلدون والزركشي وغيرهما ، توفي سنة ٦١٨ هـ عندما نكبة أبو العلاء بن ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن . محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسين ، جـ ٥ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

(2) زناته : من أشهر قبائل المغرب ، اشتهروا برطانة تختلف عن سائر البربر ، وهم من البربر البتر ينقسمون إلى عدة قبائل مثل مغراوة وبني يفرن ، وبني مرين ، وبني زيان ، وبني وطاس ، وانتشرت قبائل زناتة في انحاء متفرقة من المغرب من أقصاه إلى أدناه . ابن خلدون العبر ، جـ ٧ ، ص ٣ .

(3) أبناء زيان : فرع من زناتة البربرية حكموا الشمال الإفريقي ، وهم الطبقة الثانية من زناتة ، حسب تقسيم ابن خلدون لقبيلة زناتة وهم أبناء زيان أبو ملوك بني عبد الواد الذين أدعوا النسب إلى البيت النبوي الشريف . ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٥٠ .

(4) تلمسان : هما مدينتان متجاورتان مسورتان إحدهما قديمة والأخرى حديثة اختطها المرابطون ملوك المغرب وأسمها تافرزت فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس واسم القديمة أغادير يسكنها الرعية ، ويكون بتلمسان الخيل الراشدية التي لها فضل على سائر الخيل ، ويزعم البعض أنه البلد الذي أقام به الخضر عليه السلام . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٤ .

(5) ابناء أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر وهم يزعمون أن عبد الله بن هلال من الأعراب . كانت لهم عزة وكثرة تغلبوا على نواحي طرابلس وقابس كانوا مؤيدين الموحدين ولما ملكت زناتة بلاد المغرب الأوسط دخله زغبة واقتطعوا منه الكثير من الأمصار ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

ولد أبي بكر الصديق [١]. ولعل الحفصيين تأثروا بهذه الموجة المنتشرة في بلاد المغرب وقتئذ ، فزعموا أنهم ينسبون إلى عمر بن الخطاب ، وهذا النسب لم يذكره إلا مؤرخاً واحد هو [ابن النخيل] كما ذكرنا وتبعة البعض ولكن بتحفظ واضح وإلى هذا يشير ابن خلدون عندما قال " ويظهر منه أن هذا النسب القرشي وقع في المصامدة والتحم بهم واشتملت عليه عصبيتهم شأن الأنساب التي تقع من قوم إلى قوم وتلتحم به " [٢] أما ابن أبي دينار فإنه يذكر " أن هذا النسب غارق في البربر وأن العرب كانت تأنف الزواج من البربر " [٣] .

وهذا هو الواقع لأن العرب كانت تحافظ على أنسابها وتبتعد عن الاختلاط في الأنساب فلربما قصد الحفصيون من انتسابهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب إكساب حكمهم الصبغة الشرعية وليتميزوا عن غيرهم من قبائل البربر بالنسب الشريف ، فأرادوا ترجيح كفتهم على سائر القبائل البربرية بزيادة النسب إلى البيت القرشي ، وهذا ما قصده ابن خلدون بقوله : " الأنساب وفائدتها إنما هي العصبية للنعرة والتناصر فحيث تكون العصبية مرهوبة والمنبت فيها أزكى محمى تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى وتعديد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها ، فيكون الحسب والشرف أصليين في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب " [٤] .

(1) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٣٤ .

(2) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٧١ .

(3) ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ص ١٣٠ .

(4) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٣٤ .

قيام الدولة الحفصية :

كـان من أشد العوامل المساعدة على ضعف الموحدين ثورة ابن غانيـة [١] في إفريقية ، وقد تسببت هذه الثورة في إحداث زعزعة في أركان الدولـة الموحديـة ، وكان خروج ابن غانية على الموحدين منذ قيام دولتهم ، فاسـتقل بميورقـة [٢] ، ولم يعيرة الموحـدون أدنى اهتمام في بادي أمرهم ، حتى كانت ولاية ابن إسـحاق بـن محمد بن غانية ، أرسل له الموحدون يطالبونه بالطاعة والدعاء لهم على المنابر ، فأرجاء الأمر إلى ما بعد متعللاً باستشارة قومه . ثم توفي أبو إسحاق وخلفة ابنه علي الـذي أعلن التمرد على الموحدين وعدم قبول طاعتهم بل ومهاجمتهم في إفريقية والاستيلاء على بجاية [٣] وأسرواو اليها من قبل الموحدين سنة ٥٨٠هـ [٤] .

ولعـل من الأسباب التي شجعت ابن غانية على مهاجمة إفريقية ، بعـدها عـن مركز الخلافة الموحدية من ناحية ولانشغال الموحدين في الأندلس من ناحية أخـرى، وانهزامهم أثناء حصار شنترين [٥] سنة ٥٨٠هـ وقتل سلطانهم أبي يعقوب يوسـف

---

(1) كان يوسف بن تاشفين أمير المرابطين قد أهدى رجل من رجالة ويدعى علي جارية تسمى غانية فكان لها ابنين أحدهما يحيي والأخر محمد وقد ولى يحيى على قرطبة ثم مات فاضطرب أمر أخيه الذي عبر إلى ميورقة واستقل بها . المراكشي : المعجب ، ص ٢٢٣ .

(2) ميورقة Malioamca جزيرة شرقي الأندلس بالقرب منها جزيرة منورقة Menohea كانت قاعدة ملك مجاهد العامري ، وتعرف الآن بجزر البليار . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٢٤٦ .

(3) مـدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب أول من اختطها الناصر بـن علناس بن حماد بن زيري سنة ٤٥٧هـ ، كانت قديماً ميناء ثم بنيت المدينة وهي في جبل شاهق وقاعدة ملك بني حماد وتسمى الناصرية نسبة إلى بانيها ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٤ ، ٣٣٩ .

(4) المراكشي : المعجب ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(5) مدينة شنترين Santahen كبيرة بالأندلس في الشمال الشرقي من أشبونة على نهر تاجوا ، حكمها العرب حتى عام ٥٤٣هـ حيث ملكها الفونس السادس . المراكشي ، المعجب ، ص ٢١٥ .

إضافة إلى السبب المباشر والأقوى وهو قدوم المماليك الترك مـن الـبلاد المـصرية واستيلائهم [١] على قسم كبير من إفريقية بقيادة قراقوش الأرمني [٢] ، ولعل هـذه الأسباب مجتمعة ساهمت بشكل كبير على مهاجمة إفريقية من قبل ابن غانية [٣] الذي تحالف مع قبائل بني سليم [٤]، وعند استيلائه على بجاية ارتكب أبشع الجرائم فدخل البيوت الآمنة وقتل الكثير من رجال الموحدين والأفارقة عدداً يبلغ قرابة أثنى عـشر ألفاً [٥] .

وعندما سمع الخليفة الموحدي يعقوب المنصور [٦] بإخبار ابن غانية وما فعلـه في إفريقية وتحالفة مع قراقوش ، جهز أسطولاً بحرياً وصل إلى إفريقية وسط استقبال أهالي بجاية الحافل فـدخل الموحدون بجاية بعد فرار يحيى بـن غانية منهزماً ولحـق بأخيـه على الذي كان محاصراً لقسنطينة [٧] ومن ثم لحق الأخـوان يحيي وعلي بالواحـات

---

(1) هم طبقة المماليك الذين أكثر من شرائهم الصالح نجم الدين أيوب وأسكنهم قلعة الروضة وعملوا في خدمته حتى استطاعوا أن يستولوا على مصر من ساد م الأيوبيين بعد مقتل شجرة الدر وكونوا دولة قوية في مصر والشام عرفت بدولة المماليك البحرية [٦٤٨ – ٧٨٤ هـ] سعيد عاشور عصر المماليك في مصر والشام ، ص ١٥ .

(2) مملوك لتقي الدين أبن أخي الملك الناصر الأيوبي ضرب به المثل في الظلم ويبدوا أن ذلك راجع لقسوته في معاملة الرعية . المراكشي : المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

(3) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ٣ ، ص٢٤٨ . وابن خلدون :العبر ، جـ٦ ، ص ٣٧٣ .

(4) بني سليم : بطن من أوسع بطون مضر انتقلوا إلى إفريقية عندما نقلهم المعز الفاطمي فأقاموا ببرقة وجهات طرابلس زماناً ثم انتقلوا إلى إفريقية وأهم بطو م زغب ، ذباب ، وهبيب ، وعوف ، وليبد وغيرهم . ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٧٢ . القلقشندي أحمد بن علي ، اية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص ٢٧٢ .

(5) أبو محمد عبد الله التجاني : رحلة التجاني ، ص ١٤ .

(6) يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ولد سنة ٥٥٤هـ تولى وعمره إحدى وأربعين سنة دامت خلافته أربعة عشر عاماً وحدثت في عهده موقعة الأرك الشهيرة سنة ٥٩١هـ كان له اهتمام بالأدب والعمران ، توفي سنة ٥٩٥هـ المراكشي المرجع السابق ، ص٢٣٤ . وابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ١٧٠ .

(7) مـدينة محصنة من حدود إفريقية مما يلي المغرب وهي الآن من أهم مدن الجزائر و ا جامعة إسلامية مشهورة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٣٤٩ .

الغربية في إفريقية . ثم عاد ابن غانية مرة أخرى إلى مغامراته في إفريقية متحالفاً مـع قراقوش الأرمني فأرسل له يعقوب المنصور الموحدي جيشاً مكون من ستة آلاف رجل إلى قفصة [١] حيث يقيم المتحالفان ، إلا أن الموحدين انهزموا في هذه الجولة ، فخرج إليهم المنصور بنفسه سنة٥٨٣ هـ [٢] وأخـذ الثأر للهزيمة التي لقيها الموحـدون في قفصة واستطاع المنصور بعـد هـزيمة ابن غانية وحليفة قراقوش الاسـتيلاء علـى قابس [٣] ، وتابع انتصاراته فاستولى على بلاد الجريد [٤] ، ثم استولى على قفـصة . وقبل العـودة إلى مراكش جعل على إفريقية والياً من قرابته ويدعى أبا زيد بـن أبي حفص ، وأعطى الأمان لقراقوش بعد أن استسلم وطلب الأمان . وما أن عاد المنصور إلى مراكش حتى عاد قراقوش إلى الغدر فاستولى على قابس وطرابلس [٥] بعد أن قتل الكثير مـن أشياخ العرب ، وتصدى له في هذه المرة ابن غانية واستولى على مـا في يده مـن بلاد طرابلس وقابس وطرد المماليك الترك من إفريقية وأمـسك بزمـام الأمور فيها .

---

(1) بلد صحـراوي فيها حدائق نخيل ، يسكنها البدو الرحل وحولها قرى صغيرة ، ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ١٤٣ .

(2) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٤٨ .

(3) مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر من أعمال إفريقية في الإقليم الرابع كان فتحها سنة ٢٢٧هـ تشتهر بصناعة الحرير . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٢٨٩ .

(4) بلاد الجريد هي توزر وقفصة ونفطة والحامة : ويمتد هذا الإقليم من تخوم بسكرة إلى تخوم جزيرة جربة ويبعد جزء منه كثيراً عن البحر المتوسط ، كقفصة وتوزر الواقعتين على مسافة ٢١٧ كلم ، وهو الآن جـزء كبير من صحراء الجزائر وتشتهر بإنتاج أنواع جيدة من التمور التي تصدر إلى أوربا . ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ١٤٢ .

(5) طرابلس مدينة على شاطئ البحر فتحها عمرو بن العاص سنة ٢٣هـ ومعنى طرابلس المدن الثلاث وهذا يعني إنها ليست مدينة واحدة وأنما كورة كبيرة . ياقوت الحموي المصدر السابق ، جـ٤/٢٥ .

وكـان تصدي ابـن غانية للأرمني يعـود إلى تعـرض قراقـوش للعـرب أحـلاف ابـن غانية وقتل الكثير منهـم ، واستولي ابن غانية أيضاً على المهدية [١] ثم عـلى تونس [٢] سنة ٦٠٠ هـ وأسر واليها السيد ابن زيد ، فعاث ابن غانيـة فساداً في إفريقية فلم يكن يحسن سياسة الملك فكرهه الناس [٣] وتذمروا منه فلما سمع السلطان الناصر [٤] الموحدي في الأندلس بشنائع ابن غانية في إفريقية قرر الذهاب إلى إفريقية وإصلاح أحوالها ، فلما قدم الناصر إلى أفريقية فر يحي بن غانية إلى الصحراء كعادته وبقي ابن عمه علي بن غازي في المهدية ، فأرسل السلطان الناصر الموحـدي أحد رجالة ويدعى عبد الواحد بن أبي حفص لمطـاردة ابن غانية حيث التقى معه في معركة تاجرا [5] سنة ٦٠٢هـ وحقق انتصاراً عظيماً عليه [6] ، بينما نزل السلطان الناصر على المهدية وحاصرها ، حتى أعلن على بن غـازي بن غانية طلبه للأمـان ،

---

(1) المهدية مدينة حصينة تقع على الساحل بناها المهدي الشيعي سنة ٣٠٠هـ وجعلها دار مملكته ، ثم استولى عليها الأفرنج (المسيحيين) سنة ٥٤٣هـ وبقيت في أيديهم حتى عهد عبد المؤمن الموحدي سنة 555 هـ فأستولى عليها وطردهم منها . يافوت الحموي المصدر السابق ، جـ٥/٢٣٠ ، ٢٣١.

(2) مدينة كبيرة محدثة بإفريقية بناها حسان بن النعمان الغساني على ساحل بحر الروم عمرت من أنقاض مدينة قرطاجة كان اسم تونس القديم (ترشيش) وهي الآن قصبة بلاد إفريقية وليس ا ماء جار ، وهي من أصح بلاد إفريقية هواء . يافوت الحموي : المصدر السابق ، جـ٢/٦٠ .

(3) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٥٤ .

(4) الناصر : أبو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، ولد سنة ٥٧٦هـ ومدة خلافته خمسة عشر سنة ، وفي عهـده حدثت موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ والتي هزم فيها المسلمون في الأندلس ، وتوفي سنة٦١٠هـ ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٣٦ . والمراكشي ، المعجب ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ .

(5) تاجرا : بلدة صغيرة بالمغرب من ناحية هنين من سواحل تلمسان . ا ولد عبد المؤمن بن علي الموحدي صاحب المغرب ، يافوت الحمودي : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٥ .

(6) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٥٤ .

فأمنه الناصر واحسن إليه وأهداه ثوبان نسجا بأنواع الجواهر وجعلت فيهما إعلام من اليواقيت الأحجار الكريمة [١] .

وبعد أن استقرت الأوضاع في إفريقية فكر الناصر في العودة إلى مراكش ولكن شغله أمر إفريقية فخشي من عودة الاضطرابات إليها مرة أخرى ، فاستشار الموحدين في بلاطة فأشاروا عليه بتوليه عبد الواحد بن عمر بن أبي حفص ، فاجتمعت رغبة البلاط الموحدي مع رغبة الناصر [2] ، لأن الناصر كان يرغب في إبعاد عبد الواحد من مراكش نظراً لقوتة ومكانته عند الناس وحبهم له ، وكذلك رجال البلاط الموحدي كانوا يهدفون إلى إبعاده عن السلطان لمكانته الخاصة عنده ولأنهم شعروا أن السلطان كان يخشى عبد الواحد الحفصي نظراً لمكانة أبيه الشيخ أبي عمر حفص الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في دولة الموحدين كما سبق ذكره . لذلك اجتمع رأيهم مع رأي الناصر ، فأرسل الناصر إلى عبد الواحد يعرض عليه أمر ولاية إفريقية ، فوافق عبد الواحد بشروط دلت على قوة شخصيته ونفوذه وكان من أهم هذه الشروط :

١ – أن يرجع إلى المغرب بعد قضاء مهمات إفريقية .

٢ – يختار من الموحدين من يكون له عوناً في مهمته .

٣ – أن لا يعقب عليه في عزل ولا ولاية [٣] .

وتسلم عبد الواحد زمام الأمور في إفريقية سنة ٦٠٣هـ فكان عالماً فاضلاً ، وهو أول من اخترع زمام التضييف [٤] للوفود بتونس ، وكان له مجلس كل يوم

---

(1) التجاني : الرحلة ، ص ٣٥٩ .

(2) محمد العروسي المطوي : السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي ، ص ١٠٠ .

(3) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٧٩ . والعروسي ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(4) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٣١ .

سبت للنظر في مشاكل الناس وشئو م واستمر في مطاردة ابن غانية ودارت بينـهما حروب استطاع من خلالها الانتصار عليه وإضعافه فنعمت إفريقية بالهـدوء زمنـاً . وبقي عبد الواحد في ولايته حتى وفـاته سنة ٦١٨هـ [١] فأجمع شيوخ الموحـدين على انتخاب أبنه عبد الرحمن أبا زيد ، فبايعه مشائخ الموحدين في إفريقية ، وجلـس مجلس أبيه ، وأحسن إلى الناس فأحبوه ، وبعث إلى المستنصر[٢] الموحدي في مراكش يخبره بما تم بشأنه من شيوخ الموحدين واختياره لولاية إفريقية فما كان من المستنـصر إلا عزلة ومطالبته بالقدوم مع اخوته إلى مراكش . ولعل رجال البلاط الموحـدي في مراكش خشوا من أبناء الشيخ أبي حفص عمر أن يستقلوا بأمر إفريقيـة ويعتبرو ـا ولاية يتوارثو ا أباً عن جد ، فأرادوا قطع دابرهم منها فأوعزوا إلى الخليفة المستنصر الموحدي الذي كان العوبة في أيديهم بعزل أبناء عبد الواحد وتوليه أبي العلاء بن أبي يعقوب من بني عبد المؤمن على إفريقية [٣] ، وكان أول عمل يقوم به الوالي الجديـد في إفريقية سجن المؤرخ ابن النخيل واخوته ومن ثم قتلهم ومصادرة أمولهم ، وقيل أن السبب في نكبة المؤرخ ابن النخيل وأخوته بسبب تطاولة على المستنصر الموحدي[٤] .

ولم يستمر الوالي الجديد كثيراً في إفريقية نظراً للظروف التي حدثت ومن أبرزها عودة مشاكل ابن غانية في إفريقية ، وسبب خاص بالوالي أبو العلاء وهو وفاة والدته في الأندلس فاضطر إلى الرحيل عن إفريقية ، وولى الخليفة الجديد عبد الواحد الملقب

---

(1) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(2) المستنصر هو أبو يعقوب يوسف بن عمر بن يوسف بن عبد المؤمن ، بويع وكان عمره عشرة سنين ، كانت خلافته عشرين سنة ، ورد عنه أنه لم يخرج في غزوة ولم يخرج من حاضرته إلا إلى مدينة تينمل للتبرك ا وتوفي سنة ٦٢٠هـ ، ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٦٩ .

(3) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٣٧٩ .

(4) محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ، جـ٥ ، ص ٣١ .

بالمخلوع [١] بدلاً عنه ابنه عبد الرحمن بن أبي العلاء ، فأساء إلى الناس ورفعت به الشكاية إلى الخليفة الجديد العادل[٢] الموحدي الذي رأي أن خير من يقوم بأمر إفريقية ويصلح شأنها أبناء عبد الواحد بن عمر فوقع اختياره على أبي محمد [٣] عبد الله بن الشيخ عبد الواحد الحفصي وعقد له على ولاية إفريقية سنة ٦٢١هـ فكان أول عمل قام به الوالي الجديد [٤] أن عقد لأخوية إبراهيم على بلاد قسطيلة [٥] . وأبي زكرياء على قابس . وكأنه أراد بذلك تثبيت أقدام الحفصين على ولاية إفريقية . ثم وجه أمره إلى مطاردة ابن غانية الذي دخل بجابة فأجلاه عنها .

اضطرب أمر الموحدين بعد أن تمكن المأمون [6] من قتل الخليفة العادل وأمسك بزمام الحكم في مراكش فأرسل المأمون إلى والي إفريقية أبي محمد ليدعو له على المنابر .

فرفض أبي محمد مبايعته ورد رسله لأنه (أي المأمون) قتل الخليفة العادل الذي كان على وفاق مع عبد الله بن عبد الواحد وولاة أمر إفريقية ، فأغضب المأمون تصرف عبد الله فأرسل إلى أخيه أبي زكريا في قابس يغرية بولاية إفريقية أن هو أخذ

---

(1) المخلوع هو عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن بويع سنة ٦٢٠هـ وخلع نفسه قبل أن يخنق في مؤامرة دبرت له فكانت خلافته ثمانية اشهر فقط . ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٦٩ .

(2) العادل : أبو محمد بن المنصور بويع له البيعة الأولى بمرسية من بلاد الأندلس منتصف سنة ٦٢١هـ وتلقب بالعادل في أحكام الله ، أضطربت أحوال المغرب في عهده ، مات مقتولاً في مؤامرة دبرت له حيث وضع رأسه في خصة ماء وخنق حتى مات سنة ٦٢٤هـ . ابن عذاري . المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٢٦٩ .

(3) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر ، ولي أمر إفريقية ، وكان يلقب [بعبو] لم يستمر في إفريقية طويلاً حيث عزل سنة ٦٢٤هـ . الشماع : الأدلة البينة ، ص ٥٤/٥٣ .

(4) أحمد بن حسين بن علي ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص١٠٦ ، ابن خلدون العبر ، جـ٦ ، ص ٣٧٩ . الشماع ، الأدلة البينة ، ص ٥٣/٥٢ .

(5) قسيطلة : مدينة بالأندلس وهي حاضرة كورة البيرة ،وذكر ابن حوقل أنها في بلاد الجريد أرض الزاب الكبيرة وهي مدينة كبيرة عليها سور حصين وأهلها [شراة إباضية] وهي كورة ومن مدنها توزر ونفطة والحامة . يافوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤/٣٤٨ .

(6) هو أبو العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بويع بأشبيلية سنة ٦٢٤هـ كانت ولايته خمسة أعوام ، وهو الذي قتل الخليفة العادل . توفي سنة ٦٢٩هـ . ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ٣ ، ص ٢٧٤ .

البيعة له ، فتقدم أبو زكريا إلى تونس وخرج أبو محمد عبد الله لمواجهته إلا أن الموحدين خذلوه وانضموا إلى أبي زكريا بعد أن سلموه أبا محمد ، فسجنه أبو زكريا فترة من الزمن ثم أرسله إلى المغرب [١] .

وكان أول خطوة قام بها الأمير أبو زكريا عندما استلم أمر إفريقية سنة ٦٢٤هـ أن خلع المأمون وطرد رسله ، ويذكر ابن خلدون السبب في ذلك في قوله : (... لما اتصل به [أي أبو زكرياء] ما أتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش خصوصاً هنتاتة وتينملل ، وكان منهم أخواه : أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم . وأنه أشاع النكير على المهدي في العصمة ، وفي وضع العقائد ، والنداء للصلاة باللسان البربري ، وأحداث النداء للصبح ، وتربيع شكل الدرهم ، وغير ذلك من سنته ، وأنه غير رسوم الدعوة وبدل أصول الدولة ، وأسقط اسم الإمام من الخطبة والسكة وأعلن بلعنة ووافق بلوغ الخبر بذلك وصول بعض العمال إلى تونس بتوليه المأمون فصرفهم وأعلن بخلعة سنة ست وعشرين " [٢] .

وكانت هذه الخطوة الأولى التي تمثل جس نبض لما سيكون عليه موقف الموحدين منه إذا أنه بهذه الخطوة خلع الحاكم الموحدي ولكنه بقي مبايعاً لأبن الخليفة الناصر يحيي . ولما لم يجد موقفاً حازماً من قبل الموحدين وذلك لضعفهم وكثرت الصراعات بينهم خطا أبو زكرياء الخطوة الثانية فأغفل ذكر يحيي بن الناصر من الخطبة واقتصر على ذكر المهدي وتلقب بالأمير وظل على ذلك حوالي ثمان سنوات حتى سنة ٦٣٤هـ حيث جدد البيعة لنفسه وذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الإمام ، واقتصر على لقب أمير ولم يتسم بأمير المؤمنين ، وعندما أوعز بعض الشعراء عليه ذلك في قصائدهم ومن ذلك قول أحدهم منافقاً وموحياً إليه باتخاذ هذا اللقب .

الأصل بالأمير المؤمنينا فأنت بها أحق العالمينا [٣]

زجرهم عن ذلك وامتنع عن لقب أمير المؤمنين طيلة حياته ، وهذا يدل على زهده وتواضعه رحمه الله .

---

(1) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٨٠.
(2) المصدر السابق نفس الجزء ، ص ٣٨٤ .
(3) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٣٣ .

المبحث الثاني :جهود أبي زكرياء الحفصي في تأسيس الدولة :

كان أول عمل قام به بعد استقراره في إفريقية الاتجاه إلى قسنطينة وحاصرها زمناً حتى أعلنت استسلامها ودخولها في طاعة أبي زكرياء وذلك بعد القبض على واليها من قبل الموحدين ابن أبي عبد الله بن يعقوب المنصور ، ثم توجه نحو بجاية حيث قبض على واليها أيضاً أبي عمران بن يعقوب المنصور شقيق والي قسنطينة السابق ، ولم يكن أبو زكرياء قاسياً معهما (أي الواليين السالفين لقسنطينة وبجاية) بل أنه أسكنهما دارين جليلتين بتونس وجعل لكل واحد منهما راتباً قدره ألف دينار [(١)] .

وهذا يوضح السياسة التي انتهجها أبو زكرياء وهي محبة الناس واستمالتهم ، وهي محاولة منه لتكوين دولة قوية تتمتع بمحبة الناس لقائدهم والتفافهم حوله وهذا ما حرص عليه أبو زكرياء كل الحرص .

وبعد فتح المدينتين سنة ٦٢٦هـ توجه إلى مطاردة ابن غانية عند جهات طرابلس [(٢)] والزاب [(٣)] ووراكلا [(٤)] . وحرصاً من أبي زكريا لعدم دخول ابن غانية إلى إفريقية جعل عساكره يجولون بأطرافها لمنعة من دخولها وزعزعة أمنها ، وظل ابن غانية مشرداً حتى مات سنة ٦٣١هـ [(٥)] .

---

(1) ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص ١٠٨ .

(2) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٣٨٣ .

(3) الزاب : كورة صغيرة يقال لها ريغ كلمة بربرية معناها السبخة ، والزاب كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البحر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها ومن الزاب الكبير بسكرة – توزر – وقسنطينة ، طولقة ، نفزاوة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٤/٣٦٥ .

(4) وركلاً أو وركلة : مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديا ، وهي بوابة السودان كما يقال نظراً لقربها منه فكان التجار يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان . ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ١٣٦ .

(5) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٣٨٤ . وابن القنفذ، الفارسية ، ص ١٠٨ .

وقد ساعد أبو زكريا هدوء الأحوال إلى مواصلة زحفة وتوسيع دائرة نفـوذه ، فخرج سنة ٦٣٢هـ إلى المغرب الأوسط ففتح بلاد الجزائر [١] وجعل عليها والـياً تابعاً له .

وكـان أبو زكرياء يسعى إلى الاستقلال بحكم إفريقية وجمع الشمال الأفريقـي تحت رايته ، والقضاء على سلطة المـوحدين في المغرب ، فقـد حاول أغراء عبـد الواد يغمراسن [٢] بن زيان حاكم تلمسان بقبول طاعته والدخول فيها . إلا أن حاكم تلمسان والذي كان يتمتع بسلطة مطلقة في حكمة فضل البقاء على طاعة الموحـدين والاحتفاظ باستقلالة ، فكانت بينه وبين الرشيد الموحدي هـدايا وسـفارات ، ممـا أغضب أبو زكريا الحفصي ، الذي عقد العزم على فتح تلمسان بعد أن قدم إليه وفد بني توجـين [٣] بقيادة عبد القوي وبعض أمراء مغـراوة [٤] ، يتسـصرخونة ضـد يغمراسن ، ويزينون له فتح تلمسان [٥] . فحشد الأمير الحفصي جموع عساكره مـن الموحدين والقبائل المناصرة له وبلغ جيشة أربعاً وستين ألف جندي [٦] .

---

(1) الجزائر : جمع جزيرة اسم لمدينة على ضفة البحر بين إفريقية والمغرب كانت لبني حماد بن زيري الصنهاجي وتعرف بجزائر بني مزغناي (يافوت الحموي . المصدر السابق ، جـ ١٣٢/٢) .

(2) يغمراسن : بن زيان بن ثابت بن محمد السلطان من بني عبد الواد ، وكان من أشد بني عبد الواد بأساً كانت له مهابة وقوة ، ولي الملك سنة ٧٣٣هـ دان له المغرب الأوسط وتلمسان . ابن خلدون ، العبر جـ٦ ، ص٥٢٨ .

(3) بني توجين فرع من قبائل زناتة البربرية ويسكونون في الحامة . ابن خلدون .المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٣٠ .

(4) مفراوة : فرع من زناتة وكانت تحكم فاس وأغمات وسجلماسة . ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٢٥ .

(5) ابن خلدون المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٣٨٤ .

(6) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٩ .

وسار أبو زكريا بجنوده إلى تلمسان حيث حاصرها حصاراً شـديداً ، وأرهـب يغمراسن الذي استطاع أحداث ثغرة في الحصار الشديد على تلمسان والخروج مـع أهله هارباً متوغلاً في الجبال ، وبعد ذلك دخل أبو زكريا المدينة من باب يقـال لـه كشوطة سنة ٦٤٠هـ .

ثم عاد يغمراسن إلى مراجعة نفسه فوجد أن من الأسلم له قبول طاعة أبي زكريا والبقاء في حكم تلمسان ، فطلب الصلح عن طريق أمه سوط النساء التي قدمت إلى أبي زكرياء تفاوضه في شروط الصلح [(١)] التي كان منها :

١ - أن يبقى يغمراسن على حكم تلمسان بعد انفصال عبد الواد عن الموحدين .

٢ – أن يكون تابعاً للأمير الحفصي في تونس .

٣ – أن يذكر اسم الأمير الحفصي أبا زكريا على المنابر .

٤ – يمنح حاكـم تلمسان حـق استخلاص الضرائب لفائدته في بعـض مراكـز إفريقية [(٢)] .

وقبل أن يعود أبو زكريا إلى تونس رأي أن يقسم المغرب إلى دويـلات يكـون عليها حكام أو أمراء يتمتعون بما يتمتع به يغمراسن من نفوذ وذلك خوفاً من إنتقاضه على أبي زكريا ، وحتى يمنع التكتلات الحربية ضده ، فأقام دولة بني توجين وعليهـا عبد القوي بن عباس بن عطية ، ودولة بني مغراوة وعليها علي بن منصور ، وبذلك ضمن القضاء على نفوذ الموحدين في المغرب .

---

(1) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٩٢ .

(2) روبير برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ ١ ، ص٦٠ .

وبعد أن تم فتح تلمسان انقادت بقية بلاد المغرب إلى طاعته ، فبعث إليه أهـالي طنجة [١] وسبته [٢] بـالمبايعة سنة ٦٤٠هـ . كما وصلت بيعة سجلماسـة [٣] في نفس العام ، كما أنقاد إليه بنو مرين[٤] بقيادة عثمان بن عبد الحق وأخيه محمد مـن بعده ، كما حمل بنو مرين أهل مكناسة [٥] على طاعة ابي زكريا فبعثوا بيعتهم سـنة ٦٤٣ هـ . وبذلك دخلت معظم بلاد المغرب في طاعة الحفصيين [٦] .

أمـا بالنسبة لأحـوال الأنـدلـس في أواخـر عهد الموحـدين ، فقـد اندلعـت فيها الثورات ، فخرج أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود [٧] أصـحاب

---

(1) طنجة Tingi بلد على ساحل المغرب مقابل الجزيرة الخضراء ، على ظهر جبل ، بينها وبين القيروان ألفا ميل ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤٣/٤ .

(2) سبتة Ceuta: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر وهي تقابل جزيرة الأندلس وهي محصنة تشبة المهدية بإفريقية . ياقوت الحموي : معجم البلدان ١٨٢/٣ .

(3) مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان وفي منقطع جبل درن وسط رمال و ا ر كبير يخاض و ا بساتين ونخل بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب . ياقوت الحموي : معجم البلدان ١٩٢/٣ .

(4) إحدى قبائل زناتة لهم دور في معركة الارك مع يعقوب المنصور ، زعيمهم الأمير عبد الحق بن محيو المتوفي سنة ٦١٤هـ . استمرت دولتهم ثلاثة قرون اتخذو من فاس عاصمة لهم ثم تحولوا إلى مراكش كان بينهم وبين الموحدين حروب مستمرة . ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٣٤٩ .

(5) مكناسة مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق وهي مدينتان اختط أحدهما يوسف بن تاشفين ملك المغرب والأخرى قديمة أكثرها شجر الزيتون وقيل مكناسة حصن بالأندلس من أعمال ماردة في طريق المار من فاس إلى سلا على شاطئ البحر . ياقوت الحمودي : معجم البلدان ١٨١/٥

(6) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٩٦ .

(7) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ، خرج على المأمون سنة ٦٢٥هـ ، واستقل في شرقي الأندلس ودخل في طاعته مرسية ، وقرطبة وإشبيلية ، وما لقه ، وغرناطة ، المرية ، كانت دولته عشرة أعوام وتسمى الدولة الهودية نسبة إليه . توفي سنة ٦٣٥ هـ . ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ٣ ، ص٢٧٦. والحجي عبد الرحمن بن علي : التاريـخ الأنـدلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٨٩٢-٨٩٧ هـ ، ص ٤٥٩ .

سرقسطة [١] في عهد ملوك الطوائف وظهر زيان بن أبي الحملات بـن مـردنيش [٢] الذي اتخذ من بلنسيه [٣] عاصمة له ، وظهر في جيان [٤] ووادي آشى [٥] محمد ابـن الأحمر[٦] .

كما ظهر التحالف بين مملكة قشتالة [٧] وارجونة [٨] ، فعملـوا علـى إبـادة المسلمين وتعذيبهم فقـد سار فرديناند الثالث ملك قشتالة في سـنة ٦٣٣هـ ـ إلى

---

(1) سرقسطة Zorahoza مدينة كبيرة على نهر أبرة ، ترتفع عن البحر نحو ١٨٤م . تكثر بها البساتين ، فتحها العرب سنة ٩٤هـ واتخذوها قاعدة لهم ، كان صاحب الأمر فيها لعهد بني مروان أمير من بني قصى أسـرة أسبانية دانت بالإسلام . ثم حكمها بني تجيب وهم أسرة عربية تقيم بسرقسطة منذ أول الفتح ، فلما كانت الفتنة دخل أبو أيوب سليمان بن هود عامل لاردة على سرقسطة فاستخلصها لنفسه من بين تجيب وجعلها حاضرة ملكة . المراكشي : المعجب ، ص ٧٥ .

(2) محمد بن سعد بن مردنيش مـركزة المرسية التقى مع الموحدين سنة ٦٥٠هـ وهزم في معركة فحص الجلاب . الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص ٤٥٩ .

(3) بلنسية حاضرة من حواضر الأندلس متصلة بالبحر والجبل ، قاعدة الحكم في شرق الأندلس في عهد بني أمية واستقل بها صقليان من موالي المنصور ابن عامر وهما مبارك ومظفر فتقاسما سلطتها ، إلى أن مات الأول وطرد الثاني من قبل الأهالي الذين بايعوا صقلياً أخرى حتى آل أمرها ، إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن من أحفاد المنصور بن أبي عامر ثم خلفة ابنه مظفر الذي لجأ إليه ابن طاهر حين أخرجه ابن عمار عن بلنسية . المراكشي : المعجب ، ص ١١٠ .

(4) جيان Jaen مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة إلبيرة مائلة إلى ناحية الجوف شرقي قرطبة بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً وهي كورة تجمع قرى كثيرة وبلدان . يافوت الحموي : معجم البلدان ١٨٥/٣

(5) وأدي آشي بالأندلس من كورة إلبيرة بينها وبين غرناطة أربعون فرسخاً وهي الآن مدينة صغيرة في ولاية غرناطة . محمد بن جابر الوادي آشى : برنامج الوادي آشي ، ص ٥ .

(6) محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر الذي أخرج ابن هود وضم مملكة غرناطة إليه سنة ٦٤٣هـ مقابـل تسليم جيان ، وأعترف به ملكاً على غرناطة من قبل الأسبان . الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٦٠ .

(7) قشتالة Castila: أقليم عظيم بالأندلس قصبتة اليوم طليطلة وكان بيد الأفرنج ، يافوت الحموي ، معجم البلدان جـ٧ .

(8) أرجونة Aragan بلد من ناحية جبان بالأندلس .يافوت الحموي : المصدر السابق ، جـ١ / ١٨١ .

قرطبة حيث يوجد ابن هود وحاصرها حتى سقطت في يده بعد أن أذاق المسلمين صنوف العذاب .

كما تقدم ملك أرجونة خايم الأول قاصداً بلنسية سنة ٦٣٦هـ وحاصرها ستة شهور فلما اشتد الحصار على أهلها أرسل أميرها ابن مردنيش وفداً إلى الأمير الحفصي أبي زكرياء يطلب منه المساعدة وكان الوفد المرسل من قبل ابن مردنيش برئاسة ابن الأبار(١) الذي قدم بين يدي الأمير أبي زكريا فأنشدة قصيدته السينية والتي تمثل أوضاع المسلمين وما يواجهونه من مصاعب ومما جاء في هذه القصيدة قوله :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاش مما تعانية حشاشتها فطالما ذاقت البلوى صباح مسأ

يا للجزيرة أضحي أهلها جزراً للحادثات ، وأمسى جدها تعساً

وأجاب أبو زكريا داعيهم ، وبعث بأسطول مكون من ثمانية عشرة سفينة محملة بالسلاح والعتاد والمؤن مع ابن عمة أبي يحيي ابن الشهيد ، وقدرت قيمة ما أرسلة بمائة ألف دينار .

وقد حاول الأسطول الحفصي إيصال المدد إلى المحاصرين في بلنسية ، ولكنه فشل لشدة الحصار المفروض على المدينة ، مما أضطر إلى إنزاله في مرسى دانية ، وأشتد الحصار على أهل بلنسية حتى سقطت سنة ٦٣٦هـ (٢) .

---

(1) ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي الأندلسي الشهير بابن الأبار ولد سنة ٥٩٥ هـ وتوفي سنة ٦٥٨هـ .

(2) أنظر ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٨٨ ، الشماع : الأدلة البينة ، ص ٦١ ، وابن القنفذ الفارسية ، ص ١١٠ .

ولعل الأسباب التي منعت أبو زكريا من إرسال إمدادات عسكرية متوالية ، تتمثل في أن الدولة الحفصية كانت في بداية ظهورها . وكان بها الكثير من الفتن والثورات ، إضافة إلى أنه لم يكن لدى أبي زكريا الجيش الكافي الذي يستطيع من خلاله مواجهة ملوك أسبانيا وكان ابن مردنيش قد بعث ببيعته إلى الأمير الحفصي أبي زكرياء في بلنسية ، وعندما خرج منها إلى مشقر ودانية ومرسية بعث بمبايعته للأمير الحفصي أبي زكريا ، وبقي يحكم في هذه المناطق حتى سنة ٦٣٨هـ حيث تغلب عليه ابن هود ، وأخرجه منها ، فرحل إلى تونس .

أما بالنسبة لبقية مدن الأندلس مثل إشبيلية [1] التي اقتدت بمن سبقها حيث بعثوا وفداً سنة ٦٤١هـ طالبين من الأمير أبي زكريا أن يولي عليهم بعض قرابته ، فأرسل لهم ابافارس بن عمه يونس ابن الشيخ أبي حفص ، فقدم إليها وأصلح أحوالها ، ولكن ملك قشتاله فرديناندو والثالث وحليفه ابن الأحمر حاصروا إشبيلية حتى سقطت في أيديهم سنة ٦٤٦هـ .

وقد أرسل أبو زكريا الحفصي أسطولاً لنجدتها إلا أنه فشل في إيصال الإمدادات المطلوبة إلى أهل إشبيلية . وفي سنة ٦٤٠هـ كما بعث أهل المرية [2] ببيعتهم إلى أبي زكريا الحفصي ، كما أرسل ابن الأحمر صاحب غرناطة [3] بيعته بعد أن رأي امتداد

---

(1) اشبيلية Hispalis: مدينة عظيمة بالأندلس أعظم مدنها تسمى حمص أيضاً ، بها قاعدة ملك الأندلس وبها كان بنو عباد وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخاً ، وهي قريبة من البحر يطل عليها جبل الشرق وهو جبل كثير الشجر والزيتون ، على شاطئ نهر عظيم قريب في العظم من دجلة أو النيل تسير فيه المراكب المثقلة ويقال له الوادي الكبير وفي كورها مدن وأقاليم . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ١ / ٢٥٤ .

(2) المرية : مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس منها يركب التجار وفيها تحل مراكب التجار وفيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب يعمل به الوشي والديباج . ياقوت الحموي : معجم البلدان ٥ / ١١٩ .

(3) غرناطة Gwanada معنى غرناطة رمانة بلسان عجم الأندلس ، أقدم مدن كور البيرة من أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها ، يشقها نهر قلزم بينها وبين البيرة أربع فراسخ وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخاً . ياقوت الحموي : معجم البلدان ١٩٥/٤ .

نفوذ أبي زكريا ، والذي كان يسعى ليكون وارث للدولة الموحدية [١] ، ولكن شغل بالعديد من الفتن الداخلية والتي كان منها ثورة قبيلة هوارة سنة ٦٣٦هـ ، والتي امتنعت عن دفع الجباية وأضرت بالأمن ، وقد أظهر أبو زكريا بأنه متوجه إلى أهل أوراس ، وطلب من هوارة مساندته ، وأنطلت الحيلة عليهم ، فأستجابوا لدعوته ، ففتك بهم وأخمد فتنتهم .

وأيضاً انشغل أبو زكريا بثورة يعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي الذي ولاه أبي زكريا على طرابلس ، فاستبد بالأمر وجمع ثروة عظيمة ، وحاول الانتقاض على أبي زكريا ، ولكن ثورة الأهالي ضده ، وخوفهم من اتصاله بالأعراب جعلهم يدبرون له مكيدة انتهت بقتله وقتل أنصاره ، وشغل أبي زكريا بثورة رجل يدعى محمد بن محمد الجوهري اندلسي وافد على تونس وتقرب من أبي زكريا حتى جعله صاحب منصب " الأشغال " وقد استطاع أن يكون لنفسه أموالاً [٢] عظيمة ، كما كون قوة عسكرية خاصة به ، وقد كشف أبو زكريا أمره بعد أن عين عبد الحق بن ياسين (صاحب أشغال) على بجاية بعث إليه محمد الجوهري يقول له : أنه هو الذي سعى في تسميته (صاحب أشغال) بجايه وعهد إليه بالوقوف عند أمره والعمل بما يأمره . فبعث عبد الحق إلى أبي زكريا يخبره بما كان من أمر الجوهري ، فغضب لذلك أبو زكريا ، فأراد أن يتحقق بنفسه من موقف الجوهري ، فأستشار أبو زكريا الجوهري في قمع بعض الثورات فقال له الجوهري : عندي ببابي ألفاً من الجنود أرم بها من تشاء من أمثالهم ، فرأي أبو زكريا أن يحد من نفوذه قبل استفحال أمره فقبض عليه وأودعه السجن في موضع بالقصبة [٣] ثم قتل وجرت جثته خارج العاصمة ليتفرج الناس عليه [٤] .

---

(1) ابن خلدون ، العبره ، جـ ٦ ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(2) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨٣ .

(3) القصبة : مدينة قديمة بناها الرومان وسط سهل فسيح يمتد شرقاً مسافة أثنى عشر ميلاً حول المدينة وتبعد عن تونس بنحو أربعة وثلاثين ميلاً ، وهي أرض خصبة ليون الإفريقي وصف إفريقيا ، جـ ٢ ، ص٦٧ .

(4) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

وقد اتبع أبو زكريا سياسة الموحدين الدينية ، فالدولة الحفصية ظلت محافظة على دعوة الموحدين ومتمسكة بتعاليم المهدي ، ولم ينفر السكان من تلك التعاليم ، لأ ا لا تتنافي مع المذهب المالكي الذي يعتنقونه ، لذلك استطاع الأمراء الحفصيون أن يقروا هذا المذهب إقراراً ائياً في البلاد . وهذا يعود إلى نجاح سياسة أبي زكريا التي دف إلى غرس المبادئ الدينية في نفوس الناس ، لذا عمل على إنشاء المساجد الكبيرة ومنها جامع القصبة وصومعته التي نقش عليها اسمه وكان بناءه سنة ٦٣٣هـ ، كما بـنى جامعاً بوار كلا .

كما اهتم رحمه الله بحاجة الناس إلى التعليم فبنى المدرسة الشماعية ، وجدد رسوم القصبة ، وبنى سوق العطارين ، وتوفي رحمه الله في بونة [(١)] ليلـة الجمعـة التاسـع والعشرين من جماد الأخرة سنة ٦٤٧هـ وعمره ٤٩ سنة ، وكانت دولته أحد عشر عاماً واحد عشر شهراً واحد عشر يوماً ، وترك من الأبناء أربعة ، وقد عمـل قبـل وفـاته على أخذ ولاية العهد لابنه يحي ، وهذا يعني أن الدولة قامت علـى أسـاس وراثي ، وقد أوصى أبو زكريا إلى أبنه أبي يحيي بوصية تدل على حكمتـه وفـضله ونجاح سياسته ، وقد جاء فيها :

" أعلم – سددك الله وأرشدك ، وهداك إلى ما يرضيه وأسعدك ، وجعلك محمود السيرة مأمون السريرة ، أن أول مـا يجب على من استرعاه الله في خلقه ، وجعلـه مسؤولاً عن رعيته في جل أمرهم ودقة أن يقدم رضى الله عز وجل في كل أمر يحاوله وأن بكل أمره وحوله وقوته لله ، ويكون عمله وسعيه وذبة عن المسلمين ، وحربـه جهادة للمؤمنين ، بعد التوكل عليه والبراءة من الحول والقوة إليه [(٢)] .

(1) بونة : وهي عنابة الآن ، مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط وتسمى قديما أوربونة ، وهي مشهور باسم بلاد العناب لكثرته فيها ، ليون الأفريقي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٦١ .

(2) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٩٨ .

ومتى فاجأك أمر مغلق ، أو وردك عليك نبأ مرهق ، فريض لبك وسكن جأشك ، وارع عواقب أمر تأتيه ، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشية ، ولا تقدم إقدام الجاهل ، ولا تحجم إحجام الأخرق المتكاسل .

وأعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله ، وقصر عن مقاومته رجاله ، فمفتاحه الصبر والحزم ، والأخذ مع عقلاء الجيش وذوي التجارب من نبهائهم ، ثم الأقدام عليه ، والتوكل على الله فيما لديه ، والإحسان لكبير جيشك وصغيره ، الكبير على قدره والصغير على قدره ، ولا تلحق الحقير بالكبير ، فتجرئ الحقير على نفسك ، وتغلطه في نفسه ، وتفسد نية الكبير وتؤثره عليك فيكون إحسانك إليه مفسدة في كلا الوجهين ، ويضيع إحسانك وتتشتت نفوس من معك . واتخذ كبيرهم أبا ، وصغيرهم أبناً ، واخفض لهم جناح الذل من الرحمة ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين .

واتخذ نفسك صغيرة ، وذاتك حقّيرة ، وحقر أمورك ، ولا تستمع أقوال الغالطين المغلطين بأنك أعظم الناس قدراً ، وأكثرهم بذلاً ، وأحسنهم سيرة ، وأجملهم صبراً ، فذلك غرور و بتان وزور ، وأعلم أن من تواضع لله رفعه الله .

وعليك بتفقد أحوال رعيتك ، والبحث عن عمالهم ، والسؤال عن سيرة قضاتهم فيهم ، ولا تنم عن مصالحهم ولا تسامح أحداً فيهم .

ومهما وقعت ملمة فاكشفها عنهم ، ولا تراع فيهم كبيراً ولا صغير إذا عدل عن الحق ، ولا تراع في فاجراً ولا منصرفاً إلا ولا ذمة ، ولا تقتصر على شخص واحد في مسائل الرعية والمتظلمين ، ولا تقف عند مراده في أحوالهم . وأتخذ لنفسك ثقاة صادقين مصدقين ، لهم في جناب الله أوفر نصيب ، وفي رفع مسائل خلقه إليك أسرع مجيب[1] . وليكن سؤالك لهم أفذاذ ، فأنك متى اقتصرت على شخص واحد

(1) ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

في نقله ونصحه ، حمله الهوى على الميل ، ودعته الحمية إلى تجنب الحق ، وترك قـول الصدق .

وإذا رفع إليك أحد مظلمة وأنت على طريق ، فادعه إليك ، وسله حتى يوضح قصته لك وجاوبه جواب مشفق مصغ إلى قوله مصيخ إلى نازلته ونقله ففي إصاختك له وحنّوك عليه أكبر تأنيس ، وللسياسة والرئاسة في نفوس الخاصة والعامة والجمهور أعظم تأسيس .

وأعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن بالله واليوم الآخـر ، إلا بحق أو جبة الكتاب والسنة ، وعضدته أقاويل الشرعية والحجة ، أو في مفسد عاثت في طرقات المسلمين وأموالهم ، جار على غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم ، فليس إلا السيف ، فإن أثره عفاء ، ووقعه لداء الأدمغة الفاسدة دواء .

ولا تقـل عثرة حسود على النعم عاجز عن السعي ، فإن إقالته تحملـه علـى القول ، والقول يحمله على الفعل ووبال عمله عائد عليـك ، فاحـسم داءه قبـل انتشاره ، وتدارك أمره قبل إظهاره .

واجعل الموت نصب عينيك ، ولا تغتر بالدنيا وإن كانت في يدك ، فلا تنقلـب إلى ربك إلا بما قدمته من عمل صالح ومتجر في مرضاته رابح .

وأعلم أن الإيثار أربح المكاسب وأنجح المطالب ، والقناعة مال لا ينفد . وقـد قال بعض المفسرين في قوله عز من قائل : { وتركنا عليه في الآخرين } إنـه النبأ الحسن في الدنيا على ما خلد فيها من الأعمال المشكورة ، والفعلات الـصالحة المذكورة ، فليكفك من دنياك ثوب تلبسه ، وفرس تذب به عن عباده .

وأرجو منك متى جعلت وصيتي هذه نصب عينيك لم تعدم من ربك فتحا بيسره على يديك وتأييداً ملازماً لا يبرح عنك إلا إليك بمن الله وحوله وطوله .

والله يجعلك ممن سـمع فـوعى ، ولبى داعي الرشد إذا دعا ، إنه على ذلـك قدير ، وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعـم الوكيل [١] .

وهكذا تبدو الوصية إقرار لولي عهده تقر مبدأ الوراثة ولا تقـيم وزنـاً لمبـدأ الإختيار الشوري .

---

(1) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٤٠٠ .

المبحث الثالث : أمير المؤمنين محمد المستنصر بالله وبداية عهد الاستقرار :

وبعد وفاة أبي زكريا تولى ابنه المستنصر الذي بويع في التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧هـ وكان عمره ثماني عشرة سنة ، وكان والده قد ولاه العهد من بعده وذلك بعد وفاة أخيه أبي يحي وعقد له البيعة عمه أبو عبد الله محمد اللحياني ، ثم جددت له البيعة في الثالث من رجب من نفس السنة المذكورة ، واختار علامته (الحمد لله والشكر لله) (1) .

ولم يكن الأمر ممهداً للمستنصر ، عندما استلم زمام الحكم فقد واجهته عدة ثورات وكانت ثورة عمة اللحياني أولاها والتي كان سببها الوزير محمد بن أبي مهدي الهنتاتي الذي طمع في السيطرة على السلطان والحد من نفوذ الأندلسيين الذين احتلوا المناصب الهامة في الدولة ، واصبحوا منافسين للموحدين ، ولكن ابن أبي المهدي وبعد أن فشل في السيطرة على المستنصر ، لجأ إلى أعمامه إبراهيم أبي إسحاق ، وأبي عبد الله محمد اللحياني ولكنه فشل أيضاً في استمالتهم له ، فتوجه إلى أحد أبناء محمد اللحياني فاستجاب له ، وبايعه سراً ، فلما علم الوزير أبو زيد بن جامع جاء ناصحاً لهم ، فقبض عليه ابن أبي مهدي ، وأعلن بيعة ابن اللحياني ، ولما علم المستنصر بالأمر ، عقد لقائدة ظافر على محاربتهم ، فاستطاع إجلاءهم وقتل ابن أبي مهدي ، وعم السلطان اللحياني وابنه وأخو السلطان إبراهيم ، فهدأت الثورة ، إلا أن المستنصر غضب من قائده (2) ظافر لما فعله من قتل أخويه ، فخرج ظافر طريداً ولحق بالذوادة في جنوب المغرب الأوسط ، حيث انضم إلى أبي إسحاق الذي استطاع الفرار من الرقابة التي فرضها عليه المستنصر وعلى تصرفاته وحركاته (3) ، والتي ضاق بها ذرعاً ، فاستطاع الفرار من قبضة السلطان المستنصر سنة ٦٥١هـ بعد سنتين من المضايقة عليه .

---

(1) المصدر السابق نفسه .

(2) الشماع : الأدلة البينة النورانية ، ص ٩٢ .

(3) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ١١٨ .

وقد لحق أبو إسحـاق بالذوادة والتقي مع القائد ظافر ، وأعلنا الثـورة علـى المستنصر ، واستطاع أبي إسحاق الاستيلاء على الزاب وبسكرة [١] ، وبايعته رياح ، ثم قصد قابس حيث اجتمعت عليه الأعراب ، فلما علم السلطان المستنصر بـأمر أبي إسحاق ، سجن أبناءه بالقصبة وعمد إلى إفساد ما بين ظافر وأبي إسحاق من وفـاق عن طريق ابن أبي الحسين والذي نجح في إيقاع الفرقة بينهما [٢] ، فرحل أبو إسحاق إلى المغرب ومنها إلى الأندلس حيث نزل على ابن الأحمر صاحب غرناطة ، فأكرمـه وأحسن إليه وكان المستنصر يرسل الإرسال في كبار الموحـدين ليـسمك عنـه أبي إسحاق [٣] .

وقامت فتنة أخرى في الزاب تزعمها رجل يلقب بـأبي حمـارة ، خـرج إليـه المستنصر فقبض عليه وقتله ، وبعث برأسه إلى تونس حيث نصبت ا ، ثم قام بحملة تأديبية ضد بني مرداس [٤] وبني دباب [٥] ، حيث قبض على إعداداً منهم وبعث م إلى سجن المطبق بالمهدية [٦] .

---

(1) بسكرة بلدة بالمغرب من نواحي الزاب ، فيها نخل وشجر ، مسورة وأهلها علماء مالكية ، ا جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل ، وتعرف ببسكرة النخيل ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٢ / ١٨٢ .

(2) الشماع : الأدلة البينة ، ص ٦٤ .

(3) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١١٨ .

(4) فرع من قبيلة رياح الهلالية وأشهر بطو م الذواودة أولاد داود بن مراداس وأولاد ضبر بن عقيل بن مرداسي وأولاد مسلم بن عقيل وأولاد عامر بن يزيد بن مرداس ، ومنهم بنو موسى وجابر ، ومحمد ومشهور بن محمد وريائسة رياح لمرداس طوال عهدهم في إفريقية ، ثم انتقلت في عصر الموحدين لقبيلة الذواودة . ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ٣٢ ، ٣٧ .

(5) بنود دباب : يتفق القلقشندي والمقريزي على أن بني دباب بن مالك بن ثة بن سليم بينهما يتفق ابن خـلدون والتجاني على أن دباب من ربيعة بن زغب الأكبر ، ولهم بطون عدة الجواري ، المحاميد ، الصهيب ، وبنو سليمان ، التجاني: الرحلة ، ص ٨٦/٨٥ . ابن خلدون – العبر ، جـ٦ ، ص ٨٥ . القلقشندي اية الأرب ، ص ١٥٨ . المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي ، البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، ص ٦٨ .

(6) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١١٩ .

أما بنو مرين فإنهم استمروا في طاعة الحفصيين حيث أرسل أميرهم أبو يحيي بن عبد الحق بيعة أهل فاس [١] مع مشيخة بن مرين سنة ٦٥٢هـ ولما هلك أبو يحيي خلفه أخوه يعقوب فجدد للمستنصر البيعة ، وأرسل ملك السودان هدية للسلطان الحفصي سنة ٦٥١هـ وفي نفس السنة هاجم المستنصر بني النعمان [٢] في ولاية قسنطينه ، وقد كان لكبيرهم أو علي وتلوه ميمون وعبد الواحد دور كبير في مساعدة اللحياني ضد المستنصر ، فأرسل المستنصر علي إلى الإسكندرية وقتل ميمون [٣] .

أما مليانة فإن الأمر يختلف فيها ، فبعد أن تقلص نفوذ الدولة الحفصية عنها ، أعلن أحد أبنائها ويدعى أبو علي الملياني [٤] خلع طاعة الحفصيين واستبد بالأمر .

فلما بلغ المستنصر أمره ، بعث المستنصر أخاه أبا حفص في جموع من الجند فحاصروا مليانة حتى استسلمت وعقد لأبن منديل عليها مقيماً لدعوة الحفصين .

وقامت فتنة أخرى كان سببها استحداث السلطان المستنصر سكة تسمى الحندوس [٥] ، وقد أثار ذلك غضب القبائل في المغرب ، وأعلنوا تمردهم بسبب ما

---

(1) فاس : مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر ، وهي حاضرة البحر وآجل ، مدنه قبل أن تختط مراكش ، وفاس تقع بين ثنيتين عظيمتين ، وقد تصاعدت العمارة في جنبيها على الجبل حتى بلغت مستواها من رأسه . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٢٣٠/٤ .

(2) بنو النعمان : من مشيخة هنتاتة البربرية ورؤسائهم ، لهم دور في عهد الأمير أبي زكريا ، وخلصت لهم ولاية قسنطينة يستعملون عليها من يشاءون من قرابتهم . ابن القنفد ، الفارسية ، ص ١٨١ .

(3) ابن القنفذ : المرجع السابق ، ص ١٨١ .

(4) أبو العباس المللياني من مشيخة مليانة ، صاحب علم وفقة ورواية ، كان العلماء يرحلون إليه للأخذ منه ، تولى رئاسة الشورى ببلدة مليانة . ابن خلدون :العبر ، جـ٦ ، ص ٤٢٢ .

(5) الحندوس : سكة نقدية من النحاس حاكها المستنصر الحفصي تقليداً لفلوس المشرق ، وسميت الحندوس أي السوداء ، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونيسية ، جـ١ ، ص ٤٥٨ .

لحقها من غش من قبل اليهود ، فأعلن السلطان المستنصر إلغائها ، وأشيع أن الـذي تولى كبر هذه الفتنة هو أبو القاسم بن زيد ابن عم المستنصر ، فخشي أبو القاسم من غضب المستنصر عليه فرحل إلى رياح سنة ٦٦١هـ ونزل على أميرهم شـبل بـن موسى رئيس الذوادة وبايع له ، وبلغ أبو القاسم عزم السلطان على قتله وخشي من الذوادة أن يسلموه ، فرحل إلى الأندلس ملتحقاً بأبي إسحاق ، إلا أنه وبسبب سوء أفعاله في الأندلس طـرد منها إلى المغـرب حيث مـات في تلمسان بعـد زمـن . ولكـن الذواودة بقيادة رئيسهم شبل بن موسى لم يتخلوا عن مناهضة المستنـصر ، الذي أشرف بنفسه على حملتين ضدهم ، ففي سنة ٦٦٤هـ صدهم جنوبـاً حـتى وصل إلى المسيلة [١] . وبعد ذلك بسنتين زحـف بمساعدة الأعراب الكعوب ودباب وقبيلة سدو يكش [٢] البربرية ، فأستسلم فرع من قبيلة الذوادة وبقي فرع أخـو في جنوب بسكرة ، وتظاهر المستنصر أنه يريد التفاهم مع رؤساء هذه القبيلة فقدموا إليه بقيادة رئيسهم شبل بن موسى فقتلهم المستنصر جميعاً ثم واصل جهوده على معظـم القبائل المتمردة فشتت شملهم وعاد إلى تونس . وفي سنة ٦٦٩هـ أعلنت الجزائـر خلع طاعة الحفصين ، فبعث المستنصر [٣] جيشاً بقيادة أبي هلال الهنتاتي ، فحاصـرها زمناً ، فامتنعت عليه فرجع إلى بجاية ومات ا سنة ٦٧٣هـ وفي سـنة ٦٧٤هـ ـ أرسل المستنصر جيشاً أخر وعقد لأبي الحسين بن ياسين عليه ، كما أمر صاحب بجاية بإنفاذ جيش أخر ، وحاصرت هذه الجيوش الجزائر ، وفتحتها عنوة ودانت لطاعـة الحفصيين [4] .

---

(1) المسيلة : مدينة بالمغرب تسمى المحمدية أختطها أبو القاسم محمد بن المهدي سنة ٣١٥هـ . ياقوت الحموي المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٥٨ .

(2) سدويكش : بطن من بطون كتامة البربرية ويسكنون ما بين قسنطينة وبجاية في البسائط ، ولهم بطون عديدة يسكنون الخيام ، كانت رئاسة القبيلة في أولاد سواق ، وهم بطنان أولاد علاوة ابن سواق وأولاد يوسف بن حمد بن سواق . ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤.

(3) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٤٢٤ ، وابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٨٢ .

(4) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٤١ .

ولقد ذاع صيت المستنصر الحفصي في العالم الإسلامي حتى وصلته بيعة من مكة ولا يخفى أثرها على مركز الحفصيين .

ولقد وصلت بيعة مكة إلى المستنصر الحفصي في تونس سنة ٦٥٧هـ وكان حامل الرسالة من مكة إلى تونس أبا محمد بن برطلة الأشبيلي [1] ، وكان لهذه البيعة فرحة غامرة عمت أرجاء تونس الحفصية وأحضر لها المستنصر كافة الناس وقرئت على الملأ في جامع الزيتونة وقرأها قاضي الجامعة أبو القاسم محمد بن براء وقام خطيباً ، وأبتهل الناس بهذه البيعة وكان مشهداً عظيم في ذلك اليوم . وقد قام ابن الأبار يشيد بهذا اليوم في قصيدة له ومنها :

أن البشائر كلها جمعت ... للدين والدنيا وللإمام
نعمتين جسيمتين هما ... برء الإمام وبيعة الحرم[2]

وأنشد أحد الشعراء معقباً له :

إهنأ أمير المؤمنين ببيعة ... جاءتك بالإقبال والإسعاد
فلقد حباك بمكة رب الورى ... فأتى بشير بافتتاح بلاد
وإذا أتت أم القرى منقادة ... فمن المبرة طاعة الأولاد[3]

ولم تأتي هذه الخطوة جزافاً من شريف مكة أبي نمي بن قتادة ، وإنما كانت هناك دوافع وأسباب من أبرزها سقوط الخلافة العباسية على يده هولاكو سنة ٦٥٦هـ ، فأصبح العالم الإسلامي يفتقد إلى خلافة إسلامية تجمع المسلمين حولها .

---

(1) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٢٠ .

(2) النيفر محمد : عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب ، جـ١ ، ص ٢٤٨ .

(3) أحمد بن الحاج الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، جـ١ ، ص٢٠٤ .

فعندما تطلع شريف مكة إلى العالم الإسلامي باحثاً عمن يمكن أن يحمل لقب " الخلافة " ليسد الفراغ الذي حصل بعد سقوط الخلافة العباسية ، فلم يجد من هو أجدر من الأمير الحفصي المستنصر ، وعلى الرغم من قوة المماليك وقربهم من مكة ، إلا أن شريف مكة كان منزعجاً من تدخلات المماليك في شؤون الحرمين ، ولأنه يرى أن من شروط الخلافة أن تكون في قريش والمستنصر يتوفر فيه هذا الشرط ، ناهيك عن قوته في ذلك الوقت ، أما المماليك فإنهم خليط من رقيق جلبوا من بلاد أعجمية واستبدوا بالسلطة بعد سقوط الأيوبين سنة ٦٤٨هـ [١]. كما كان هناك سبب أخر وهو وجود أبي محمد بن سبعين [٢] في مكة وتعرفه بشريف مكة وإظهار مزايا الأمير الحفصي وأنه أحق بالخلافة من أي أمير اخر لتوفر جميع الشروط فيه ، ولعل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الشريف يبعث بالبيعة إلى تونس معلناً ظهور خلافة جديدة وبالرغم من أن هذه الخلافة لم تكن لها ميزة سوى أنها لقب تشريفي للأمير الحفصي ، فقد حاول المماليك بقيادة الظاهر بيبرس [٣] إحياء الخلافة العباسية من جديد على يد أحد العباسين الناجين من الغزو المغولي وهو أحمد بن الخليفة الظاهر لدين الله العباسي ولقب بالمستنصر محاولة من الظاهر بيبرس لإكساب حكمة الشرعية

---

(1) جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ .

(2) أبو محمد عبد الحق بن سبعين من بلدة مرسية رحل إلى تونس كان حافظاً للعلوم الشرعية والعقلية وهو متصوف يقول بوحدة الوجود وبالتصرف في الأكوان على الجملة ، رمي بالكفر والمطالبة له من قبل شيخ المتكلمين بأشبيلية ثم بتونس ، أبو بكر بن خليل السكوني ، لحق بمكة وبقي بها إلى أن توفي . ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٤٠٧ .

(3) الظاهر بيبرس : هو ركن الدين أبا الفتح بيبرس البندفداري الصالحي تولى العرش المملوكي بعد قتل قطز من سنة [٦٥٨هـ - ٦٧٦ هـ] . الزركلي (خير الدين) الإعلام ٧٤٨/١ .

وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ [٤] ، وقد بقيت الخلافة العباسية الباهتة حتى سنة ٩٢٣هـ حيث استطاع السلطان العثماني إزالة سلطة المماليك والخلافة العباسية .

وفي عهد الخليفة المستنصر هاجمت فرنسا تونس فيما يعرف بالحملة الصليبية الثامنة ولم تكن هذه الحملة هي الأولى التي يتزعمها لويس التاسع بل أنه سبق وقام بحملة ضد الأيوبيين في مصر واستولى على دمياط ثم اتجه إلى القاهرة ولكنه فشل فشلاً ذريعاً سنة ٦٤٢هـ وأسر وسجن في المنصورة وأفتدى نفسه بغرامة قدرت بأربعمائة ألف دينار ، وتعهد بعدم العودة إلى محاربة المسلمين [١] .

ولكنه خالف العهد وقام في سنة ٦٦٨هـ بالتوجه إلى البلاد الإسلامية وكانت حملته متجهة نحو فلسطين أو مصر ولكنه فجأة تحول إلى تونس فما الأسباب التي جعلته يتجه نحو تونس ؟

١ - قيل أن للتجار الفرنسيين دين عند اللحياني ، الذي أعدمه الخليفة المستنصر يقدر بـ ٣٠٠ دينار فلما أعدم اللحياني ، طالب التجار المستنصر بإرجاع أموالهم من غير أن يستندوا إلى ما يثبت حقهم ، فرفض المستنصر إعطائهم المال ، فاشتكوا إلى لويس التاسع ورغبوه في غزو تونس [٢] .

٢ - وقال الشماع في سبب غزو تونس " أن الفرنسيس ذكر عند المستنصر فقال : هو الذي أسره هؤلاء فأطلقوه ، يشير إلى الأتراك الذين كانوا بين يديه ، وكان اجتمع له منهم جماعة وافرة احتقاراً لأمره ، فبلغ الفرنسيس مقالته ، فحقد على

(4) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ .

(1) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، ص ٣٦٥ .

(2) الشماع : الأدلة البينة ، ص ٧٠ .

السلطان فطلب منه السلطان المهادنة فامتنع واغلظ للرسول وعرفة أنه متوجه إليه " [٣] .

٣- أنـه لما تولى شارل دانجو حكم صقلية وأمعن في محاربة المسلمين وإجلائهـم إلى إفريقية ، وكان أمراء إفريقية يؤدون مالاً سنوياً لملك قبرص حتى يتقـوا شـر قراصنة صقلية الذين يقطعون البحر على سفن المسلمين ، فلما تولى أمر إفريقية المستنصر وذاع صيته كبر عليه أن يعطي لشارل دانجو الأمـوال ولم يعتـرف بشارل دانجو كملك على صقلية ، فغضب شـارل واتـجه إلى أخيه لـويس التاسع محرضاً إياه على غزو تونس [١] .

٤ – قيل إن ملك فرنسا لويس التاسع وبمساعدة البابا ، أرادا تنصير المستنـصر ، ولعل اختيار المستنصر يـرجع إلى أن أمة كانت نصرانية الأصل ، وإلى وجود علاقات ودية بين ملك فـرنسا والمستنصر حيث بعث المستنصر وفداً لحضور تعميد أحـد اليهود بسان دوي[٢] وقيل أيضاً أن هناك راهب قطلوني يـدعي رايموندو مارتين ، كان مبشراً في إفريقية وأقام زمناً في دير من أديـرة اليهـود بتونس ، وكانت له معرفة بالمستنصر الذي كان يستدعيه ليستفسر عن أشياء في النصرانية فظن الراهب أن المستنصر يميل إلى النصرانية وكتب إلى لويس يبشره باعتناق المستنصر للنصرانية ، ففرح لويس التاسع وظن أن ذلك سوف يسهل

---

(3) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(1) حسين مـؤنس : تـاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسـلامي إلى الغـزو الفرنسي ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠

(2) برنشفيك : تاريخ إفريقية في عهد الحفصين ، جـ ١ ، ص ٨٨ .

عليه مهاجمة مصر من جديد والانتصار على السلطان بيبرس الذي كان يرسل حملاته على بقايا الصليبيين في الشام .

ولكنه عندما وصل تونس وجد أن الأمر على خلاف ما قاله الراهب وظن أن ملك تونس نافق وانقلب وغير رأيه ، فغير لويس التاسع وجهة حملته إلى تونس دون تردد وأمر أخيه شارل دانجو بالإبحار إلى تونس [٣] .

ونزل الإفرنج بساحل قرطاجنة في ستة آلاف فارس وثلاثين إلف راجل وأقام ملك فرنسا هناك ٦ شهور فقاتله المسلمون في منتصف المحرم سنة ٦٦٩هـ قتالاً شديداً وكاد المسلمين أن ينتصروا إلا أنه جرت أمور أدت إلى عقد صلح بينهما وقد سجل الشاعر أحمد الزيات ذكريات تلك الحملة في قصيدة له من أبيا ا يهدد بمصير لويس وجنوده :

يافرنسيس هذه أخت مصر	فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبراً	وطواشيك منكر ونكير [١]

وبسبب انتشار الطاعون مات ملك فرنسا لويس التاسع فرأي شارل دانجو مفاوضة المسلمين وأتفق الطرفان على عقد الصلح الذي يقوم على دفع غرامة حربية قدرها مائتان وعشرة الآف وقية ذهباً ، يسددوا نصفها عند عقد الاتفاق والنصف الأخر خلال عامين [٢] ، فرحل الصليبين عن بلاد المسلمين وزال خطرهم .

---

(3) حسين مؤنس : تاريخ المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(1) المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ص ٣٦٥ .

(2) برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ١ ، ص ٩٣ .

وانتهت حياة المستنصر عندما خرج في رحلة صيد وسقط عن فرسه مغشياً عليه وتوفي في ذي الحجة سنة ٦٧٥هـ ، وله من العمر خمسون سنة ، وكانت مدة ولايته ثمان وعشرون سنة [٣] .

(3) الضياف : الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ .

المبحث الرابع : أبو إسحاق إبراهيم بن أبي زكريا وبداية مرحلة الاضمحلال :

بوفاة السلطان المستنصر انتهى العصر الذهبي الأول للدولة الحفصية ، وبدأ عصر الاضطرابات والتفكك في أنحائها ، وكان ذلك بسبب السياسة التي اتبعها أبو زكريا الأول مؤسس الدولة الحفصية ، التي تتمثل في جعل ولاية العهد قاصرة على أبناء السلطان فقط ، وهذا الأمر جعل الصراع يشتد بين أبناء البيت الحفصي ، وقد رأينا كيف غضب أبو إسحاق من أخيه المستنصر ورحل إلى الأندلس ، وبقي هناك ينتظر الفرصة حتى يعود إلى إفريقية ، وكان ذلك بداية الصراع في البيت الحفصي ، فبعد موت المستنصر خلفه ابنه يحي الواثق الذي بويع في الليلة التي مات فيها والده [١] .

ولم يكن الواثق رجل سياسة بالرغم من بعض الأعمال التي قام بها لاستمالة الناس حيث رفع المظالم وأطلق السجناء ، وأصلح المساجد ، إلا أنه كان ضعيف الشخصية وألعوبة في يد الأندلسيين ، الذين عظم شأنهم في عهده ، وقد حاول وزيره سعيد بن أبي الحسين السيطرة على الواثق إلا أن منافسه يحيى بن عبد الملك الغافقي المشهور بابن الحبير استطاع أن يوغر صدر الواثق ضد ابن أبي الحسين فما كان من الواثق إلا أن قبض على سعيد واستصفى أمواله التي بلغت ستمائة ألف دينار ، ثم قتله بعد التعذيب الشديد ، وهكذا أصبح ابن الحبير هو المسيطر على شؤون الحكم ، وقد بلغ من تحكمه ما لم يبلغه أحد ، حيث عمل على إذلال الموحدين ، فقد جعل على أشغال بجاية علج يدعى أبا علي وقد أساء السيرة في الناس ونهب الأموال ، فحدث

---

(1) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٤٠ .

خلاف بينه وبين والي الجباية محمد بن أبي هلال الهنتاتي ، الذي دبر مؤامرة [٢] قتل فيها هذا العلج ، فخشي من غضب ابن الحبير وانتقامه [1] ، فأرسل إلى أبي إسحاق يستنجد به وبايعه ، وكان أبو إسحاق قد انتهز فرصة اضطراب الحالة السياسية في إفريقية وقدم إلى تلمسان ، وعندما جاءته بيعة والي بجاية جهز جيشاً وسار به إلى المدينة ودخلها سنة ٦٧٧هـ فبايعة واليها والموحدون ثم أتجه إلى قسنطينة إلا أنها امتنعت عليه ، وقد علم الواثق ووزيره ابن الحبير بأمر أبي إسحاق وقدومه إلى بجاية ، فجهز الواثق جيشين الأول بقيادة أبي حفص عمر عم الواثق ، والثاني بقيادة الوزير أبي زيد بن جامع ، ولكنهما لم يستطيعا مقاومة أبي إسحاق فأعلنا انضمامهما إليه ، وأرسلا بذلك إلى الواثق الذي أعلن خلع نفسه سنة ٦٧٨هـ وانتقل إلى دار الأفوري [٢] .

ثم بويع أبي إسحاق سنة ٦٧٨هـ وتلقب بالأمير (المجاهد) [٣] ولم يلقب بلقب (خليفة) واجتمع أمر الناس عليه وبدأ أمره بتقسيم المناصب الهامة في دولته بين الأندلسيين والموحدين فعقد على الحجابة لأبي القاسم بن الشيخ كاتب أبي الحسين ، وعلى الأشغال لأبن أبي بكر بن الحسن بن خلدون ، وعقد للفضل بن علي المزني على الزاب ، ولعبد الواحد المزني على قسيطيلة كما قبض على ابن الحبير وقتله ، وبلغه أن الواثق يحاول القيام بثورة ضده ، فأرسل له من قتله مع أبنائه الثلاثة الفضل ، والطاهر ، والطيب ، وكان ذلك سنة ٦٧٩هـ .

---

(2) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٣٥ .

(1) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٣٥ .

(2) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٤٣٤ .

(3) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٣٩ .

وفي سنة ٦٨٠هـ خرج عليه صاحب قسنطينة أبو بكر بن موسى بن عيسى الملقب بالوزير ، وكان قد كاتب ملك أرجونه يطلب منه المساعدة [٤] ضد أبي إسحاق ، فزحف إليه أبو فارس بن أبي إسحاق من بجاية في عساكره واحتل قسنطينة ووصل أسطول النصاري متأخراً ، فعاد أدراجه وكان فتح قسنطينة سنة ٦٨١هـ .

أما صاحب تلمسان يغمراسن ، فقد بقيت علاقته مع الحفصيين طيبة ، بل أنها وصلت حد المصاهرة حيث تزوج ابن يغمراسن إبراهيم المكني بأبي عامر بأبنة (أبي إسحاق في سنة ٦٨١هـ [١] .

ثم قامت ثورة قضت على ملك أبي إسحاق ، وتولى كبر هذه الثورة رجل يدعى أحمد بن مرزوق المسيلي ، وقد نشأ ببجاية وكان يعمل خياطاً ، ولحق بصحراء سجلماسة واختلط مع العرب وأدعى أنه من آل البيت ، فلما فُضح أمره خرج إلى طرابلس ، ونزل على دباب وصحب فتى يدعى نصير مولى الواثق بن المستنصر ، وكان يلقب (بري) [٢] وقيل (نوبي) [٣] " ولما رآه شبيهاً بالفضل ابن مولاه ، أخذ يبكي ويقبل قدميه ، فقال له : ابن عمارة ما شأنك ، فقص عليه الخبر ، فقال له : صدقني في هذه الدعوة ، وأنا اشرد من قاتلهم " [٤] ، فخرج نصير منادياً على أمراء العرب بالسرور بابن مولاة الواثق ، فانضم إليه شيخ بني دباب مرغم بن صابر فقوى جانب هذا الدعى ، وأعلن الثورة وزحف إلى طرابلس ولكنه لم ينجح في

---

(4) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٣٤ .

(1) ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٤٣٥ .

(2) ابن خلدون : المصدر السابق نفسه .

(3) الشماع : الأدلة ، ص ٨٠ .

(4) محمود مقديش : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، جـ ١ ، ص 555 .

احتلالها ، فواصل زحفه إلى قابس ، ففتح له عبد الملك بن مكي أبوا ا وكان ذلك في سنة ٦٨١هـ حيث انضـم إليه الأعراب من بين كعـوب ، وبـايعه الجنـوب التونسي ، ثم احتل قفصة (١) ، وكان أبو إسحاق قد جهز جيشاً وجعل عليه أبنه أبي زكريا الذي نزل القيروان (٢) ومنها إلى ودة (٣) ، فلما بلغه استيلاء الـدعي علـى قفصة ، أنفض عساكره من حوله ، فرجع إلى تونس ، واستولى ابـن عمـارة علـى القيروان والمهدية وصفاقس وسوسة ، وقد أخاف الناس بأفعاله ، فجمـع لـه أبـو إسحاق جيشاً وخرج إلى المهدية لمقاتلة هذا الدعى ولكن جيش أبي إسحاق انفض من حولـه وذلك بإيعاز من شيخ الموحدين موسى بن ياسين ، فاضطر أبي إسـحاق إلى الفرار إلى بجاية ، فأجبرة أبنه أبـو فارس صاحب بجاية على التنـازل عـن العـرش ومبايعته ، في هـذا الوقت كان الدعى ابن عمارة قد دخل تونس ونودي به ملكـاً عليها ، فجهز أبو فارس جيشاً والتقى به مع جيش ابن عمارة في سهل مرمـاجنة وقد هـزم أبو فارس وقتل مع اخوته الثلاثة عبد الواحد وخالد وعمر وابـن أخيـه

---

(1) قفصة : مدينة قديمة بناها الرومان وفتحها عبد الله بن أبي السرح سنة ٢٦هـ ، وهي مدينة من إقليم بلاد الجريد ، خضعت لأمراء المرابطين ، ثم استقل ا بنو الرند بعد سقوط الدولة المرابطية إلى أن فتحها المنصور سنة ٥٨٠هـ . ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ١٤٣ / ١٤٤ .

(2) القيروان : أسسها عقبة بن نافع قائد الجيوش الإسلامية في عهد عثمان بن عفان ، وبناها علي بعد ستة وثلاثين ميلاً من البحر المتوسط . ونحو مائة ميل من تونس . وسورها وحصنها وهي مدينة عظيمة ، ازدهرت فيها العلوم الإسلامية حتى أن معظم فقهاء إفريقيا متخرجين منها ومن جامع الزيتونة تحديداً ، ليون الإفريقي – المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٨٧ / ٩٠ .

(3) ودة : اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف م .يافوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٦٤ .

محمد بن عبد الواحد ولم ينجو إلا أبو حفص بمساعدة بعض أصدقائه [٤] ، أما أبو إسحاق وأبنه أبو زكريا فقد خرجا يريدان تلمسان ، ولكن أبا إسحاق سقط عن فرسه وجرح فلحق به عند بني مرين مبعوثو أحد شيوخ بجاية المنضمين إلى ابن عمارة ، فسجن وأعدم بعد ذلك سنة ٦٨٢هـ .

ثم تولى أبو حفص عمر بن أبي زكريا فبعد أن أحتل ابن عمارة تونس على أنه الفضل ابن الواثق أساء معاملة الناس وسجن من مشايخ بني علاق ثمانين رجلاً ، بل أنه قتل الكثير من الشخصيات البارزة في تونس أمثال موسى بن ياسين الذي سبق وغدر بأبي إسحاق ، وعلي ابن أبي الحسن بن ياسين ، وابن وانودين ، وغيرهم [١].

ولم يكن لهذا الدعى حسنات سوى إسقاط ضريبة النزول ، وبناء جامع الخطبة خارج باب البحر ، وقد ثار الناس عليه بعدما سمعوا بظهور أبي حفص عمر في بادية الأعراب ، والتفوا حوله مبايعين ، فلما علم ابن عمارة هرب إلى دار فران أندلسي يقال له أبو القاسم القرمادي فدلت على مكانة امرأة عجوز بعد أن ظل مختفياً سبعة أيام ، وحمل إلى أبي حفص ، فاعترف باسمه الحقيقي ، وأنه لم يكن سوى دعى يدعى أحمد بن مرزوق المسيلي ، وشهد عليه الشهود وضرب مائة سوط ثم قطعت رأسه [٢] .

وفي عهد أبي حفص انقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين شرقية وغربية وكان ذلك بسبب كثرة الفتن والثورات ، فقد خرج أبو زكريا ابن أبي إسحاق والذي كان

---

(4) مفديش : نزهة الأنظار ، جـ ١ ، ص ٥٥٥ .الضياف :الاتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٠٣.

(1) مفديش : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٥٦ .

(2) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٥٠ .

لاجئا عند بني عبد الواد ، فعاد إلى إفريقية واستولى على بجاية فانفرد بالجزء الشرقي وجعل مركزة قسنطينة ، وقد كان النزاع قائماً بين العم وابن أخيه وقد اضعف هذا الصراع الدولة الحفصية وجعلها عرضة للغزو الصقلبي حيث أغار الصقالبة على جزيرة جربة [(١)] سنة ٦٨٣هـ و نهبوها وفي سنة ٦٨٦هـ نزلوا على الساحل وحاصروا المهدية و نهبوا الكثير من الأموال وانقلبوا عائدين إلى بلادهم [(٢)] . أيضا زادت سلطة الأعراب من بني سليم حيث منحوا إقطاعات واسعة أدى ذلك إلى انحسار ملك الحفصين حيث أنه لم يتعد تونس [(٣)] ، أما الباقي فكان للعرب والنصارى . وهذا يدل على مدى ما وصلت إليه الدولة الحفصية من الاضمحلال .

وفي سنة ٦٩٤هـ توفي أبو حفص صاحب تونس ، بعد أن عهد لأبنه أبي محمد عبد الله بولاية العهد من بعده ، ولكن أهل تونس رفضوا مبايعته لصغر سنة ، فاستشار الشيخ أبي محمد المرجاني [(٤)] فأشار عليه بتوليه ابن الواثق محمد الملقب بأبي عصيدة ، والسبب في تلقينه بهذا اللقب ، أنه لما قتل الواثق وأبنائه ، فرت إحدى جوارية وقد اشتملت على حمل منه إلى رباط الشيخ المرجاني حتى وضعت حملها

(1) جربة : جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر وفيها بساتين كثيرة وأهلها ينقسمون إلى فريقين ، فرقة تعرف بالوهابية ويسكنون الجهة الغربية من الجزيرة ، وفرقة تعرف بالنكارية ويسكنون الجهة الشرقية منها . وكلا الفرقتين خوارج غلاة . وكثيراً ما تتعرض هذه الجزيرة لهجمات النصارى . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٢ / ١١٨ . التجاني ، الرحلة ، ص ١٢٣ .

(2) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(3) العبدري محمد بن محمد : الرحلة المغربية ، ص ٦١.

(4) المرجاني : أبو عبد الله محمد المرجاني صاحب المدرسة المرجانية التي جعلها رباطاً لطلبة العلم ، مؤسس لجامع أبي محمد خارج باب السويقة بتونس وثالث ثلاثة أشتهروا بهذه النسبة ، توفي سنة ٦٩٩هـ . المؤنس ، ابن أبي دينار ، ص ١٤٠ .

فسماه الشيخ المرجاني محمد وعق عليه بعصيدة ، فأطلق عليه لقب أبي عصيدة [٥] من ذلك الحين .

وقد استفتح أمره بقتل ابن السلطان أبو حفص المدعو (عبد الله) لأنـه كـان يخشى منافسته وكان عهد أبي عصيدة عهد أمن وسلام فقد التم شمل الدولة الحفصية فأصبحت دولة واحدة بعد إنقسامها ، فقد عقد صلحاً مع صاحب بجاية أبي البقـاء خـالد والذي خلف والدة أبا زكريا بعد وفاته في نفس السنة التي توفي فيهـا أبـو حفص ، وكانت شروط الصلح تنص على أن من مات منهما أي (أبو البقاء خالـد وأبو عصيدة) قبل الأخر يصير ما بيده لقسيمة الموجود وتجتمع المملكة الحفصية من جديد في سلطة واحدة .

ولكن وحدة الحفصيين لم تستمر طويلاً ، حيث توفي السلطان أبـو عـصيدة ، فخشي أبو البقاء خالد انتقاض أهل تونس لهذا الشرط ، فقدم إلى تونس فوجـد أن أهل تونس قد بايعوا أبا بكر بن يحي بن عبد الرحمن فحدث قتال بينهما هزم فيه جيش أبي بكر وبويع أبو البقاء سلطاناً على الحفصيين ، ولكن ما لبث أن عاد الانقسام من جديد حيث خرج أخو أبو البقاء ويدعى أبو بكر وكان عاملاً بقسنطينة على أخيـه فوجه له أبو البقاء جيشاً عسكر في بجاية ، واتفق ذلك مع وصول أمير حفصي آخـر كان قد ظهر في طرابلس وهو أبا يحي زكريا اللحياني ، ولما علم باضطراب أحـوال إفريقية وانقسامها ، تقدم إلى طرابلس واستولى عليها وألتف الأعراب مـن حولـه وراسلة الثائر أبو بكر من قسنطينة ووعده بالمساعدة ، فوصل تونس سنة ٧١١ هـ وتنازل أبو البقاء خالد عن الخلافة بتشجيع من قاضي الجماعة ابن عبد الرفيع وذلك عندما شجع السلطان [١] أبو البقاء على المواجهة ولكنه اعتذر قائلاً (لا قـدرة لي

---

(5) الشماع : الأدلة ، ص ٨٣ .

(1) ابن أبي الضياف : الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

على المدافعة لكثرة جنود أبي يحيي فهل أنجو إذا انخلعت ؟ فقال له القاضي : ينجيك ذلك) [٢] .

ثم بويع أبو يحيى زكريا اللحياني في سنة ٧١١هـ وكان اللحياني طاعناً في السن ، فحاول مهادنة الأمير أبي بكر الذي استقل بقسنطينة ، ولكن أبا بكر كان أمره قد استفحل حيث انضمت إليه زناتة ، بل أنه في سنة ٧١٦هـ نزل على إفريقية وأخذ الجباية من هوارة وعاد إلى قسنطينة ، ولجأ اللحياني إلى إشراك الأعراب الكعوب [١] في سلطانه حيث أقطعهم إفريقية حتى يكونوا في مواجهة أبي بكر ، ولكن انقلب الوضع ضده ، فزادت سلطة العرب وأصبحت سلطة الحفصين أسميه فقط ، وعندما رأى اضطراب الأمور وعجزه عن المواجهة قرر الفرار ومغادرة البلاد بعد أن جمع الأموال والتحف والذخائر وما كان بالقصور من كتب حيث باعها وجمع عشرين قنطاراً من الذهب هذا غير الفضة والدر والذخائر ، ثم أشاع في الناس أنه يريد القيام بجولة داخل البلاد ، فغادر تونس سنة ٧١٧هـ إلى قابس ومنها إلى طرابلس وقد استخلف على تونس الشيخ أبا الحسن بن واندوين [٢] .

وفي هذه الأثناء قدم أبو بكر إلى تونس ودخلها ، وكان للحياني ابن يدعى محمد أبو ضربة وكان قد سجن بأمر من القاضي أبي إسحاق بن عبد الرفيع في دم عليه ، وكان الأعراب قد أخرجوه وبايعوه عندما سمعوا بقدوم أبي بكر من قسنطينة وعندما سيطر أبو بكر على تونس خرج محمد أبي ضربة متوجهاً إلى القيروان ، والتقي مع زعيم الأعراب الكعوب من بني أبي الليل فسألهم زعيم الأعراب حمزة بن أبي الليل عن

---

(2) الضياف : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٦ .

(1) مصطفي أبو ضيف أحمد : أثر القبائل العربية في الحياة المغربية ، ص ١٢٨ .

(2) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٦٣ .

مقصدهم فأخبروه بأنهم ذاهبون إلى القيروان ، ومن هناك يكاتبون ابن اللحياني بقابس ويعلمونه بأمر أبي بكر الحفصي ، ولكن حمزة بن أبي الليل غير وجهة الجماعة فأعلن مبايعة محمد أبي ضربة سلطاناً على إفريقية فتبعة من كان معه وبايعوا أبا ضربة واجتمعت عليه كلمة الأعراب والموحدين [1] وهكذا عاد الانقسام إلى الدولة الحفصية ولكنه انقسام أكبر من الانقسام الأول حيث أصبح هناك ثلاثة من بني حفص يدعون التسلطن على إفريقية : أبو بكر في تونس ، وابن اللحياني في قابس ، وأبو ضربة في الطريق بين القيروان وتونس .

إلا أن السلطان أبا بكر الحفصي لم يستمر طويلاً في تونس إذا أن حمزة بن أبي الليل حاول إقناع مولاهم بن أبي الليل صاحب أبي بكر ومستقبلة عند قدومه إلى تونس ، حاول إقناعة بالخروج من تونس إلى قسنطينة ، وبالفعل تم للأعراب ما أرادوا ، وخرج أبو بكر من تونس متوجهاً إلى قسنطينة ،وتوجه محمد بن أبي ضربة إلى تونس وبايعه الناس وتلقب بالمستنصر ، وقد حاول أبو بكر الاستيلاء على تونس بعدما عرف بغدر الأعراب له ، فلم يعتمد عليهم في هذه المحاولة بل كان جل اعتماده على قبيلة زناتة وعظمائها ومن بينهم عبد الحق بن عثمان المريني ، إضافة إلى رجال دولته الأفذاذ ، وعند اكتمال جيوشه خرج أبو بكر متوجهاً إلى تونس سنة ٧١٨هـ ، والتقى جيشه مع جيوش أبي ضربة ، وانهزم محمد بن أبي ضربة بعد أن خذله الأعراب كعادتهم في الغدر ، وانضموا إلى أبي بكر وعرفت هذه المعركة بفج الحمام [2] ، واستطاع أبو ضربة الفرار إلى القيروان ومنها إلى المهدية ، وكان والده اللحياني قد

(1) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٦٥ .

(2) نفس المصدر السابق ، ص ٦٥ .

أرسل جيشاً لنجدته ولكنه عندما سمع بهزيمة ابنة توجه إلى الإسكندرية حيث نزل على السلطان محمد بن قلاوون [٣] .

وهكذا استولى أبو بكر على تونس سنة ٧١٨هـ ولقب بالمتوكل على الله ، وكان محبوباً من الناس ، وكانت بينه وبين عبد الواد حروب كثيرة أرهقت الدولة الحفصية ، وقد بلغ من تدهور الدولة الحفصية أن أصبحت مطمعاً لكل ناعق ، فقد خرج على أبي بكر رجل يدعى محمد بن أبي عمران في طرابلس حيث استخلفه عليها ابن اللحياني عندما فر إلى مصر وكان محمد بن أبي عمران من سلالة بني حفص ، وكانت هذه السلالة تشغل مناصب هامة في الدولة ولكنها لم تصل إلى درجة الملك أو الإمارة إلا عندما ولاه ابن اللحياني على طرابلس حيث طمع ابن أبي عمران في الملك بتأثير من الأعراب الكعوب إذ حرضوه على القدوم إلى تونس واحتلالها ، واستطاع ابن أبي عمران احتلالها سنة ٧٢١هـ إلى سنة ٧٢٢ هـ حيث تمكن أبو بكر من استجماع قواه من جديد واخرج ابن أبي عمران من تونس واستمر يحكم تونس ٢٩ عاماً عقد خلالها مصاهرة مع أبي الحسن المريني وكانت العلاقات طيبة بينهما ، وقبل وفاة السلطان أبو بكر عقد لأبنه أبا العباس [١] ولاية العهد من بعده كما عقد له على بلاد الجريد ثم توفي أبو بكر الحفصي سنة ٧٤٦هـ وبعد وفاة السلطان أبو بكر ، عدل الحاجب أبو محمد عبد الله بن تافراكين [٢] ، والجند عن مبايعة أبي العباس ،

---

(3) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي أبو الفتح من كبار ملوك الدولة القلاوونية ، أمتلك قيادة الدولة فخطب له بمصر وطرابلس الغرب والشام والحجاز والعراق وديار بكر والروم وغيرها ، استمر ٣٢ سنة في الحكم . الزركلي ، الإعلام ٧ / ١١ .

(1) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٤٨٧ – ٤٨٨ .

(2) هو أبو عبد الله محمد بن تافراكين ، وبنو تافراكين من بيوتات الموحدين في تينملل ومن آيت الخميس . ولي عبد المؤمن كبيرهم عمر بن تافراكين على قابس سنة ٥٤٠هـ وكان منهم عظماء ومنهم عبد العزيز وهو أحد شيوخ الموحدين وله ثلاثة أبناء أحمد ومحمد وعمر . وكان أحمد صاحب مكانة وشأن عند

وبايعوا أخاه أبا حفص عمـر الذي بعث إلى القاضيان عبد السـلام قاضي الجماعة وقاضي الانكحة وطلب منهما البيعة ، فقـالا له : (بالأمس شهدنا على أبيـك في بيعة أخيك أبي العباس) [3] ولكن الحاجب أبن تافراجين أعلن عن مبايعة الـملاء لأبي حفص ، فما كان من القاضيان إلا أن شهدا على هذه البيعة ، وكان الأمير خالد ابن السلطان أبي بكر قد قدم زائراً من المهدية فلما سمع بولاية أخيه عمر هرب في اتباعـه فلحق به أولاد منديل وأسلموه إلى أخيه عمر فسجنه بالقصبة ، ولما بلغ ولي العهد أبي العباس ما حدث بتونس لجأ إلى أخيه أبي فارس عبد العزيـز صـاحب سوسـة [1] ، فخرجا لمواجهة عمر والتقوا معه في شعبان سنة ٧٤٧هـ فهزم جيش عمر ، فلمـا رأي ابن تافراجين ذلك تعلل بأنه يريد الذهاب إلى تونس لجمع الأمـوال والجنـود فهرب إلى المغرب بعد أن أخذ الأموال ، وقد اختل جيش عمر وتراجع إلى باجة [2] ، وقام بأمر تونس أبو العباس ولقب بالمعتمد على الله سنة ٧٤٧هـ ولكن عمر هاجم تونس وقتل أخاه أبا العباس كما قطع أعضاء أخويه الآخرين خالد وعبـد العزيـز ، وقتل من اتباع أبي العباس نيفا وثمانين رجلاً ، وقد احتل تونس وجددت له البيعة .

السلطان الحفصي أبو عصيدة ، وعندما توفي تربي أبنه أبو عبد الله محمد في رعاية الحفصيين حتى قدم شيخاً للموحدين ثم ولى الحجابة ، وبلغ ا مبلغا عظيم . ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٥٠٨ / ٥١٠ .

(3) الضياف : الإتحاف ، جـ١ ، ص ٢٢١ .

(1) سوسة : مدينة قديمة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط ، على بعد مائة ميل من تونس اتخذها المسلمون قاعدة لنائب الوالي لما امتلكوها . وهي محصنة ومعظم أهلها بحارة ، نظراً لقر ا من البحر فكان لموقعها أثر كبير في قدوم مختلف البضائع إليها . ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٨٣ .

(2) باجة Beja: مدينة قديمة بناها الرومان على بعد خمسة وعشرين ميلاً من البحر المتوسط ، بينها وبين تونس خمسة وستين ميلاً ، وكانت تدعى قديماً [فاكا] فحولت إلى (باجة) بالعربية وهي مدينة زراعية ويكثر فيها زراعة القمح . ليون الإفريقي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٦٦ .

ولما علم السلطان المريني [٣] بأحداث إفريقية وأن عمر قتل اخوتـه ، انـزعج وأنكر ما قام به عمر من الاستيلاء على حقوق أخيه ، لا سيما وأن أبا الحسن المريني كان من الشهود على السلطان أبي بكر عندما أخذ ولاية العهد لابنه أبو العبـاس ، فأنف من إلغاء شهادته ورأي في هذا احتقاراً له ، ومما قوى من عزمه الحاجب ابـن تافراجين الذي رغبة في ملك إفريقية بعد انحلال عراها [١] ، أيضاً وفد على السلطان المريني أولاد الشيخ حمزة رئيس بني سليم يطالبونه [٢] بغزو إفريقية وأخذ الثأر مـن سلطان تونس أبي حفص لأنه قتل ثلاثة من بني سليم .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت السلطان المريني يتحرك نحو تونس مـستخلفاً على المغرب الأوسط ابنه أبا عثمان .

وعندما وصل السلطان المريني إلى منطقة وهران ، أتته بيعة ابن مكي صـاحب قابس وابن العابد صاحب قفصة ، وابن الخلف صاحب نفطة [٣] ، كمـا حملوا إليـه بيعة طرابلس ، وصاحب الزاب يوسف بن منصور ومعه مشيخة الذوادة ، وقد بايعوه على السمع والطاعة ، فقبل مبايعتهم وعقد لكل منهم على بلده ، وبعث مع أهـل الجريد عسكر للحماية والجباية وجعل عليه وزيرة مسعود بن إبراهيم .

---

(3) هو علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني أبو الحسن ، من كبار بني مرين ملوك المغرب ، عرف بالسلطان الأكحل لسمرة لونه ، استنجد به بنو الأحمر في الأندلس فأرسل الجيوش وافتتح جبل طارق وحصنه وافتتح وجدة ، ودوهران ، وهنين ، ومليانة ، والجزائر ، وتلمسان ، وقضى عمره في محاربة الإفرنج والقبائل الإفريقية ومحاربة ابنه أبي عنان فارس . وتوفي دون استرجاع ملكه مـن أبنه أبي عنان سنة ٧٥٢هـ . الزكلي . الأعلام جـ٤ / ٣١١ ، مقديش : نزهة الأنظار ، جـ١ ، ص٥٢٥ .

(1) الضياف : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(2) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ٢٤٩ .

(3) نفطة : مدينة بإفريقية من أعمال الزاب الكبيرة وأهلها [شراه إباضية] . يافوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٥/٢٩٦ .

ولما وصل بجاية خرج له أميرها أبو عبد الله محمد أبي زكريا طائعاً فصرفه إلى المغرب مكرماً ، فسار إلى قسنطينة ، وخرج له بنو الأمير أبي عبد الله محمد يقودهم أبو زيد فضل بيعتهم وصرفهم إلى المغرب ، فلما سمع بذلك أبو حفص فر هارباً ، فاخبر بنو حمزة ومشائخ الكعوب السلطان المريني ، فأرسل جيشاً في طلبه بقيادة حمو ، فقبض على الأمير الحفصي عمر في مكان يسمى بالمباركة قرب جبل السباع فقتله مع مولاه ظافر وأرسل برأسيهما إلى السلطان المريني (4) .

وهكذا دخلت الدولة الحفصية تحت السلطة المرينية سنة ٧٤٨هـ .

ونزل السلطان أبو الحسن المريني بجنوده في أواخر جمادى الثانية من سنة ٧٤٨هـ وبنى مدينة فوق سيجوم لسكني من جاء معه من الجند ، فلما استقر أمره بتونس ، محا رسوم الموحدين ، وأثار الحفصيين ، وأرسل من وجد منهم إلى المغرب ، وأجرى عليهم العطاء ، ولم يبقهم في تونس من بني حفص إلا الفضل ابن أبي بكر فعقد له على بونة ، وذلك بسبب ما بينهما من المصاهرة ، ثم أجلى العرب عن الأراضي التي امتلكوها بالاقطاعات واسترجعها وقال لهم (إنما يمضي عطاء من يعرف مقدار ما أعطى) (١) .

فشن العرب الغارات في جهات إفريقية فأخذوا ما كان للسلطان المريني في المراعي من أغنام ونحو ذلك ، وانطلقوا يخربون واجمعوا أمرهم للخروج على السلطان المريني ومحاربته وجعلوا على قيادتهم أحمد بن عثمان بن أبي دبوس ، أخر خلفاء بني عبد المؤمن ، و كان يعمل خياطاً بتوزر ، فأتوا به وبايعوه على الموت ، فلما علم بأمرهم السلطان أبو الحسن ، زحف إليهم في مكان قرب القيروان

---

(4) الضياف : الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .

(1) الضياف : الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

يقـال له (الهنية) [٢] وكان ذلك سنة ٧٤٨هـ واستطاع السلطان المريني الأنتصار عليهم وإجفالهم عنه ، إلا أنهم رجعوا في ثاني المحرم من سنة ٧٤٩هـ واستماتوا في محاربة أبي الحسن ونجحوا في إحداث اختلال في صفوفه مما اضطر السلطان المريني إلى الفرار نحو القيروان وتحصنه بها ، فأخذ الأعراب كل ما كان للسلطان من أثاث وأموال وسلاح وكراع [٣] في المعسكر ، وحاصروا القيروان ، ثم طالبوا بإخراج الحاجب ابن تافراجين ، فخرج إليهم فنصبوه حاجباً ، لأبي دبوس فزحف أبو محمد بن تافراجين ومن معه وحاصروا قصبة تونس ونصبوا المنجنيق عليها ، وكان بها حريم السلطان المريني وأولاده ورجالة ، وفي هذه الأثناء تمكن السلطان أبو الحسن المريني من الفرار بمساعدة أولاد مهلهل مقابل مبلغ من المال ، فخرج من القيروان إلى سوسة ومنها ركب إلى تونس ، فلما سمع أبو محمد بهروب السلطان المريني ، خاف وركب إلى الإسكندرية ، فاضطرب أمر الأعراب المحاصرين للقصبة وولوا هاربين ، فخرج أولياء السلطان من القصبة ، ونزل أبو الحسن تونس في سنة ٧٤٩هـ ، ولما رأي أولاد أبو الليل ما فعله أولاد مهلهل مع السلطان المريني وإنهم أصبحوا في مأمن عنده ، أرادوا مهادنة أبي الحسن المريني فقبضوا على سلطانهم أحمد بن عثمان الدبوسي ، و قدموه للسلطان المريني دليلاً على طاعتهم له [١] .

واستقرت الأوضاع للسلطان المريني في تونس ، إلا أن الفضل بن أبي بكر صاحب بونة ، عندما سمع بمحاصرة الحسن المريني في القيروان ، عزم على الخروج لأسترداد ملك آبائه فحاصر قسنطينة ودخلها سنة ٧٤٩هـ ثم قصد القصبة ودخلها بعد أن أعطى أهلها الأمان ، ومنها إلى بجاية ، فأخذها بعد قيام أهلها على بني مرين ، فلما سمع السلطان المريني بقدوم الفضل بن أبي بكر وانتقاض الأعراب عقد لأبنه أبي

---

(2) الشماع : الأدلة البينة ، ص ٩٦ .

(3) الضياف : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

(1) الضياف : الاتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ .

الفضل نائباً عنه بتونس ، وخرج إلى المغرب حيث وجد أبنه أبا عنان قد أخذ البيعة لنفسه ، ذلك أنه لما حوصر أبو الحسن في القيروان خرج بعض بنو مرين مشاة إلى المغرب واخبروا ابنه أبا عنان [٢] أن أباه قد مات في حصار القيروان ، فأخذ البيعة لنفسه ثم توفي السلطان المريني بعد ذلك بعد عدة حروب سنة ٧٥٢هـ .

أما الفضل الحفصي فإنه قدم إلى تونس ، واستقبلته جموع الحفصيين ، بعد أن حاصروا الفضل ابن أبي الحسن المريني في القصبة ورموه بالحجارة ، ولكن الفضل ابن أبي بكر الحفصي استطاع إخراج صهرة وإرساله إلى المغرب ، فكانت مدة المرينيين في تونس عامان وستة أشهر ونصف ، وبويع للفضل الحفصي في التاسع من ذي القعدة سنة ٧٥٠هـ ولقب بالمتوكل على الله ، وقد ركن إلى الراحة واللهو [٣] .

وكان الشيخ أبو محمد بن تافراجين قد عاد من الحج مع عمر بن حمزة شيخ العرب ، فسألوا السلطان الحفصي الفضل أن يسمح لابن تافراجين بدخول تونس ، فرفض بشدة ، عند ذلك دبر الأعراب مؤامرة ضد السلطان الحفصي حيث تظاهر الأعراب بأنهم يريدون التفاهم مع السلطان الحفصي فطلبوا منه الخروج إليهم ، فخرج إليهم الفضل فأحاطوا به واعتقلوه ومن ثم قتلوه ، فدخل ابن تافراجين تونس سنة ٧٥١هـ وأخرج أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر وبايعه الناس ، وهو لم يبلغ الحلم ، فقام ابن تافراجين بأمور الدولة، فكان الأشياخ [١] يأتون إلى رياضة كل صباح ، ويسلمون عليه سلام الملوك ، وعمل على مهادنة العرب ، واستطاع بعدها

---

(2) أبو عنان فارس ابن أبي الحسين علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، أخذ الملك من والدة أبو الحسن عندما ذهب إلى تونس فأستأثر بالحكم ، وكان عادلاً ، ذكر له ابن بطوطة في كتابه ، الكثير من المزايا والخصال ، توفي سنة ٧٥٩هـ . بطوطة : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، ص ٦٦٩ ، ٦٧٠ .

(3) مقديش : نزهة الأنظار ، جـ ١ ، ص ٥٥٧ .

(1) مقديش : نزهة الأنظار ، جـ ١ ، ص ٥٧٧ .

أن يأخذ ما في أيدي الأعراب من جميع البلاد قرطاجنة [٢] ، والقيروان ، وسوسة ، وباجة ، وتبرسف [٣] ، والأربس [٤] ، واستبد بالأمر ، وبني سورا يحيط بجميع أراض تونس وحبس عليه نصف خراج الأرض ونصف كراء [٥] المعاصر .

وفي سنة ٧٥٨هـ وصل السلطان المريني ابو عنان بجيش ضخم واستولى على بجاية وقسنطينة وأرسل إلى ابن تافراجين بالدخول في طاعته ، فأخرج لهم السلطان أبا إسحاق في جيش وبقي ابن تافراجين في تونس ، فهزم أبو إسحاق ومن معه ودخل أبو عنان تونس ، وفر ابن تافراجين إلى المهدية ، ثم رحل أبو عنان من قسنطينة يريد تونس ولكن رجال بني مرين تخاذلوا وتنادوا (المغرب المغرب) [١] وذلك خشية أن يصيبهم ما أصاب أبو الحسن المريني ورجالة في القيروان ، فلما انفض الجيش من حول أبي عنان رحل هو الأخر إلى المغرب ، وعاقب المتسللين من جيشه بعد ذلك .

---

(2) قرطاجنة : مدينة عتيقة يزعم البعض أن مؤسسها قوم جاءوا من الشام ، والبعض يقول من أرمينيا ، وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية انتقل إليها نبلاء الرومان والقوط ، ثم رحلوا عنها سنة ٧٤هـ / ٦٩٣م فخربت و بت إلى أن عمرها الشيعي المهدي ، و ا قناة ماء قرطاجنة العظيمة وتحيط ا الحدائق من كل مكان وتزود تونس بكافة أنواع الفواكه . ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٦٩ ، ٧٠.

(3) تبرسف : لم أعثر ترجمة لها .

(4) الأربس : مدينة قديمة بناها الرومان ، وتسمى لاريبوس ، تقع وسط سهل وهي زهرة أقاليم إفريقيا . خصبة ، احتلها [الوندال] زمناً ثم رحلوا عنها ، وهي لا تبعد عن تونس إلا بنحو تسعين ميلاً . ليون الإفريقي : المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥ .

(5) الشماع : الأدلة البينة ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(1) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٩٨ .

ولما تيقن لابن تافراجين والسلطان أبو إسحاق إبراهيم خبر رحيل أبي عنان ، قدم أبو إسحاق إلى تونس من بلاد الجريد وتبعه ابن تافراجين ، فباشر السلطان الحفـصي أبو إسحاق مهام الحكم سنة ٧٥٨ هـ .

وفي سنة ٧٦٠هـ أخذ النصارى بلاد الحمامات[٢] وأقاموا ا يومين ثم أخرجوا منها . وفي سنة ٧٦١هـ توجه السلطان الحفصي إلى بجاية وأخذها من بني مـرين ، وتوفي ابن تافراجين سنة ٧٦٦هـ ، وما لبث أن لحق به السلطان سنة ٧٧٠ هـ بعد أن أخذ لأبنه أبي البقاء خالد البيعة .

بويع أبو البقاء خالد بن أبي إسحاق بعد وفاة والدة وهو لم يبلغ الحلم ، وأخذ له البيعة مـولاة منصور ، وحاجبة أحمد بن إبراهيم المالقي ، الذين تحكمـا في شـؤون الدولة ، فظهر منهما سوء التدبير ، وجور على الناس ، وانتهاب للأمـوال ، فـنقم الناس عليهم ، وبدا التذمر والشكاية فرحل منصور بن حمزة أمير بـني كعـب مـن الأعراب إلى بجاية حيث كان أبي العابس أحمد بن أبي عبد الله محمد ابن الـسلطان أبي بكر ، فاخبره بأحوال تونس وتذمر الناس من حكم أبي البقاء وحثه على الذهاب إلى تونس ، فتوجه أبو العباس إلى تونس سنة ٧٧٢هـ وقبض على أبي البقاء ووجهة إلى قسنطينة حيث غرق في البحر ومات [١] .

وكان أبو العباس أحمد قد تجاوز الأربعين عندما دخل تونس ن فكان على علـم ودراية بأمور الحكم والسياسة وكان جل اعتماده على رجالة الذين كانت لـه ـم معرفة وممارسة [٢] .

---

(2) الحمـامات : مدينة بناها المسلمون وسـوروها على بعد أربعين ميلاً من تونس. ليون: المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص٨٣ .

(1) الضياف : الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ ، مقديش ، نزهة الأنظار ، جـ ١ ، ص ٥٨٥ .

(2) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٧٨ .

وقـد سـلك في الناس مسلكاً حسناً فـأسقط الكثير من المظالم عن النـاس . وعمل على الحد من سلطة الأعراب وانتزاع ما لهم من إقطاعات ، كما قبض علـى أحمد بن تافراجين وأرسله إلى قسنطينة حتى مات ا ، وذلك لما قام به مـن تحـريض الأعراب ضد أبي العباس ، واستطاع الاستيلاء عـلى بـلاد الجريـد ، وقـابس ، وطرابلس ، والزاب (٣) .

وفي سنة ٧٩٢هـ قدم أسطول من جنوة وفرانسة مكون من مائة قطعـة بـين مراكب كبيرة وأغربه (4) ونزلوا المهدية وبقوا شهرين ونصف ، فوجه إليهم ابنه أبـا فارس عبد العزيز وأخاه زكريا فاستطاعا إجلاءهم عن المهدية بعد شهرين ونصف من الاحتلال المؤقت .

وتوفي أبو العباس سنة ٧٩٦هـ بعد حكم دام ٢٤ سنة ودفن بالقصبة (5) .

ثم بويع ابنه أبو فارس عبد العزيز في شعبان سنة ٧٩٦هـ وقد عمل منذ بداية حكمة على مـحاربة الثورات والفتن حتى لا تنز أركان دولته فقد غـزا طـرابلس وقفصة ، ونفطة ، وتوزر ، وبسكرة ، وقسنطينة ، وبجاية ، وسيطر على هذه المناطق التي تمثل مراكز الثورة الدائمة .

وفي سنة ٨٣٣ هـ فتح تلمسان ، ووصل إلى فاس وأخذ طاعة بني مرين . وفي سنة ٨٣٢هـ أرسل قائدة رضوان لغزو مالطة وقد غنم مغانم كثيرة ، وقد حـاول

---

(3) الضياف : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٣٠

(4) أغربة : يقال أغربة وغربان جمع غراب وهو نوع من المراكب أخذه العرب عن القرطاجيين والرومان وبقيت إلى عهد الدولة العثمانية وقد سمي ذا الاسم لأن مقدمة يشبه رأس الغراب أو الطائر وهذا المركب يسير بالقلع كما كان يسير بعدد من ا اديف لا يتجاوز ١٨٠ مجدافاً . سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٣٥٩ .

(5) محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، جـ ٢ ، ص ١٨٣ .

غزو صقلية . وفي سنة ٨٣٥هـ نزل النصارى بجرية فأرسل لهم جيش استطاع إجلاءهم عن هذه الجزيرة [١] .

وقد كان بحق واسطة بني حفص ، فقد كان له أعمال جليلة ومنها : صدقته وصلته لأهل الحرمين ولعلماء المشرق ، ومنحه لأهل الأندلس من المساعدات وغيرها حيث يوجه لهم ذلك في كل عام إعانة لهم على العدو الأسباني النصراني .

وقد أقام عدة زوايا منها الزاوية التي خارج باب أبي سعدون بحومة باردو حيث جعلها مأوى للواردين من أي بلد . والزاوية التي بحومة الداموس والمعروفة بزاوية الشيخ الصالح سيدي فتح الله العجمي حيث جعلها مأوى لمبيت الواردين من تلك الجهة أيضاً قام ببناء العديد [٢] من المحارس لحفظ ثغور المسلمين كحرس آدار والحمامات ، وأبي الجعد ورفراف وغير ذلك .

ومن حسناته أيضاً بناؤه للسقاية خارج باب الجديد من تونس سبيلاً للناس وأوقف عليها أوقافا جليلة ، وبناؤه للماجل الذي بمصلي العبدين من تونس وأخرج منها سبيلين أحدهما للشرب والأخر ورد لمن يرده بقربة ونحو ذلك [3] .

وقد مات رحمة الله بعد أن صارت البلاد الإفريقية والمغرب الأوسط والأقصى تحت حكمة .

وكانت وفاته سنة ٨٣٧هـ وهو خارج لغزو تلمسان بعد أن حاول أميرها أحمد بن أبي حمو الاستقلال عن السلطة الحفصية وتوفي عند سفح جبل ونشريس [١] .

---

(1) الضياف : الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٣٠.

(2) السراج : الحلل ، جـ ٢ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(3) المصدر السابق نفسه .

(1) الصياف : الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٣٣.

ثم تولى حفيد أبي فارس أبو عبد الله محمد المنتصر سنة ٨٣٧هـ وجددت له البيعة سنة ٨٣٨هـ وقد سار على نهج جدة الراحل حيث بذل الصدقات للفقراء ، وأطلق السجناء ، وأكرم العلماء ولكن الأجل لم يمهله طويلاً حيث أصابه مرض وهو خارج لتأديب الأعراب في قفصة ، و أشتد عليه المرض فعاد إلى تونس حيث توفي ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر في سنة ٨٣٨هـ فكانت ولايته سنة واحدة (٢) .

وبويع شقيقة أبو عمر وعثمان ابن أبي عبد الله محمد بن أبي فارس عبد العزيز سنة ٨٣٨هـ وكانت أمة علجية أسمها ريم ، وكانت أيامه رخاءاً وازدهاراً فقد أقام بعض الأعمال التي تنفع الناس ومنها بناؤه للسقاية التي تحت صومعة القصبة يشرب منها الناس والدواب ، وبناء المصاصة مشرقي جامع الزيتونة يجذب منها الماء بالنفس . ومنها بناؤه للسبيل بقرب المارستان ينتفع به لقلة الماء هناك ، وبناؤه للسقاية بإزاء بجوار باب الجبيلة بين بابي برج الأونقي بتونس وجلب الماء من أم الوطأ خارج مدينة تونس .

وأقام عدة زوايا ومنها زاوية الفندق فوق غابة شريك قبلي جبل زغوان حيث جعلها ملجأ لمبيت الواردين من ناحية تونس أو من ناحية القيروان ، وزاوية أبي الحداد وزاوية غرناطة في المكان المعروف بين توزر وقفصة ، وزاوية بنونة وزاوية الـ ول وغير ذلك (٣) .

وقد أحاط دولته بسياج من الأمن بعد أن قضى على العديد من الثورات ومنها ثورة أبي عبد الله محمد الحسين وأبي الحسن صاحب بجاية ، وقضى على ثورة العرب ضده وأمسك ببعض شيوخهم ومنهم نصر الذوادي ومحمد بن سعيد وإسماعيل بن ضرار ، ومهلهل وقتلهم جميعاً .

(2) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٥٦ .

(3) السراج : الحلل ، ص ١٩٥ ، ١٩٧ .

وقد حاول صاحب تلمسان محمد بن ثابت عبد الوادي الخروج علـى طاعـة السلطان [١] الحفصي أبي عمرو عثمان فخرج إلى تلمسان وهدم سورة ، فاعلن بنـو عبد الوادي طاعته وطالبوه بالعفو فعفا عنهم .

وفي سنة ٨٥٧هـ قبض السلطان الحفصي على قائدة نبيل وبنيـه واستـصفى أموالهم التي بلغت عشرين قنطاراً من الذهب من غير الجواهر والعقارات ، فنكبـهم السلطان ، وأنزل بهم أشد العقاب .

وفي سنة ٨٧٧هـ جدد أهل فاس بيعتهم للحفصين بطلب من أميرهم محمد بن أبي زكريا الوطاسي وذكرت بيعة فاس بجامع الزيتونة .

وحدث في عهده الطاعون العظيم الذي مات فيه أربعمائة ألف نفس .

وتوفي أبو عمرو عثمان سنة ٨٩٣هـ بعد أن حكم أكثر من نصف قرن ، فقد حكم أربعاً وخمسين سنة فكان أخر عظماء بني حفص وختامهم [٢] .

وبانتهاء عصر السلطان أبي عمرو عثمان سنة ٨٩٣هـ بدأ عـصر الـضعف والانحطاط يدب في أركان المملكة الحفصية فقد حكم أبو زكريا يحيى بن أبي عبد الله المسعود من ٨٩٣هـ إلى ٨٩٩ هـ حيث بدأت الثورات مثل ثورة عبـد المـؤمن إبراهيم التي هزت أركان المملكة الحفصية زمناً ، فاضطربت أحوال المغرب ، ثم بدأت المقاطعات تميل إلى الاستقلال عن حكومة تونس ، استمر الوضع المضطرب حتى وفاة أبو زكريا سنة ٨٩٩هـ حيث قام بالأمر من بعده أبو عبد الله محمد بن الحسن مـن سنة ٨٩٩ – ٩٣٢ هـ . وزاد الأمر سوء حتى لم يبق في يد هذا الأمير إلا مدينـة تونس وعنابة وما بينهما ، ثم قتلة أبنه الحسن بن محمد وقام بحكم تونس مـن سـنة

(1) الضياف : الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٤٨ .

(2) المصدر السابق نفس الجزء ، ص ٢٤٨ .

٩٣٢ – ٩٣٦ هـ فأساء السيرة في البلاد ، واضطربت الأوضاع ، وقتل العديد من أخوته قيل أ م أربعة وثلاثين أخا ، ونجا واحد يدعي الرشيد لجأ إلى الجزائر التي تحكم من قبل خير الدين بابروسا ، الذي طمع في حكم تونس لجـودة موقعهـا وكثـرة حاصلا ا ، إضافة إلى أن الرشيد الحفصي عندما لجأ إلى الجزائر طلب من باربروسـا محابتة والتدخل لإنقاذ تونس من الاضطرابات ، فوجد باربروسا الفرصة سانحة لتحقيق أمله في السيطرة عليها ، فأخذ الرشيد الحفصي وذهب بـه إلى الآسـتانة فأسـتأذن سليمان القانوني في غزو تونس وطلبه المساعدة ، فأذن له وأمـده بالرجـال والمـال والأساطيل ، فدخل تونس باربروسا سنة ٩٣٦هـ وأنضم الأهالي إليـه لميلـهم إلى حكم الرشيد ، وفر أمير تونس الحسن ولجأ إلى أسبانيا طالباً المساعدة من الإمبراطور شرلكان ، فانجده بأسطول هزم به خير الدين باربروسا ، ودخلت تونس تحت الحماية الأسبانية إلى أن استطاع العثمانيون سنة ٩٨١هـ بقيادة سنان باشا من انتزاع ملك الحفصيين بعد قتال مرير أسر فيه أمير تونس محمد بن الحسن ، وبأسـره انقرضـت الدولة الحفصية بعد أن حكمت ما يقارب الثلاثة قرون ونصف [١] .

(1) المؤنس ، ص ١٥٧ ، الحلل : جـ٢ ، ص ٢٠٥ . الإتحاف : جـ١ ، ص ٢٤٨ .

الفصل الثاني

نظم الحكم والإدارة في الدولة

أ – النظام السياسي .

ب – النظام الإداري .

جـ - النظام الحربي .

د - النظام القضائي .

المبحث الأول : النظام السياسي :

أمتد نفوذ الدولة الحفصية ليشمل إقليم تونس المعروف حالياً وجميع الأراضي التي يقابلها اليوم طرابلس الغرب في ليبيا وأجزاء من الجزائر وهي ولايات بونة وعنابة وقسنطينة وبجاية وتدلس[1] التي تسمى دلسي حالياً غرباً وما بعد ورقلة في الصحراء الجزائية جنوباً .

وكانت تونس حاضرة بني حفص ، إلا أنه في فترات الفتن والاضطرابات والمنازعات السياسية تعددت العواصم لهذه المملكة ، فكانت بجاية وقسنطينة تشارك تونس في هذه المهمة [٢] .

أبد الحفصيون حرصاً منذ تأسيس دولتهم على الانتساب إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكـذلك إلى أبنته حفصة [٣] رضي الله عنها ، وكانوا يعلنون هذا النسب الشريف في كل حفل لإكساب حكمهم الصبغة الشرعية من ناحية ، ولالتفاف الناس حولهم من ناحية أخرى ولا سيما بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ وجاءت بيعة مكة مؤكدة لخلافتهم ، فتعددت الألقاب التشريفية التي أتخذها سلاطين بني حفص ، فعلى الرغـم من أن الأمير أبا زكريا رفض لقب أمير المؤمنين ، إلا أنه تلقب (با الأمير) ، أما أبنه محمد فلقب (بالمستنصر بالله) إلى جانب لقب (خليفة المسلمين) ثم درج بعده السلاطين على اتخاذ الألقاب

---

(1) تدلس : مدينة بالمغرب الأقصى على البحر المحيط . يافوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٢ / ١٧ .

(2) أحمد مختار العبادي : دراسات من تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٨١ .

(3) حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشي رضي الله عنهما ، كانت متزوجة من الصحابي الجليل خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي القرشي ، مات في المدينة بعد أن شهد احداً ، وأصابته جراح من هذه المعركة فتوفي وترك حفصة بنت عمر بن الخطاب وعمرها آنذاك ثمانية عشر سنة ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ، وعندها حفظ المصحف الكريم الذي أشار أباها عمر على الخليفة أبو بكر بجمعة فتم جمعه وحفظ عند السيدة حفصة رضوان الله عليها ، توفيت سنة ٤٧هـ ، ابن هشام – السيرة النبوية جـ ٣ / ٦ ، ٣٤١ . الطبري أبي جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، ١٧٧/٣ .

المتعددة ومن الواضح أ ا ألقاب مشرقية الأصل مثل الواثق بالله ، والمعتمد على الله ، والقائم بأمر الله ، والناصر لدين الله ، والمنتصر بالله ، (وا اهد) ، و(المنتخب لإحياء دين الله) ، وهذا اللقب الأخير لم يعرف به إلا بني حفص [1] .

وهكذا نجد أن الألقاب أصبحت سمة من سمات العصر الحفصي حتى أن السلطان أبا بكر عندما تولى الحكم احتار في اختيار لقب له من بين الألقاب ، فطلب من أحد الأولياء المقربين منه وهو الولي الصالح يعقوب الملاري وطلب منه أن يختار له لقباً فاختار له لقب (المتوكل على الله) [2] .

وكان للسلاطين الحفصيين قصور تحتوي على بساتين وحدائق زينت بأنواع الورود والزهور المختلفة ومن هذه القصور قصر بياردو ، وبرج السلاسل بالمرسي ، وقصر الطابية ، وقصر ابي فهر قرب أريانة [3] .

ولم يتخذ الحفصيون علماً وطنياً محدداً وإنما كان اللون الأبيض الذي يرمز إلى الأسرة الحاكمة من قبيلة هنتاتة ، أما بقية القبائل فكانت لها (صناجق) [4] باللون الأصفر – الأحمر – والأخضر ، فكان الوسط أبيض وإلى جانبه الأحمر والأصفر والأخضر [5] .

وكان النظام السياسي عند الحفصيين ملكياً وراثياً ، فكـان السلطان يأخذ البيعة [٦] لابنة من بعدة وكانت البيعة تنقسم إلى بيعة خاصة وأخرى عامة ، فالبيعة

---

(1) ابن القنفذ : الفارسية، ص٣٨٣ ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ٢ ، ص ١٤ ، ١٥

(2) ابن القنفذ : المصدر السابق ، ص ٣٨٣ .

(3) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٢٣ .

(4) الصنجق أو السنجق : لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح ، ثم أريد به الداية التي تربط به ، والجمع صناجق أو سناجق ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/٥٠٨- ٤٥٦ .

(5) العمري أبو الفضل أحمد بن يحي : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ص ١٠ ، ١١.

(6) البيعة هي : العهد على الطاعة كان المبايع يعاهد أميرة على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعة في ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكرة " ، وكانت المعاهدة تتم بالمصافحة بالأيدي ولكن في العهود التالية ومنها العهد الحفصي أصبحت البيعة تتم (بتقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا الخضوع في التحية

الخاصة التي تتم من قبل صاحب العرش وسط إشهاد مشائخ الموحدين عليها ، ثم تتم بعد ذلك البيعة العامة وسط احتفال كبير يقيمه السلطان ويحضره كبار الفقهاء والمشائخ وقواد الجيش وعامة الشعب [(١)] .

وكانت البيعة تتم مرة واحدة وقد تجدد عدة مرات ، فالأمير أبو زكرياء الأول بويع بالإمارة سنة ٦٢٥هـ ثم جددت له البيعة مرة ثانية سنة ٦٣٤ هـ وكذلك المستنصر بويع ليلة وفاة والدة ثم جددت له البيعة بعد ذلك [(٢)] ، والأمير أبو إسحاق إبراهيم بويع سنة ٧٥١هـ ثم جددت له البيعة سنة ٧٥٨هـ عندما دخل تونس بعد انسحاب أبى عنان المريني عنها [(٣)] .

وأظهر الأمراء الحفصيين اهتماماً وعناية بالرعية ولا سيما العظماء منهم ، فقد كانت لهم مجالس يلتقون فيها مع كـل مسئول ويسألونه عن أحوال الرعية واحتياجا م ، وكذلك اعتاد السلطان على الخروج إلى الصلاة يوم الجمعة والالتقاء بالناس ومعرفة أوضاعهم ، وكان السلطان أبو زكريا الأول هو أول من سن هذا النظام فقد ذكر صاحب المسالك [(٤)] أنه من عاداته " يخرج كل يوم باكراً إلى موضع يعرف بالمدرسة ويبعث خادماً صغيراً يستدعي وزير الجند من موضعه المعين فيدخل عليه رافعاً صوته بسلام عليكم من بعد أن يومئ برأسه ولا يقوم له السلطان ويجلس بين يديه ويسأله السلطان عما يتعلق بأمور الجند والحروب ثم يأمره باستدعاء من يريد من أشياخ الجند والعرب أو ممن تعلق بوزير الجند ، ثم يأمر باستدعاء وزير المال وهو

والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صارت حقيقة عرفية واستغنى ا عن مصافحة أيدي الناس " . ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٩ .

(1) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، ص ٢ ، ص ١٩ .

(2) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ٣٢ ، ٣٣.

(3) السراج : الحلل ، ا لمد الثاني ، ص ١٧٦ .

(4) العمري : ص ٢٤.

المعروف بصاحب الأشغال فيأتي معه ويسلمان جميعاً من بعد على السلطان ، فيتقدم وزير المال إلى بين يدي السلطان ويتأخر وزير الجند إلى مكان لا يسمع فيه حديثهما ثم يخرج وزير المال ويستدعى من يتعلق به ، ثم يحضر صاحب الطعام بطعام الجند ويعرضه إلى وزيرهم لئلا يكون فيه تقصير ثم يقوم السلطان من المدرسة إلى موضع مخصوص ويستدعى وزير الفضل يعني كاتب السر ويسأله عن الكتب الواردة من البلاد وعما تحتاج إليه خزانة الكتب وعما تجدد في الحضرة وفي البلاد مما يتعلق بأرباب العلم وسائر فنون العقل والقضاة ويأمره باستدعاء من يخصه من الكتاب ويملي عليهم وزير الفضل ما أمره بكتابته ويعلم عليه وزير الفضل بخطة " (١) .

وبعد الانتهاء من الجلسة ينصرف السلطان إلى تفقد أحوال القصر وشؤونه الداخلية ، وكان هذا ا لمس إضافة إلى قيامة بالصلاة يوم الجمعة والجلسة القضائية التي يعقدها كل يوم سبت (٢) .

وقد سار أبنه المستنصر على جه فحسنت سيرته وحمده الناس على جميل فعله ، حتى جاء عهد الواثق بالله حيث بدأ الأمراء الحفصيون يبتعدون عن الناس وينشغلون في ملذا م وصراعهم على السلطة السياسية ، فبدأ الضعف يدب في أركان الدولة الحفصية ، فخلال سبع سنوات أي من سنة ٦٧٦هـ إلى ٦٨٣هـ كان هناك ثلاثة سلاطين يتولون العرش الحفصي ثم كان مصيرهم القتل والإزاحة ومن سنة ٦٨٣هـ إلى ٧٠٩ كانت فترة استقرار ولكنه لم يكن مصحوباً بأي توسع أو مد نفوذ حتى سنة ٧١١هـ حيث عاد الضعف والانحلال والذي انتهى بعد ذلك بالاحتلال المريني سنة ٧٥٠ هـ وحتى بعد انتهى الاحتلال المريني لتونس تولي العرش رجال لم يحسنوا النظام فكان انقسام الدولة الحفصية إلى ثلاثة دول في تونس وقسنطينة وبجاية ،

---

(1) العمري : مسالك الأبصار ، ص ٢٤.

(2) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

واستمر هذا الوضع السيئ للسلاطين الحفصيين حتى سنة [٣] ٧٩٢هـ حيث بدأ عصر السلطان أبي فارس ومن بعده أبي عمر وعثمان حيث كان عهدهما عهد انبعاث للسلطة الحفصية من جديد وقد سارا على ج المؤسسين الأولين في التقرب من الرعية والتماس حاجا م فقد ذكرت لنا المصادر أن السلطان عثمان كان يخصص يومي الأحد والثلاثاء لعقد جلسة عمومية يرفع من خلالها المظالم عن المتظلمين ، كما خصص يوم الجمعة للصلاة والالتقاء مع عامة الناس ومعرفة أحوالهم ثم عقد جلسة قضائية مفتوحة في وجه المدعين[١] كما أظهر اهتماماً ورعاية بالفقهاء والعلماء فقد كان يخصص لهم مجلساً بالقرب منه ، وحدث ذات يوم أن جلس فيه بعض الولاة فقال السلطان " ألا يوجد عالم للجلوس في هذا المكان " [٢] .

ونستنتج مما سبق أن لقوة شخصية السلطان وبعد نظرة ومعرفته لمواطن الحزم ومواطن اللين أثر كبير في إمساكه بزمام السلطة في البلاد ، وكذلك حرص السلاطين على مصالح الرعية والاهتمام بكل ما هو نافع ، أيضاً كان للسياسة الدينية التي اتبعها عظماء سلاطين بني حفص أثر كبير في علو مكانتهم عند شعبهم ، فقد كانت نزعة التدين تغلب على الشعب الحفصي ، لـذا اهتم السلاطين بالناحية الدينية فأنشئوا العديد مـن الجوامع والمساجد التي بلغت خـلال العهد الحفصي مائتي جامع ومسجد [٣] .

وكانت هذه أبرز إيجابيات السياسة الحفصية ، أما ما يتعلق بالسلبيات التي ساعدت في ا يار المملكة الحفصية ، فقد تمثلت في سببين رئيسين هما :

---

(3) الدولاتلي : مـدينة تونس في العصر الحفصي ، ص ٦٢ ، ٦٣ . مقديش ، نزهة الأنظار ، جـ ١ ، ٥٠٩ / ٥٦٥ ، ص ٠ ، السراج ، الحلل السندسية ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ ، إلى ١٦٩ .

(1) برنشفيك ، تاريخ إفريقية ، جـ ٢ ، ص ٣٨ .

(2) المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٩ .

(3) الدولاتلي : مدينة تونس في العهد الحفصي ، ص ١٢٧ ،

ولاية العهد :

قد كانت ولاية العهد أول سلبيات السلطة الحفصية ، فأراد الأمير أبو زكريا أن يرسم خطوط سير دولته ، فحرص على أن ولاية العهد لأبنه أبي يحي ، الذي كان يتمتع بالكفاءة وشدة التدين والوقار ، ولعل هذه الأسباب هي الدافعة لاختياره لولاية العهد ، وقد تمت له البيعة سنة ٦٣٣هـ وتولى أمر بجاية أيضاً ، ولكن القدر لم يمهله لاعتلاء العرش حيث توفي في حياة والدة سنة ٦٤٦هـ ، لكن يظهر لنا مرة أخرى إصرار الأمير أبي زكرياء على أخذ ولاية العهد في حياته لأبنه الآخر (محمد) حيث عقد له ولاية العهد وأمر بجاية [(١)] ، ومن الواضح أن أبا زكرياء أراد بذلك اتباع وتقليد الموحدين ، حيث كانت نظام الحكم لديهم وراثي ، حيث يرث الابن أباه وهكذا ، إضافة إلى أنه أراد أن يأمن من حدوث أي نزاع أو اختلاف من شأنه أن يضيع ملك الحفصين من بعده ، فرأى أن أخذ البيعة في حياته هو انسب طريقة لحفظ العرش ، إلا أن سياسة ولاية العهد جاءت بنتيجة عكسية ، حيث فأدت إلى المزيد من الصراعات والمنافسات بين أبناء الأسرة الحفصية الحاكمة فأعمام المستنصر يرون إ م أحق بالحكم منه ، لذلك دبروا مؤامرة ضده تزعمها عمة اللحياني وأبنه ، أدت إلى إراقة الدماء بين أبناء الأسرة الحاكمة حيث قتل المستنصر عمه وأبن عمه من أجل السلطة فساءت العلاقات بين الأخ وأخيه فكان الأخ يقتل أخاه من أجل أن يضمن عدم منافسته له في الحكم فالمستنصر عندما تولى الحكم ضيق الخناق على أخيه أبي إسحاق وفرض عليه رقابة صارمة للحد من تصرفاته ، فلجأ إلى الفرار من قبضته إلى عرب الدواودة ومن ثم إلى الأندلس حيث أخذ ينتظر الفرصة المناسبة للعودة إلى

---

(1) علي محمد محمد الصلابي : صفحـات مـن التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي (دولة الموحدين) جـ ٥ ، ص ٢٢٥ .

تونس ، وبالفعل عاد إلى تونس بعد موت المستنصر وتوليه أبنه الواثق فقام بخلع ابن المستنصر ومن ثم قتله وتولى الحكم الحفصي [٢] .

وهكذا نرى ولاية العهد أدت إلى زعزعة أمن الدولة وإلى اضطراب الأحوال فيها وبالتالي إلى تقويض أركان الدولة الحفصية .

(2) ينظر إلى تفصيل هذه الأحداث في الفصل الأول من هذا البحث ، ص ١٥ .

تعدد الطبقات والأجناس وتدخلها في السياسة الحفصية :

لقد أدى تعدد الأجناس في تونس وتقريب السلاطين الحفصيين لهم إلى زيادة أطماعهم وتدخلهم في شؤون الحكم وإفساد العلاقة بين الموحدين والسلاطين ، وأوجد تنافساً بين هذه الطبقات الدخيلة وبين الموحدين ، فكان ذلك مجالاً للصراع بين هذه الطبقات وبين الموحدين وبين هذه الطبقات وبعضها البعض .

ويعود وجود هذه الطبقات في تونس إلى الأمير أبي زكرياء الأول حيث أكثر من العلوج [1] والأندلسيين ، وتضاعفت أعدادهم في عهد المستنصر ، وقد كان لهم تأثير كبير في زعزعة أمن الحفصيين ، فأول صراع قام بين أبناء الأسرة الحاكمة في تونس كان سببه قائد يدعى ظافراً ، حيث قتل عم المستنصر وابن عمه بعد أن بعثه المستنصر لتهدئة الثورة التي قاما بها ، وبعد أن قتلهما خشي من عقاب السلطان الحفصي ففر هارباً إلى الدواودة ، حيث لحق به أخو المستنصر بعد ذلك أبو إسحاق ، وليس من المستبعد أن يكون ظافر هو المحرض لأبي إسحاق لينتقم من المستنصر الحفصي ، وهذا ما يؤكده مساندة ظافر لأبي إسحاق وجهوده في جمع كلمة الذواودة عليه وأخذ البيعة له من الأعراب ، ولكن المستنصر استطاع القضاء على هذه الثورة التي كادت أن تسقط حكمه لتونس ، وفـر أبو إسحاق إلى الأندلس ، وبقي ظافر طريداً بين الأعراب [2] .

وفي عهد أبي البقاء خالد بن أبي إسحاق لعب علج أخـر يدعى الحاجب منصور [عتيقة] دوراً كبيراً في أخذ البيعة لمولاة أبي البقاء خالد الذي كان صغير السن فكان

---

(1) العلوج : هم مرتزقة من النصارى ، يقوم سلاطين تونس بدفع اعطايات لهم مقابل ما يقدمونه من خدمات تسند إليهم ، دائرة المعارف ، مادة تونس ، جـ٦ / ٣٧ .

(2) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٤٠٥ .

هو الوصي عليه والمسيطر على الحكم وبمساعدة رجل أخر يدعى أحمد المالقي ، فأساء السيرة في الناس وانتهبوا الأموال ، حتى استطاع السلطان أبو العباس الحفصي تخليص الناس من شرهما [١] . وفي عهد السلطان عثمان زاد خطر العلوج فقد لعب القائد نبيل ابن أبي قطاية [٢] دوراً كبيراً منذ عهد أبي فارس عبد العزيز ، ولكن خطرة زاد في عهد السلطان عثمان حيث تمادى في عنجهيته وتكبره فقتل حاكم باب المنارة [٣] ويدعى (المكحول) ودار بجثته في الشوارع مدعياً أن السلطان عثمان هو الأمر بذلك ، ولما علم السلطان بخبره ، قبض عليه وسجنه وصادر أمواله وبقي في سجنه حتى توفي سنة ٨٥٧هـ ، وقد وصل الأمر بهؤلاء العلوج إلى أن السلطان عثمان أسند لعلج منهم يدعى (منصور) ولاية بجاية ولكن أهل بجاية رفضوا ولايته وضيقوا عليه الخناق وحدوا من تصرفاته وكادوا أن يقتلوه لولا تدخل السلطان بعزلة وتوليه ابنه أبو فارس عبد العزيز على بجاية [٤] .

---

(1) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ١٠٤ .

(2) هو أبو الفتح نبيل قائد مسيحي أصله من بروفانس أسلم وكان على جانب من الدهاء والفطنة حاول ضرب السكة باسمه ونجح وكانت أفضل من سكة الملك ، أرتكب مظالم شتى في الناس حتى استطاع السلطان عثمان قتله سنة ٨٥٧ هـ . ليون الأفريقي : وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٥٧ ، والعمري : المسالك ، ص ١٣ .

(3) باب المنارة : أهم باب أنشاه الحفصيون ويمتد إلى باب سيدي قاسم الزليجي غرباً وإلى مصلى العيدين جنوباً مجاوراً للقصبة السلطانية وغرباً لربض السلطان ويقع على منفذ المحور الشرقي الغربي ، فهو يتحكم في شبكة الطرقات الخارجية ، لذلك كانت له أهمية اقتصادية ، ولعب دوراً خطيراً في القرنيين الأخيرين من العهد الحفصي لاحتضانه جند النصارى . الجدير بالذكر أن الذي بناه هو الأمير أبو زكريا الأول وتم إصلاحه من قبل الأمير أبو عصيدة سنة ٧١٩هـ . الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ١٤٦ ، سليمان مصطفي زبيس: حول مدينة تونس العتيقة ، ص ٢٥ ، والدولاتلي ، مدينة تونس ، ص ١١٩ .

(4) العمري : المسالك ، ص ١٣ . ليون : المصدر السابق ، ص ٥٧ / ٥٨ .

هذا بالنسبة للموالي المماليك ولكن ما هو الوضع بالنسبة للأندلسين ؟

هاجرت أعداد كبيرة من الأندلسيين إلى تونس وزاحموا الموحدين على السلطة بل أ م أمسكوا بزمام السلطة الفعلية فالقائد سعيد بن أبي الحسين الأندلسي كان ذا حظوة عند المستنصر فكان وزيرة ومستشاره الخاص وهو الذي أخذ له البيعة بعد وفـاة أبي زكرياء ، ثم بعد وفاة المستنصر أخذ البيعة لابنه الواثق ، وكان مسيطراً عليه ، حتى تدخل ابن الحبير الأندلسي وتمكن من كسب رضاء الواثق وإيقاع الفتنة بين الواثق والوزير سعيد بن أبي الحسين ، حيث قام الواثق بسجن الوزير سعيد ثم قتله ومصادرة أمواله ، وأصبح الواثق العوبه في يد ابن الحبير حيث أصبح هو السلطان الفعلي للمملكة الحفصية ، وقد بلغ تحكمه بالواثق ما لم يبلغه أحد قبله ، فأذل الموحدين ، وجعل أخاه إدريس على أشغال بجاية ولم يستطيع تخليص الموحدين الموحدين منه إلا السلطان أبي إسحاق إبراهيم ، حيث تمكن من خلع الواثق وقتل ابن الحبير الأندلسي [1] .

أما الطبقة الثالثة والتي كان لها تأثير كبير في تشتت أجزاء الدولة الحفصية واقتطاع العديد من ولايا ا فهم الأعراب ، فقد لجأ الحفصيون إلى إنزال بني سليم بالقيروان وقسنيطنة ليحدوا من سلطان قبيلة رياح التي استولت على قسنطينة ، فاضطرت قبيلة رياح إلى الانسحاب من شرق إفريقية إلى غر ا ، فاستبد بنو سليم بالضواحي الشرقية من قابس إلى بونة ونفطة ، فقيد لهم السلطان الحفصي العطاء ، ولم

(1) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٣٥ .

يكتفي الحفصيون بمحالفة بني سليم بل حالفوا قبائل كرفة [٢] من بطون الأثابج ، واقطعوهم [١] جباية الجانب الشرقي من جبل أوراس وبعض الزاب الشرقية ، فعمل الحفصيون على ضرب العرب مع بعضهم البعض حتى يتقوا شرهم ومحاولة منهم لإيقاع النزاع بينهم حتى يضمنوا عدم إثارة الفتن والدسائس ضدهم ، وساء العرب موقف الحفصيين هذا ، فأخذ العرب الدواودة في مواجهة الدولة الحفصية ، فكان كل من ساءت علاقته بالسلطة الحفصية يلجأ إليهم ويحتمي بهم ، وقد مر بنا مولى المستنصر ظافر ، وأبي إسحاق أخو المستنصر ثم ابن عم المستنصر أبو القاسم حيث لجأ إليهم سنة ٦٦١هـ بعد أن وقع خلاف بينه وبين المستنصر حول عملية غش النقود ، ولكن أبا القاسم عندما شعر بموقف العرب العدائي ضد الحفصيين وإنهم يسعون إلى إزالة الحفصيين فضل الانسحاب بعيداً عنهم ، وعندما اتخذ المستنصر موقفاً حاسماً ضدهم فقتل رؤسائهم سنة ٦٦٤هـ لجئوا إلى المغرب الأقصى [٢] ، حيث تزودوا بالمال والعتاد والسلاح ، وعادوا ثانية إلى الدولة الحفصية ، فبسطوا سلطانهم على إمارات الزاب وجبال أوراس [٣] ووارقلة فأضطر المستنصر إلى

---

(2) قبائل كرفة : بطن من بطون القبائل الهلالية وبطونهم بنو محمد بن كفرة والمراونة بنو كثير بن مروان بن قطن بن كرفة وهم رحل جائلون . ابن خلدون ، جـ٦ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : الأستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، جـ٢ ، ص ٢٢١ .

(1) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٢٢ ، ٢٣ / ٢٤ ، ومحمود السيد ، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ، ص ٨٨ .

(2) ابن خلدون المصدر السابق ، ومحمود السيد : المرجع نفسه ، ص ٨٨/ ٨٩ ، ومصطفي أبو ضيف : أثر القبائل العربية في الحياة المغربية ، ص ١١٧ .

(3) جبال أوراس : كتلة جبلية شاهقة تقع على بعد ٦٠ ميلاً من بجاية و ٨٠ ميلاً من قسنطينة ، مفصولة عن الجبال الأخرى ، تتاخم الأوراس جنوباً صحراء نوميديا ، وشمالاً بلاد مسيلة وسطيف ونكاوس

مهادنتهم فجعل الأراضي التي استولوا عليها إقطاعاً لهم حتى يأمن شرهم [٤] ، وقدر ابن القنفذ [١] نفقات الدولة الحفصية في حرو ا مع قبائل الدواودة في عهد الأمير أبي العباس الحفصي خلال شهر شعبان من سنة ٧٩٢هـ بثمانين ألف دينار ، وهذا يدل على الخسائر الفادحة التي خسرها الحفصيون في سبيل الخلاص من هؤلاء الخارجين على سلطة الدولة واستطاع بعـض العرب أن يتولوا ولايات حفصية ، حيث تولى فضل بن علي بن مزني [٢] من العرب الهلالية [٣] ولاية الزاب بينما تولى عبد الواحد قسطيلة .

ونرى أيضاً أن قبائل عرب سليم وخصوصاً الكعوب منهم لم يكونوا ، أنصاراً وحلفاء للحفصين بصفة دائمة ، فقد كان لهم دور بالغ الأهمية في إسقاط الدولة

وقسنطينة وفي المرتفعات من هذه الجبال عدة عيون ينتشر ماؤها في السهل ويكون أنواعاً من مستنقعات تتحول إلى ملاحات عند اشتداد الحر . ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ١٠٢ .

(4) محمود السيد : تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ، ص ٩٠ .

(1) الفارسية ، ص ١٨٧ .

(2) بنو مزني : من أشهر الأسر العربية التي انتقلت إلى إفريقية تحالفت مع قبائل الهلالية وهم من مزنة بن دنقل ابن محيا بن جزي بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف من عرب الأثبج من فزارة الذين جاوروا بربر زناتة ، واشتغلوا بالفلاحة ، حتى عهد الأمير ابن إسحاق الذي أعطاهم الزاب وقسيطلة ، أمسكوا بزمام الأمور في ولاية الزاب وكانوا على علاقة طيبة مع الحفصيين حتى سنة ٨٠٤هـ حيث استطاع الأمير أبا فارس عبد العزيز القضاء على استقلالهم الذي استمر في بسكرة والزاب حوالي نصف قرن . ابن خلدون : العبر ،جـ٦، ص٤٠٥. مصطفي أبو ضيف ، أثر القبائل العربية ، ص ١٣٣، ١٣٧

(3) الهلالية : هم فرع من الأثبج يزعمون أ م من ولد الأثبج بن ربيعة بن يك بن هلال وكانوا أوفر القبائل الهلالية الداخلة إلى إفريقية وأكثرهم بطوناً ، من بطو م ، دريد ، كرفة ، وفره ، وعياض ، والعاصم ، ومقدم ، ولطيف . ابن خـلدون : المصدر السابق ،جـ٦، ص ٢٤، السلاوي : الاستقصاء ، جـ٢ ، ص ٢٢١

الحفصية فقد بدأ خطرهم في الظهور منذ عهد أبو حفص عمر الثاني [٤] حيث منحهم إقطاعات واسعة وفرض لهم جباية على القبائل المستقرة مكافأة لهم ، فزاد هذا من غرور رئيسهم ويدعى (هراج بن عبيد بن أحمد بن كعب) ، فاغتر على السلطان وفرض على الدولة إقطاعاته من البلاد [١] التي استطاع أن يضع يده عليها إضافة إلى إتاوة فرضها على أهل البلاد ، فأثار عليه الناس ، وعندما قـدم إلى تـونس سنة ٧٠٥هـ دخل المسجد لصلاة الجمعة لابساً خفية وعندما استنكر الناس فعله قال لهم " أني أدخل مجلس السلطان بهما ، فكيف الجامع ، فاستعظم الناس تكبره وتطاوله على الدين وقتلوه " [٢] . فثأرت الكعوب محملة السلطان مسئولية قتله ، فلجئوا إلى محالفة الأمير أبي البقاء خالد [٣] صاحب الثغر الغربي من الدولة ، وحرضوه على غزو تونس والاستيلاء عليها ، وتم له ذلك سنة ٧١٠هـ وخشي الكعوب من غدر الأمير أبي البقاء فاستبدلوه بالأمير أبي يحي اللحياني [٤] ، والذي كان ألعوبة في يد الكعوب حيث أصبحوا هم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد وعندما عجز السلطان الحفصي ابن اللحياني وابنه أبو ضربة [٥] من الحد من سلطتهم فضلا الانسحاب تاركين أمر العرب

---

(4) أبو حفص عمر ابن يحي أبي بكر ، ابن أبي زكرياء ابن إسحاق إبراهيم ابن أبي زكرياء يحي بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، ولد يوم السبت الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ثلاثة وعشرين وسبعمائة، أمة أم ولد أسمها حباب ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٨٠ . الشماع : الأدلة البينة ، ص ٩١ .

(1) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٤١ ، ١٤٤.

(2) ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص٧٦ .

(3) أبو البقاء خالد بن المولى أبي زكرياء ابن أبي إسحاق بن أبي زكرياء ، كانت دولته عامين وثلاثة أشهر توفي بتونس سنة ٧١١هـ . ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٦٠ . الزركشي : تاريخ الدولتين ٦١.

(4) ابن اللحياني هو أبو يحي زكرياء ابن أبي العابس أحمد بن أبي عبد الله محمد اللحياني بن أبي عبد الواحد بن أبي حفص ولد سنة ٦٥١هـ وأمة رومية الأصل تسمى محرم ، توفي في مصر سنة ٧٢٨هـ . الزركشي، تاريخ الدولتين ، ص ٢٦٢ ، والشماع : الأدلة البينة ، ص ٨٥ .

(5) أبو ضربة هو : أبو عبد الله محمد بن أبي يحيي زكرياء بن أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله اللحياني ابن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، لقب بالمنتصر ،استمرت ولايته ثمانية أشهر أخرج بعدها من تونس بعد

للسلطان الجديد أبي يحي أبو بكر [٦] ، الذي قتل الكثير من زعمائهم ، محاولة منه لإرها م حتى يقلعوا عن تدخلهم المستمر في شئون الدولة ولم يزدهم هذا إلا استكباراً حيث لجأو إلى أعداء الحفصين بني عبد الواد ، الذين بدورهم استغلوا ثورات العرب ضد الحفصين لشغلهم ليتمكنوا من فرض سيطر م على تلمسان ومدها إلى بجاية ، فنصبوا الأمير أبا حفص إبراهيم الشهيد اللاجي إليهم لمنافسة أبي بكر بتونس ، فرد الأمير أبو بكر بمحالفة مع بني مرين ومصارهتهم أيضاً [1] فلجأ العرب إلى محاولة إيقاع خلاف بين المرينيين والحفصيين ، فطلبوا من السلطان المريني القدوم إلى تونس والاستيلاء عليها ، ووعدوه المناصرة ، ولكنه لم يستجب لطلبهم ، نظراً للصلات التي تربطه بالسلطان الحفصي أبي بكر ، فركن العرب إلى السلام المؤقت ، ولكن اغتيال رئيسهم حمزة بن عمر ، أشعل نار الثورة من جديد ، فا موا السلطان الحفصي بتدبير مؤامرة لقتل زعيمهم المذكور ، وحاصروا تونس وأرسلوا إلى ابن السلطان أبو العباس في قفصة لتحريضه على الثورة ضد أبيه إلا أن أبا العباس قتل رسولهم ورفض الاستجابة لهم ، ولم يستمر موقف أبو العباس من العرب على ما هو ، بعد وفاة أبيه سنة ٧٤٧هـ ويبدو أن السبب في تغير موقفه يرجع إلى أن أخاه أبا حفص عمر تملك على تونس وأعلن نفسه سلطاناً عليها ، فاستغل أبو العباس موقف أبا حفص عمر من العرب قتله للكثير منهم وحالفهم ودعاهم إلى نصرته ، لجأ العرب إلى السلطان المريني الذي قدم إلى تونس بعد فرار أبو حفص عمر ولحق به الكعوب وقتلوه سنة ٧٤٨هـ

هزيمته من جيش أبي يحيى أبي بكر سنة ٧١٨هـ ، الشماع : المصدر السابق ، ص ٨٦ . الزركشي ، المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(6) أبو بكر بن أبي زكرياء يحيي بن أبي إسحاق إبراهيم ابن أبي زكرياء يحيي ابن أبي محمد عبد الواحد أبي حفص ، ولد سنة ٦٩٢هـ وأمة رومية الأصل تسمى أملح الناس . توفي سنة ٧٤٧هـ ، وكانت ولايته تسعة وعشرين سنة وشهرين وثلاثة عشر يوماً . الزركشي : المصدر السابق ، ص ٦٦ ، والشماع : المصدر السابق ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(1) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٧٧ ، وأبو ضيف ، أثر القبائل العربية ، ص ١٢٨ .

وعندما أراد السلطان المريني أن يحد من سلطة العرب ثاروا ضده [٢] وأعلنوها حرباً لا هوادة فيها فاضطر السلطان المريني إلى الانسحاب من تونس ، فقلدوا السلطان أبا إسحاق إبراهيم الحفصي أمر تونس ولكنه منصب شكلي حيث استأثروا بالسلطة الفعلية حتى أ م أرغموا ابنه خالد الذي تولى من بعد أبيه الحكم أرغموه على مقاسمة بني حفص جبايات الأمصار ، وعندما أظهر الأمير خالد استياءه ، عزلوه واستبدلوه بالأمير أبو العباس سنة ٧٧٢هـ والذي عمل على تحسين علاقته بالعرب الكعوب ولكن هذا التحسن لم يستمر طويلاً حيث قام أبو العباس الحفصي بالقضاء على الاستقلال الذاتي لمدينة تونس والتي كانت تابعة للعرب فثار العرب ضده واستمرت هذه الثورة حتى عهد السلطان (أبو فارس) والذي كان أخواله من العرب المحاميد بطرابلس[١] فاستطاع دئة العرب وإلزامهم بالزكاة والعشر [٢] .

وفي عهد السلطان أبي عمرو عثمان سنة ٨٣٩ – ٨٩٣ هـ عاد العرب إلى إثارة الفتن حيث قاموا بحماية منافس السلطان الحفصي عثمان على العرش ويدعى الأمير أبي عبد الله محمد بن أحمد وأنزلوه بمخيما م ، ولكن السلطان استطاع إرها م وقتل الكثير منهم ، فأسلموا الأمير اللاجئ عندهم إلى السلطان الحفصي .

وهكذا نجد أن الصراع المستمر بين العرب والحفصيين كان له أثر في تدهور أوضاع الدولة الحفصية واستقلال ولايا ا عنها ، فقد استقلت عنها بعض البلاد في إقليم الجزائر الشرقية حتى استطاع الأتراك القضاء على الحفصيين ائياً [٣] .

---

(2) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٨١ ، مصطفي أبو ضيف : أثر القبائل ، ص ١٢٩ .

(1) المحاميد : هم بطن من بطون القبائل العربية المنتسبة إلى بني سليم وهم فرع من قبيلة دباب العربية وكانت مواطنهم بطرابلس . التجاني الرحلة ، ص ٨٥ – ٨٦ . الزركشي : المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(2) مصطفي أبو ضيف : المرجع السابق ، ص ١٣٠ ، ١٣١ . والزركشي : المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(3) أبو ضيف : المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، محمود السيد ، ص ٩١ .

المبحث الثاني : النظام الإداري :

النظام الإداري فيشوبه الغموض ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة التغيرات التي حدثت للدولة خلال هذه الفترة ، حتى أن بعض الشخصيات القيادية كان يجمع عدة وظائف إدارية هامة في يده [١] ، مثلاً وزير الفضل كان يجمع بين كتابة العلامة وكتابة الأنشاء والإشراف على مكتبة القصر ، وأيضاً الحاجب كان يقوم بدوره في وظيفة الحجابة ، إلى جانب وظيفة أخرى مثلما حدث في عهد الدعي ابن أبي عمارة الذي أضاف كتابة العلامة إلى الحاجب أبو القاسم بن الشيخ [٢]، وقد أدى ذلك إلى تضليل الباحث عن طبيعة النظام الإداري في هذه الدولة من حيث معرفة الوظيفة ومميزا ا ومهما ا والشروط الواجب توفرها في صاحب الوظيفة ، وعلى الرغم من هذا الغموض الذي ساد النظم الإدارية ، إلا أنه ومن خلال ما توفر أمامنا من مصادر استطعنا أن نتعرف على بعض الوظائف الموجودة في هذا العهد والتي منها :

مجلس مشيخة الموحدين :

وهم يمثلون كبار رجال الدولة ويكون منهم مجموعة العشرة والخمسين ويتفرع منهم مجموعة الثلاثة الذين يطلق عليهم أشياخ الرأي أو أشياخ البساط وأهل المشورة لأن السلطان يجلس على البساط والأشياخ من حوله يتشاورون ، وكانوا يتمتعون بسلطة ورأي حاسم [٣] على عكس ما ذكره برنشفيك الذي جردهم من أي نفوذ حيث قال : " فيما لا شك فيه أنه لم يكن يتمتع بأية سلطة خاصة – يقصد مجلس المشيخة – نظراً لتصرف السلطان تصرفاً مطلقاً في طريقة انتداب أعضائه ونظراً من

---

(1) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ٢ ، ص ٦٠ .

(2) الشماع : الأدلة النورانية ، ص ٤٢ .

(3) الصلابي : صفحات من التاريخ الإسلامي ، جـ٥ / ٢٣٠ ، برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ٢ / 52 .

جهة أخرى لانعقاده دوماً وابداً بمحضر الأمير وإشرافه فقد كان المجلس محروماً من حق الاقتراح واتخاذ القرارات "[1] .

وقد دلت الأحداث على أهمية أهل المشورة وأن لهم رأياً نافذاً وكلمة مسموعة ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فمثلاً عندمـا أراد الأمير أبي حفص عمر بن أبي زكريا تولية أبناء أبي محمد عبد الله ولاية العهد ، عارضة الموحدون لصغر سن المتولي فالتجأ أبو حفص عمر إلى استخدام النفوذ الروحي للصوفي الشيخ المرجاني الذي رأي توليه محمد أبو عصيدة ابن الواثق الذي ولد في زاويته فأيده الأمير الحفصي فعقد مجلس الشورى مرة أخرى لمعرفة رأي مشيخة الموحدين الذين وافقوا على تولية أبي عصيدة سنة ٦٩٢هـ ، وعندما انقسمت المملكة الحفصية إلى شرقية وغربية أجتمع الموحدون في مؤتمر وأصلحوا بين أمير الثغور الغربية (قسنطينة) الأمير خالد بن أبي زكريا وأمير الثغور الشرقية (تونس) الأمير أبي عصيدة فاتفقوا على أن من مات من الأميرين قبل الأخر تضم مملكته للباقي منهم [٢] ، ولعب مجلس الشورى دوراً أخر في ترشيح أميراً أخر على تونس ، حيث اجتمعوا على تولية أبي يحيى أبي بكر ، منحياً بذلك الأمير أبو البقاء خالد الذي كان يمني نفسه بالملك بعد وفاة السلطان أبو عصيدة ، وبناءٍ على اتفاقية الصلح التي تمت بينهما [٣] .

ويبدو أن الأمير أبو زكريا الأول شعر بقوة نفوذهم ، فأراد التقليل منه عن طريق إدخال عناصر أخرى مثل الأندلسين ابن أبي الحسين ، وابن الحبير الأندلسي ، وغيرهم إلا أنه لم يقل تأثيرهم إلا في عهد الواثق ، فقد تضاءل دورهم العسكري

---

(1) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(2) العامري : تاريخ المغرب في سبعة قرون ، ص ٢١ .

(3) المرجع السابق نفسه ، جـ٢ ، ص ٥٢ .

بالفعل ، فتم إلحاق جنود نصارى يرافقون السلطان ، وهذا ما أشار إليه العمري [1] عندما قال : " كان يمشي حول السلطان جماعة من أكابر دولته مثل الثلاثة أصحاب الرأي والعشرة الذين يلو م يجري هذا ا ـرى من أعيان الجند وتسمى هذه الجماعة إيربان " [2] .

وعلى الرغم من هذه المحاولات إلا أن شيوخ الموحدين احتفظوا بمكانة مرموقة فكان منهم شيخ الموحدين أو المزوار [٣] كما كان يطلق عليه وهو أحد شيوخ الموحدين وينتمي إلى إحدى القبائل البربرية مثل هرغة وهنتاتة أو غيرها من القبائل وكان لكل قبيلة أمزوار يتفقد أحوالها ثم تكون رئاسة هؤلاء المشائخ للقبائل البربرية في شيخ واحد يطلق عليه الشيخ المعظم أو وزير الرأي [٤] عند السلطان .

وكان هناك فرع من الموحدين أقل رتبة من كبار الموحدين يعرفون " بالوقافين" وهم صغار الأشياخ [5] .

---

(1) مسالك الأبصار ، ص ١٠ ، ١١٤ .

(2) كلمة إيـربان جمعاً للكلمة البربرية (Arba) وتعني الصبي أو الفتى . برانشفيك : المرجع السابق ، جـ ٥١/٢ .

(3) المزوار أو أمزوار كلمة بربرية معناها الابن البكر ، ثم استعملت في معاني كثيرة مثل كبير القبيلة ، وصاحب السلطان ورئيس الجند ونقيب الأشراف ومؤقت المؤذنين ، ومعناه أيضاً الذي يتقدم الناس فيكون صاحب المركز الأول . العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٨٢ . برنشفيك ، تاريخ إفريقية ، جـ ٢ / ٤٨ .

(4) العمري : المسالك ، ص ١٤ ، ١٠٧ ، والقلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٥ / ١٣٩ .

(5) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢/ ٤٩ .

وزير الجند :

وكان يطلق على شيخ الموحدين طوال العهد الحفصي حيث كان يمثل الوزير الأكبر في الدولة وقد حدد ابن خلدون بعض مهامة فقال " وله النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب " [١] وله أيضاً الإنابة عن السلطان عندما يبعد عن العاصمة فيكون نائبه أثناء غيابه ويجلس بين يديه في مجالسة مع أشياخ الرأي والمشورة فكان وزير الجند الرجل الثاني في الدولة بعد السلطان ، فعندما يعقد السلطان مجلسة المعتادة كان وزير الجند أول الداخلين عليه [٢] ، لذا أشترط فيه أن يكون من الموحدين فكل من تولى هذا المنصب من الموحدين فالشيخ أبو سعيد عثمان بن محمد الهنتاتي المعروف بالعود الرطب المتوفي سنة ٦٧٣هـ وعائلة بني أبي هلال الهنتاتية في عهد الخليفة المستنصر [٣] .

ومنهم شيخ الدولة محمد المزدوري الذي أخذ البيعة للسلطان الحفصي أبي يحي زكريا المعروف باللحياني [4] .

والجدير بالملاحظة أن الوزارة في العهد الحفصي انحصرت في ثلاثة وزراء ، وزير الجند السابق الذكر ووزير الأشغال ، ووزير الفضل .

أما وزير الأشغال فهو " المختص بالحسبان ، ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحساب ، ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط " [5] .

---

(1) المقدمة : ص ٢٤١.

(2) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٥٥ .

(3) العبادي : دراسات من تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٨٣ .

(4) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(5) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٤١ .

ويرى ابن خلدون [١] والزركشي[٢] أن الموحدين اشترطوا أن يكون صاحب الأشغال منهم ، ولكن هذا الشرط لم يطبق إلا في عهد أبي زكرياء الأول ، فمنذ عهد أبنه المستنصر أصبح يتولى هذا المنصب من يتقنه حتى ولو كان من خارج طبقة الموحدين [٣] ، ولعل ذلك يعود إلى الرخاء الاقتصادي الذي عم أرجاء البلاد حيث اتسعت أراضي المملكة الحفصية وكثر خراجها [٤] مما أوجب زيادة الدواوين الخاصة ا فظهرت وزارة العمود [٥] وهي خاصة بالجباية من الأرياف والبدو ، فلما كان الأندلسيون اكثر حضارة وخبرة من الموحدين رأي المستنصر الاستعانة م وبذلك أزال الشرط الذي فرضه مشيخة الموحدين فأسند هذا المنصب إلى أبي عثمان سعيد بن أبي الحسين المنتمي إلى أسرة بني سعيد أصحاب قلعة يـحصب الأندلسية بجوار غرناطة ، ثم إلى أبي بكر محمد بن خلدون جد (المؤرخ ابن خلدون) على عهد السلطان أبي إسحاق ابن الواثق ، وشارك الأندلسيين في هذا المنصب الموالي أيضاً عندما ولى الواثق العلج (مدافع) (وزارة الأشغال) في بجاية ، مما يشعرنا بتدهور هذا المنصب على الرغم من حساسيته وأهميته ، وكان المتولي لوزارة الأشغال دائماً عرضة للمسألة التي قد تصل إلى القتل أو السجن والتعذيب ومصـادرة الأموال ، فاللياني قتله المستنصر سنة ٦٥٩هـ بعد أن شك في نواياه ، وكذلك سعيد بن أبي الحسين قتله الواثق سنة ٦٧٦هـ وصادر أمواله ، وأبو بكر محمد بن خلدون قتله مغتصب العرش ابن أبي عمارة سنة ٦٨٢هـ [٦] .

---

(1) المقدمة : ٢٤١ .

(2) تاريخ الدولتين ، ص ٢٢ ، ٢٩ .

(3) الزركشي : المصدر السابق ، ص ٣١ ، ٥٦ .

(4) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ٢ / ص ٥٧ .

(5) العامري : تاريخ المغرب ، ص ٢١ .

(6) المرجع السابق ، ص ١٨٧ ، الصلابي ، صفحات من التاريخ الإسلامي ، جـ٥ / ٢٢٩ .

وهكذا أخذ هذا المنصب في التدهور حتى عهد السلطان أبي فارس بعد العزيز فلم يعد صاحب الأشغال الرئيس الأعلى للإدارة المالية بل أصبح يحتل مرتبة ثانوية حيث أصبح بمثابة أمين الخزينة [1] .

أما أخر المناصب الوزارية فهو وزير الفضل أو كاتب السر وهو المختص بديوان الإنشاء الذي يتولى المكاتبات والأوامر السلطانية وتحرير الوثائق العمومية والتصديق عليها ، ويشترط لصاحب هذا المنصب أن يحسن الإنشاء ويجيد الترسيل باللغة العربية الفصحى ، وأن يؤتمن على كتمان الأسرار ولهذا سمي بكاتب السر [2] ولم يشترط الحفصيون أن يكون من الموحدين وعلل ابن خلدون ذلك بقوله " بأن الكتابة والترسيل لم تكن من منتحل القول بسبب رطانة ألسنتهم ، وما يغلب عليهم من العجمة وتخلف الملكة " [3] وهذا ما يبرر شغل عدد كبير من الأندلسيين لهذا المنصب لإجاد م فن الكتابة والترسيل ويطلق على وزير الفضل صاحب العلامة والإنشاء وكان أحمد الغساني الأندلسي يجمع بين الخطتين في عهد أبي زكرياء الأول وقد فكر الأمير أبو زكريا في تقسيم هذه الخطة ولكن هذه الفكرة لم تنفذ إلا في عهد المستنصر الذي ا تخذ موظفين مختلفين كلف الأول بكتابة العلامة والثاني بالإنشاء ، وفي عهد المستنصر أيضاً تم تقسيم العلامة إلى كبرى وصغرى كما أشار عليه شيخ الموحدين المعروف بالعود الرطب [4] لأنه رأي أن الأوامر السلطانية قد تنفذ بأمور صغيرة لا ينبغي الكتب بمثلها عند الخليفة ، وكأنه أرد بذلك تميز الكتب السلطانية عن غيرها

---

(1) برانشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ / ٥٨ . ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٧٩ .

(2) العبادي : المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(3) المقدمة ، ص ٢٤١.

(4) العمري : المسالك ، ص ١٨ ، ٢٢١.الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٢٦ .

فالوثائق الهامة الصادرة عن السلطان مباشرة توضع عليها العلامة الكبرى ، أما الوثائق الصادرة باسم وزير الجند توضع عليها العلامة الصغرى .

وأسندت العلامة الكبرى إلى بعض كبار الموظفين الذين جمعوا بين خططهم الأصلية وكتابة العلامة ومنهم ابن أبي سعيد ومحمد بن إبراهيم التجاني ، وفي أوائل القرن الرابع عشر وبالتحديد في عهد ابن اللحياني تم الجمع بين كتابة العلامة الكبرى والصغرى لموظف واحد ، حتى عهد الأميرين أبي فارس وعثمان حيث تم الفصل من جديد بين العلامتين [١] .

(1) الزركشي : المصدر السابق ، ص ٣٠ ، ٥٠ . وبرنشفيك المرجع السابق ، جـ ٢ / ٦٣.

وهذه بعض النماذج للصياغة التي تكتب بها العلامة :

ففي عهد الأمير أبي زكريا كانت تكتب " من الأمير أبي زكريا بن محمد بن الشيخ أبي حفص " [١] وفي عهد أبنه المستنصر قبل أن يلقب بالخلافة " من الأمير محمد بن الأمير أبي زكريا بن محمد أبي الشيخ أبي حفص " [٢] .

أما بعد التسمية بالخلافة سنة ٦٤٨هـ فقد احتوت العلامة الحفصية على عدة ألقاب مثل قدوة الموحدين ، ناصر الغزاة وا اهدين ، المتوكل على الله ، أحمد بن مولانا الأمير أبي عبد الله بن مولانا أمير المؤمنين أبي يحي من الأمراء الراشدين " [٣] .

وقد احتفظ الحفصيون ذه الصيغة للعلامة الكبرى حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر وكانت تعوض هذه الصيغة ببعض الحكم الدينية مثل " ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " أما العلامة الصغرى فتوضع في أخر النص للتأكيد على صحته وصفتها " توكلت على الله وهو حسبي " [٤] .

الحجابة :

مـن الواضح أن الحفصيين عرفوا الحجابة [٥] منذ نشأت دولتهم ، ولـكن استخدام الحاجب كـان مقصوراً على إدارة القصر السلطاني فهو وكما وصفه ابن

---

(1) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١٢٣ .

(2) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(3) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٣٧٨/٧ ، ٣٨٠.

(4) برانشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ / ٦٣.

(5) الحجابة : الحاجب هو الذي يتولى الإذن للناس في الدخول على السلطان ولم يتخذ الخلفاء الراشدون حاجباً لعدم حاجتهم إليه ، ويرجع ظهور الحاجب إلى عهد معاوية بن سفيان على أثر حادثة الخوارج التي قتل فيها علي بن أبي طالب ، وكان الحاجب واسطة بين الرعية وبين السلطان أو الخليفة واستمر حتى في عهد العباسين حيث شهد ظهور حاجبان الأول يعرف بحاجب الخاصة والثاني بحاجب العامة وكانت الحجابة في العهد الأموي بالأندلس تحتل منصب رفيع حتى أن الحاجب المنصور بن أبي عامر وأبناؤه ظلوا مستبدين ا ولما بدأو في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم ملوك الطوائف فلم يتركوها وكانوا يعدو ا شرفاً لهم ، ولم تعرف إفريقية الحجابة إلا في زمن الحفصيين ويرجع ظهورها في إفريقية بسبب الهجرة

خلدون " بمثابة قهرمان خاص بداره ينظر في أحواله ويجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والأصطبلات وغيرها وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوا غيره " [١] .

وفي عهد المستنصر بدأت تظهر الملامح الحقيقية لمهمة الحاجب حيث أضاف المستنصر إلى حاجبه أبي القاسم الشيخ مهمة استقبال الرعية وإدخالهم عليه [٢] بسبب اتساع دولة الحفصيين وكثرة المرتزقين فيها [٣] ، وفي عهد الداعي ابن أبي عمارة أضاف كتابة العلامة إلى الحاجب ابن الشيخ وقربة منه ، وفي عهد السلطان أبي حفص زادت مكانة الحاجب عندما قرب الحاجب ابن الشيخ وقال " حاجتنا إليه أكثر من حاجته إلينا " [٤] .

وبعد وفاة ابن الشيخ تداول خطة الحجابة عدد من الأندلسيين الذين تمتعوا بنفوذ كبير في الدولة ، وفي عهد السلطان أبي بكر بلغت الحجابة شأناً عظيماً حتى أنه عامل حاجبة معاملة الوزير الأكبر ، ويرى برنشفيك رأياً راجحاً لذلك " أن الحاجب المحلي في كل من بجاية وقسنطينة ، حيث تقلد أبو بكر الحكم في أول الأمر كان يعتبر

الأندلسية التي نقلت معها الحضارة الأموية الأندلسية إلى المغرب . أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(1) المقدمة ، ص ٢٤٢/٢٤١ .

(2) الصلابي : صفحات من التاريخ الإسلامي ، جـ ٥ / ٢٣٦ .

(3) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ / ٥٧ .

(4) الشماع : الأدلة البينة ، ص ٤٢ .

ردیف الأمیر الوالي ومساعدة المباشر ، فقد عمد ذلك السلطان حینئذ إلى نقل تلك العادة التي كان قد استعملها هو نفسه في مملكته الغربیة " [٥] .

وقـد ترتب على الرفع من شأن هذه الخطة زیادة نفوذ الحاجب حتى أن ابن غمر[١] حاجب أبو بكر استقل ببجایة ومنع رسول أبي بكر من دخولها ، عندما حدث النزاع بین السلطان أبي بكر صاحب قسنطینة وأخیه أبو البقاء صاحب تونس ، ولعب هذا الحاجب دور كبیر في مساعدة السلطان الحفصي أبو بكر وإمساكه بزمام الأمور في تونس عندما أرسله السلطان إلى طرابلس حیث یقیم ابن اللحیاني والذي كان مستقلاً بطرابلس وزین له غزو تونس وانطلت حیلة الحاجب ابن غمر على اللحیاني وقدم تونس واستولى علیها سنة ٧١١هـ وقتل ابن عمه أبو البقاء ثم ما لبث ابن غمر أن حرض أبو بكر الحفصي صاحب قسنطینة على محاربة اللحیاني ، فخرج بجیش كبیر لمقاتلة ابن عمه بینما استبد الحاجب بولایة بجایة [٢] حتى بعد أن استطاع السلطان أبو بكر من القضاء على ابن اللحیاني وابنه محمد أبو ضربة وتوحید المملكة

---

(5) تاریخ إفریقیة في العهد الحفصي ، جـ٢ / ٥٥ .

(1) هو أبي عبد الرحمن یعقوب ابن أبي بكر بن عمر السلمي – ینحدر من أسرة أندلسیة كان أبوة قد ولى الدیوان بالقلّ ، وارتقى هو نفسه إلى ولایة الأشغال (المالیة) في عهد أبي زكریاء بن أبي إسحاق إلى أن تسببت غیره الحاجب ابن أبي جبي في نفیه وبعد رجوعه من المنفى في عهد أبي البقاء الحفصي سعى إلى الانتقام من خصمه السابق واستطاع أن یتولى الحجابة بدلاً من خصمة ابن أبي جبي ، فكان له تأثیر كبیر على السلطان الحفصي ، وكان یخضع له جمیع موظفین الدولة . ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٤٦٣. برانشفیك ، المرجع السابق نفسه ، جـ١ / ١٤٦ .

(2) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ / ٤٧٣، ابن القنفذ ، الفارسیة ، ١٥٦ .

الحفصية إلا أن ابن غمر ظل مستبداً ببجاية واكتفي بذكر اسم السلطان الحفصي في خطبة الجمعة وضرب أسمه على السكة [٣] .

وزادت مكانة الحجابة عند الحفصيين حتى بلغت أوج عـزها في عهد الحاجب ابن تافراجين الذي استبد بكل من السلطان أبو حفص عمر الثاني بن أبي بكر سنة ٧٤٧هـ - ٧٥٠هـ والسلطان أبي إسحاق إبراهيم الثالث ٧١٥هـ - ٧٧٠هـ فأصبح هو المسيطر على الحكم حتى سلم الناس عليه سلامهم على الملوك وزوج ابنته من السلطان أبي إسحاق بصداق بلغ ١٢ ألف دينار و ٣٠ خادماً ، وبذلك ارتفعت مكانة الحجابة لتحتل المكانة الأولى في الدولة [١] ، واستمرت هذه الخطة في مكانتها المرموقة حتى عهد السلطان أبي العباس أحمد الثاني ٧٧٢هـ ٠ ٧٩٦هـ والذي باشر الحكم بنفسه وقضى على هذه الخطة [٢] حتى أصبحت مهمة الحاجب قاصرة على الإشراف على فـرش قاعة السلطان بالأبسطة والوسائد أي مثل مدير التشريفات [٣] .

ونتج عن اختفاء الحاجب ظهور نظام جديد تمثل في خطة (المنفذ) الذي يشبه نائب الملك وارتفعت مكانته في عهد السلطان أبي العباس حيث تمتع بنفوذ كامل على الإدارة المالية وتولى هذه الخطة الفقية محمد بن قليل الهم واستطاع أفراد هذه العائلة الاحتفاظ ـذه المهمة طـوال نصف قـرن ، وشهد عصر السلطان أبي عمرو عثمان

---

(3) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٦٥ .

(1) العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٩٥ . مقديش ، نزهة الأنظار ، جـ ٥٨١/١.

(2) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٤١، ٢٤٢.

(3) برانشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ / ٥٦ ، ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ ٢ ، ص ٧٩ .

ارتفـاع شـأن المنفذ فأصبحت صلاحياته تتجاوز الإدارة المالية بل أحتل المرتبة الأولى [٤] في الدولة بعد اختفاء شيخ الموحدين والحاجب وهو كنائب الملك في حكم المملكة .

(4) ليون : المصدر السابق نفسه ، جـ ٢ / ٥٨ .

المبحث الثالث : النظام الحربي :

النظام الحربي فكان له وزارة خاصة به تتمثل في وزير الجند الرجل الثاني في الدولة بعد السلطان وكان الجيش ينقسم إلى برى وبحري فالجيش البري ينقسم إلى قسمين ، جيش ملكي خاص يتولى حراسة السلطان ويتألف من فرقة الفرسان معظمهم مسيحيون وفرقة المشاة الذين يتكونون من سكان العاصمة ومن مهاجري الأندلس ومن الأتراك ويسمون بالمرتزقة ، وكان لهم حظوة في البلاط الحفصي ويعرفون بعبيد المخزن .

وجيش نظامي حربي يتكون أيضاً من مشاة وفرسان من الحفصيين والموحدين ومن البربر وكانوا يجندون عن طريق قبائلهم [١] البربرية أمثال صنهاجة ومغراوة وهوارة وسدويكش وزناتة وغيرهم .

وكان تطوعهم مقابل إعفائهم من بعض الضرائب أو مقابل أجور معينة ، أو مساهمة منهم في حفظ أمن البلاد ولاءً منهم للدولة ، وكان للقبائل العربية دور كبير أيضاً في الجيش الحفصي فقد كـان الجيش يضم قبائل الكعوب والزواودة وبني حكيم وغيرهم [٢] ، ونرى أن الحفصيين اعتمدوا على القبائل البربرية والعربية في جيشهم الخارجي بينما اقتصروا داخلياً على المـرتزقة ، ولعلهم كانوا يخشون من انقلاب هؤلاء الـمرتزقة ضدهم ففضلوا بقائهم تحت رقابة السلطان ووزراءه من مشيخة الموحدين .

---

(1) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٣٨ . ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٨٠.

(2) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ٢ / ٧٦ ، ٧٧ .

واستخدم الجيش الحفصي أسلحة متنوعة مثل السيوف والخناجر والرماح والنبال والصفائح والدبابيس واستعملوا المنجنيق وأشار مقديش [١] في حديثه عن الدولة الحفصية " أنه في سنة ست وستين وسبعمائة كان ابتداء عمل البارود " [٢] فكان يشير بهذا التاريخ إلى بداية ظهور البارود في إفريقية ، واستخدم الحفصيون البارود في عهد السلطان أبي فارس ضد الحملة الصليبية البلنسية التي استهدفت ثغر عنابة الحفصي واستطاع الجيش الحفصي بفضل المدافع المجهزة التي جعلت فوق أسوار المدينة ، مع استعمال اشتعال البارود لدفع القذائف [٣] ، بل أن إفريقية كانت تصنع البارود وتزود المسلمين في الأندلس به ، فقد ذكر برنشفيك نقلاً عن أدرون " أن مملوكاً مسيحياً ، صناعته السباكة ، كان يشرف على صنع المدافع على عين المكان ، وكان السلطان لا يرضى عن التخلي عنه ، ولو مقابل مبالغ طائلة من المال ، وحسب وثيقة بندقية يرجع تاريخها إلى سنة ١٥١٠م كان هناك يهودي مرتد من ألمانيا يتولى صنع المدفعية التابعة لملك تونس " [٤] .

---

(1) نزهة الأنظار ، جـ ١/ ٥٨٣ .

(2) وكان استخدام البارود يعود إلى راهب الماني يشتغل بالكيمياء ، وكان اكتشافه للبارود بالصدفة عندما أراد تقطير ملح البارود والكبريت بالقرعة والأنبيق وكان يدق ذلك في مهراس ، فوقعت فيه شرارة فقام النار في الحال واشتعل بقوة ودفع ، فأعجبه ذلك لأنه رأي شيئاً لم يره من قبل ، فجرب ذلك بأن جعل التركيب في موضع مسدود عليه بالقهر وعمل كبوساً ومكحلة ثم مكحلة كبيرة ثم مدفعاً ، وهكذا كانت بداية صناعة البارود ، مقديش ، نزهة الأنظار ، جـ ٥٨٣/١ .

(3) برنشفيك : المرجع السابق نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ .

(4) برنشفيك : المرجع السابق نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٨٣ .

هذا بالنسبة للأسلحة ولكن هل كانت إفريقية دولة ذات تحصينات حربية ، وما مدى هذه التحصينات ؟

لم يبد الحفصيون اهتماماً كبيراً بإنشاء الحصون والأسوار ، فلم تذكر المصادر إنشاء أسوار لمدينة تونس إلا في عهد الأمير أبي ضربة سنة ٧١٧هـ عندما دعا إلى إقامة جدران قوية تكون بمثابة تحصينات [١] إضافية تحيط بأسوار المدينة وقبل أن تكتمل هذه التحصينات هاجمت جيوش أبي بكر تونس ، فتوقفت هذه التحصينات حتى عهد السيطرة المرينية حيث بادر السلطان المريني أبو الحسن إلى إعادة بناء الأسوار وإحاطة المدينة بخندق [٢] وأشار ابن خلدون لهذه التحصينات فقال " وأقام لها أبو الحسن من الأمتناع والتحصين رسماً ثبت لها من بعده ودفع به نحو عدوة " [٣] .

وعندما سيطر الحاجب ابن تافراكين على تونس تولى تدعيم أسوار الأرباض وصيانة المنشآت الحربية [٤] وتحدث برنشفيك نقلاً عن ادرون عن تحصينات مدينة تونس فقال " وهي (أي المدينة الوسطى) شديدة التحصين ، لها ستة أبواب وعدة أبـراج تساند الأسـوار وشكلها مربع يبلغ محيطة أربعة أميال ولها أرباض شاسعة تمتد خـارج الأبواب ، بحيث يبلغ محيط كل المدينة مع أرباضها المتصلة بها اثنا عشر ميلاً " [٥] .

---

(1) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ١٠١ .
(2) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .
(3) العبر ، جـ٧ ، ٥٧٤ .
(4) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص١٠٥ .
(5) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ٢ / ٨٧ .

ويبدوا أن مدينة تونس كانت محصنة تحصينات بسيطة تمثلت في خندق قديم بنهج الحفير إلى حدود القنطرة ولها أسوار تحيط بالأرباض ، وهذا ما يؤكده عدة الأبــواب الموجودة في المدينة مثل باب الخضراء [١] ، وباب الفــلاق [٢] ، وباب عليوه [٣] ، وبــاب القرجاني [٤] ، وباب سيدي قاسم الزليجي [٥] ، وبــاب الأقواس [٦] .

أما الجهة الغربية من المدينة فكانت القصبة تمثل خط دفاعي [٧] قوي وكانت هذه المدينة المصغرة قادرة على الأنعزال والعيش بوسائلها الخاصة مدة من الزمن [٨] .

البحرية الحفصية :

---

(1) باب الخضراء : يقع في الجانب خارج المدينة ، وهو خارج البساتين التي تحيط بالمدينة إلى ما وراء البلفيدير وتسمى هذه المنطقة بالخضراء وسميت تونس بالخضراء لأجلها ، والباب أصلة من إنشاء الحفصيين في القرن السابع أو الثامن وتم تطويره في عهد حمود باشا الحسيني وهو موجود إلى الآن . سليمان زبيس : حول مدينة تونس ، ص ٢٦/٢٥ .

(2) باب الفلاق يقع في الجنوب (وخارجه فيسارية) . (دائرة المعارف ، جـ٦ ، مادة تونس ، محمد الخضر حسين) .

(3) يقع في الجنوب الشرقي ويسمى علاوة أيضاً . دائرة المعارف ، جـ٦ ، مادة تونس .

(4) أو باب الجرجاني في الجنوب . دائرة المعارف ، جـ٦ ، مادة تونس .

(5) قاسم الزليجي : أبو الفضل قاسم بن أحمد الصرفي الفاسي نسبه إلى صناعة الزليج ، توفي سنة ٩٠٢هـ ودفن بزاويته التي تقع في العاصمة . ابن أبي دينار ،المؤنس ، ص ١٣٥ .

(6) ويقع في الغرب ويسمى باب العلوج أيضاً . دائرة المعارف ، جـ٦ ، مادة تونس .

(7) الدولاتلي ، مدينة تونس ، ص ١١١ .

(8) الدولاتلي : المرجع السابق ، ص ١١٥ .

اهتم الحفصيون عناية بالبحرية فإنشأوا أساطيل بحرية ، ودارا لصناعة السفن [٩] وبنو العديد من المحارس ونخص بالذكر هنا السلطان أبي فارس الذي انشأ عدة محارس منها آدار ، والحمامات وأبي الجعد ورفراف وغيرها [10] .

وكـانت هناك أيضاً أبراجاً للمراقبة وجهاز للإشارات عن طريق إنارة المرتفعات [١] ، حتى يتنبه الجيش إلى أي هجوم مباغت من العدو ، أيضاً كانت هناك دوريات للشرطة البحرية تتواجد دائماً قريباً من السواحل ، وكان للبحرية ديوان خاص ا يطلق على رئيسة قائد البحر أو قائد الأسطول ومن الذين تولوا هذا المنصب الراهب [٢] الذي أسلم زمن السلطان أبي فارس وكان يقوم بالترجمة [٣] لكل ما يصل الحفصيين من قبل الأوربيين لذا أطلق عليه الترجمان .

وتعددت استعمالات الأسطول البحري فتارة لصد الغارات والإغارة على الأراضي النصرانية مثل مالطة وغودش والسواحل الإيطالية [٤] ، واستعمل الأسطول أيضاً لمساعدة المسلمين وإمدادهم .

---

(9) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ٤١٢ .

(10) السراج : الحلل السندسية ، جـ٢ ، ص ١٨٨ .

(1) ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص ٨٦٧ .

(2) هو عبد الله بن عبد الله الترجمان ، وكان يدعى قبل إسلامه (انسلم تورميدا) وهو من جزيرة ميورقة ، كان قسيساً ، قدم إلى تونس في عهد السلطان أبي العباس الحفصي ، وكان مجيداً للغة العربية فتمكن من الإطلاع على الكتب الإسلامية ، ودخل في الإسلام وزوجه السلطان أبي العباس من ابنة الشيخ محمد الصفّار فأنجب ولداً وسماه محمد ، وبعد إسلامه عكف على تأليف كتاب يرد فيه على دين النصرانية ويثبت فضل الدين الإسلامي ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسماه " تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب " . الترجمان : تحفة الأريب ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(3) المرجع السابق نفسه ، ص ٧٧ .

(4) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ٢ ، ص ٩٥ .

ففي عهد السلطان أبي بكر الحفصي أرسل عمارة بحرية مكونة من ست عشر سفينة تحت إشراف قائد البحر في بجاية وذلك لمساعدة المرينين في كفاحهم ضد النصارى الأسبان ، وقبله الأمير أبو زكريا الذي أرسل أسطولاً محملاً بالمواد الغذائية إلى الأندلس ، وأحياناً يكونه أسطولاً للمتاجرة مع الدول الأوربية [٥] .

ولم تستطع المملكة الحفصية تكوين أسطول بحري قوي يستطيع مواجهة العدوان النصراني ، ففي عهد المستنصر وأبي العباس وأبي فارس وهم أعظم سلاطين بني حفص استطاع الفرنسيون والجنويون والقطلونيون النـزول في السواحل الإفريقية [١] ولم تذكر المصادر [٢] التاريخية موقعة ناجحة للأسطول الحفصي غير تلك التي حدثت زمن السلطان أبي فارس حيث يصفها لنا الزركشي [٣] فيقول " أن المولى أبا فارس نادى في المسلمين وجمع القواد ومن حضرهم من الجند وكرر راجعاً تجاه العدو حتى أخذ المحلة من أيديهم ، فحميت العرب ، وانصرف العدو منهزماً وقتل منهم نحو خمسة وسبعين رأساً ، وواجه العدو بنفسه ،ودفع صدورهم دفعة شتت بها شملهم فلم يلتفت إلا والعدو قد أحاط به من كل جهة وعلم العدو أنه ابن الخليفة – ومن عادتهم في الحرب أنهم إذا أخذوا ملكاً أو ابن ملك فإنهم لا ينزلونه عن فرسه – فأخذوا بعنان فرسه ، وساروا به فألهمه الله فأخلع عنان فرسه من رأسه وألح على الفرس وهمزة

---

(5) المرجع السابق نفسه ، جـ٢ ، ص ٩٥ .

(1) الميرالاي إسماعيل سرهنك : تاريخ دول المغرب ، ص ٢٠٣ .

(2) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٥٧٨ . والزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ١١٣ . وابن الشماع ، الأدلة البينة ، ص ١١٧/١١٦ .

(3) الزركشي : المصدر السابق ، ص ١١٣ .

فخرج من بينهم فرموه بسهام وأسنة واتبعوه بخيل وأعنة وهو لا يلتفت إلى أن وصل المسلمين وسلمه الله عز وجل " .

وأكد ابن خلدون ضعف الأسطول الحفصي مقارنة بقوة الأساطيل النصرانية وأرجع ذلك إلى ضعف المسلمين وعدم معرفتهم بالبحر وفنونه فقال " ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر " [٤] .

بعض الأنظمة الإدارية :

وكان لدى الحفصيين أنظمة أخرى متعددة يقوم ا موظفون مكلفين بأداء مهما م مثل :

صاحب الرفاعات : وهو الذي يتولى إبلاغ الظلامات والشكايات إلى السلطان وإيصال قصصهم إليه والخروج بالجواب من عنده [١] .

صاحب العلامات : المتولي لأمور الإعلام ودق الطبل عند ركوب السلطان في المناسبات الرسمية .

الحافظ : وهو صاحب الشرطة حيث يقوم بحماية البلاد داخلياً .

صاحب الطعام : وهو المسئول عن تحضير طعام الجنود ومراقبة كبير الطباخين ومحاسبتهم على التقصير في عملهم .

محركو الساقة : وهم أناس يحملون العصي لترتيب الناس في المواكب ، ويتخذون عادة للمباهاة .

المحتسب [٢] : وهو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وكثيراً ما يتواجد في الأسواق والأماكن العامة [٣] .

---

(4) المقدمة ، ص ٢٥٦ .

(1) الصلابي : صفحات من التاريخ الإسلامي ، جـ ٥ ، ص٢٣٠ .

(2) الحسبة : جاءت لفظه الحسبة من تحسب الأخبار إي تجسسها أو تحسسها وبطلبها تحسباً ، وهي من الناحية الفقهية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمشرف عليها يسمى المحتسب ،وكانت السحبة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد مارسها بنفسه وتبعه الخلفاء الراشدون ثم صارت ولاية من

وهكذا نرى أن النظام الإداري يسيطر عليه ثلاث تنظيمات رئيسية أرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب المال ، ويهيمن عليهم جميعاً السلطة المركزية المتمثلة في السلطان الحفصي ، حيث يجتمع م جميعاً في مكان يعرف (بالمدرسة) ليحاسب كل مسئول عن مسئوليته ويوقع عقابه على المقصرين منهم [٤] .

المبحث الرابع : النظام القضائي :

من بين الأنظمة التي شملها الحفصيون بالاهتمام والرعاية كان النظام القضائي فعندما تطبق أحكام الشريعة الإسلامية يأمن الناس على أنفسهم وممتلكا م ولقد شعر سلاطين الدولة الحفصية منذ نشأت دولتهم بأهمية القضاء فكانوا يحملون أنفسهم العناء الشديد من أجل الوصول إلى قاضي كفئ يستطيع تحمل مسئولية هذه الخطة وأعبائها ، فالخليفة المستنصر أبدا ارتياحاً شديد عندما وجد ضالته في قاضي كابن الغماز [١] فأعلن براءة ذمته من هذه الخطة وتحمل ابن الغماز لها في مقولته الشهيرة " ما يسألني الله عن أمور الأمة بعد أن قدمت عليهم ابن الغماز " [٢] .

الولايات الدينية ومن واجبات المحتسب إقامة الشعائر الدينية والنظر في أرباب البهائم ومراقبة الموازين والمكاييل ، والنظر في الآداب العامة وغيرها . توفيق اليوزبكي ، دراسات في النظم العربية والإسلامية ، ص ١٥٨ ، ١٩٥ .

(3) الصلابي ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ . أحمد عامر ، الدولة الحفصية ، ص ١٢ . برانشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ٢ ، ص٨٨ .

(4) العمري : المسالك ، ص ٢٤ .

(1) أبو العباس أحمد بن محمد الغماز ، نزيل تونس ، فهو أندلسي الأصل ، ولد سنة ٦٠٩هـ ، وتوفي سنة ٦٩٣هـ ، كان سبب توليه قضاء الجماعة بإفريقية ما ظهره من شجاعة وحسن تصرف عندما أمر بحفر خندق لحماية البلاد من أيدي المفسدين وذلك عندما حاصر جيش بجاية وجيش إفريقية مليانة فأصبحت البلاد شاغرة فتسلل بعض المفسدين إليها فقام القاضي ابن الغماز بأمر الناس وحفر خندق وحمى البلاد ، وكان قاضياً عادلاً له قدرة عظيمة على الفصل بين الخصوم ، قبل قضاء الجماعة على شروط منها أن تكون خراجة هي الأعشار الرومية ، وإذا عرضت له مؤامرة من السلطان أجاب عنها بالمشافهة والمكاتبة

كما كان السلطان أبي بكر لا يولي قاضياً حتى يشهد فيه بالخير من يثق بدينه [٣] واستمد الحفصيون احترامهم للقضاة مثل سابقيهم من أمراء الموحدين ، فموقف الأمير الحفصي أبا محمد عندما كان والياً من ولاة الموحدين ، فكان بينه وبين الخليفة الموحدي يعقوب نسب فقد كان متزوجاً من أخت الخليفة ، فعندما حدثت منافرة بين أبا محمد وزوجته رحلت عند أخيها الخليفة يعقوب فأرسل زوجها في طلبها فامتنعت عليه فشكا إلى قاضي الجماعة بمراكش أبو عبد الله محمد بن علي [١] فحكم بإرجاعها إلى زوجها فما كان من الخليفة إلا تنفيذ أمر القاضي [٢] ، وتمتع القضاة في العهد الحفصي باستقلال تام ، فكانت أحكام القضاء تطبق حتى على الأمراء الحفصين أنفسهم فعندما أرتبك محمد أبو ضربة ابن السلطان اللحياني القتل حكم القاضي بسجنه والقصاص منه لولا تنازل أهل الدم فعفى عنه وأخرج من السجن ليتولى الحكم بعد فرار أبيه سنة ٧١٦هـ [٣] ، وعندما حاول أحد قواد السلطان أبي بكر

وأن يدخـل على السلطان في أي وقت أراده . الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٣٨ ، ٤٥ . النباهي ، (أبو الحسن عبد الله بن الحسن) تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(2) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٣٥ .

(3) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٣ .

(1) أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان ، أحد القضاة في عهد الدولة الموحدية ، من وهران ، تولى القضاء في عهد أبي يعقوب يوسف ثم في عهد ابنه أبي عبد الله محمد وبقي في القضاء إلى أن توفي . عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٠٥ ، ٢٥٨ .

(2) العامري : تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٦ .

(3) الضياف : الأتحاف ، جـ ١ ، ص ٢١٦ .

التدخل في شئون القاضي ابن عبد السلام [٤] ، امتنع القاضي واغلق بابه ، فلما تنبه السلطان أبو بكر لما حدث استعطف القاضي وقال له " نطالبك بين يدي الله أن توجد على ولدي حق لأحد وتركته " [٥] .

ومن ذلك أيضاً أن أحد الأمراء لزمته كفارة لتعمده الإفطار في ار رمضان فاستفتي العلماء فأشاروا عليه بصوم شهرين متتاليين باعتبار أن المال الذي في يده ليس له وإنما للمسلمين فعمل الأمير بفتوى الشيوخ [١] .

بل أن القضاة كان لهم نفوذ سياسي أيضاً ، فيظهر دور ابن عبد الرفيع [٢] عندما طالب الحاجب ابن تافراجين الملك لنفسه وذلك بعد اضطراب الأمور في تونس وموت أكثر أولاد السلطان أبي بكر ولم يبق منهم إلا ابن صغير السن يدعى إبراهيم

---

(4) محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري المنستيري قاضي الجماعة بتونس ، ولد سنة ٦٧٦هـ ، تولى التدريس بمدرسة عنق الجمل للأميرة فاطمة ، بلغ رتبة مجتهد الفتوى ، تـوفي في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩هـ ، كان قاضياً حكيماً أظهر صلابة في الحق فعندما اجتمع ا لس لتوليه قضاء الجماعة رفض بعض كبار ا لس وذلك لما عرف من شدته ، فرأوا أن يختبروه فدسوا له رجلاً فقال هؤلاء امتنعوا من توليتك فقال له " أن أعرف الفوائد وامشيها ، فولوه سنة ٧٣٤هـ . ابن فرحون (إبراهيم) ، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، ص ٣٣٩ ، النباهي تاريخ القضاة الأندلس، ص ١٦١.

(5) الشماع : الأدلة النورانية ، ص ٨٩ .

(1) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٣٤.

(2) ابن عبد الرفيع هو إبراهيم بن حسن بن علي بن عبد الرفيع التونسي ولد بتونس سنة ٦٣٩هـ تردد في ولاية القضاء بين تبرسق وقابس ثلاثين سنة ، تولى قضاء الجماعة خمس مرات كان أولها سنة ٦٩٩هـ ، تولى خطابة جامع الزيتونة ، امتحن بالعزل والسجن في المهدية عامين من قبل الأمير أبي ضربة انتقاماً منه لأنه سبق وسجنه قبل ذلك ، توفي سنة ٧٣٣هـ . الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٤٤ ، ٤٦ .

وقد منعه [٣] القاضي ابن عبد الرفيع من ذلك فبايع الناس ابن السلطان أبي بكر على الرغم من صغر سنه وبقي تحت حماية الحاجب ابن تافراجين .

وكان القاضي لا يتولى القضاء إلا بعد التمرين الطويل والشهادة له بالصدق والعدل ورجاحة العقل ، واتبع الحفصيون قاعدة عامة في القضاء حيث لا يبقون القاضي أكثر من عامين بمركز ولايته احتياطاً للعدل وقد أشار إلى ذلك الزركشي فقال " أن عادة الموحدين قديماً بتونس أنهم لا يولون القضاء أكثر من عامين عملاً بما أوصي به عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين كتب عهده أنه لا يولي عامل أكثر من عامين ، وأيضاً فأنهم يرون أن القاضي إذا أطالت مدة قضائه اتخذ الأصحاب والأخوان وإذا كان بمنطقة العزل لا يغتر ، وأيضاً فإن الحال إذا كان هكذا ظهرت مخائل المعرفة بين الأقران وكثر فيهم القضاة بتدريبهم على الوقائع فيبقي الحال محفوظاً بخلاف ما إذا أستبد الواحد بعمل فأنه لا يقع فيهم تناصف ولا يحصل لمن يلي بعده النفوذ بوظيفة ما قدم إليه إلا بعد حين وتنطمس قلوب الطلبة ليأسهم من الولاية إلا بعد مشقة [١] .

ولكن هل استمرت هذه القاعدة طوال العصر الحفصي ؟

لو تتبعنا مسيرة القضاء في العهد الحفصي نلاحظ أن المستنصر التزم بهذه القاعدة فكان لا يبقي القاضي أكثر من عامين في منصبه ثم يعزله ليولي قاضي أخر ، وهذا ما حدث مع القاضي ابن الغماز حيث ولي سنة ٦٦٠هـ ثم عزل وولي وتكرر عزله وولايته ثلاث مرات كان أخرها سنة ٦٩١هـ حيث ولي فيها وقد أشاد به الغبريني وقال في عزله وولايته " ولم يزل يخلع ولاية القضاء بحاضرة إفريقية ويلبسها خلعاً

---

(3) مفديش : نزهة الأنظار ، جـ ١ ، ص ٥٨١.

(1) تاريخ الدولتين ، ص ٤٤ / ٧٩ .

أحسن من لبس ولبس أحسن من خلع لأنه كان لا يخلعها إلا لمثلها وما هو أسمى منها ولم يكن يخلع لشيء أصلاً " [٢] .

وبقيت هذه القاعدة حتى عهد السلطان أبي بكر [٣] الذي تخلى عن حقه في عزل القضاة ، وسار عليها اتباعه من بعد فكان القاضي يبقي في منصبه حتى يدركه الموت ، حتى أصبح من الصعب عزل القضاة بعد ذلك ، ففي عهد السلطان عثمان عندما عزل القاضي أحمد القلشاني [٤] سنة ٨٥٩هـ وعرض عليه خطة أخرى وهي خطابة جامع الزيتونه [١] والفتيابة ، قابل الناس الأمر بشيء من الدهشة والاستغراب حتى إ م لم يصدقوا ذلك ؟

---

(2) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، ص ١٢٠ .

(3) برنشفيك ، تاريخ إفريقية ، جـ ٢ ، ص ١١٨ .

(4) أحمد بن عبد الله بن محمد القلشاني أبو العباس ولي قضاء قسنطينة سنة ٨٢٢هـ وعند ولايته للقضاء أوصاه والده بوصية عظيمة الفائدة قال فيها " صن أذنك عن أخبارهم تسلم من عداو م ، وأوف لذوي الحقوق حقوقهم تستجلب مود م ، وشاور ذوي العقل والدين يقل عتبهم عليك ، وتجاوز عن جفوة ذوي الهفوة يقل ندمك ، وتأن في الحكم يقل خطؤك ، وأصبر على ما تكره تصل إلى ما تحب " تولى قضاء الجماعة بتونس ثم الإمامة والخطابة بجامع الزيتونه والفتيا ، وبعد ثمانية أشهر استقال من منصب القضاء وتولى مشيخة المدرسة الشماعية ، توفي سنة ٨٦٣هـ . الزركشي ، الإعلام ، ٢٢٩/١ . ابن القاضي دره الحجال ، ٨١/١ ، ٨٢ . السخاوي محمد بن عبد الرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، جـ٢/ ١٣٧، ١٣٨ .

(1) جامع الزيتونة أسسه حسان بن النعمان في القرن الأول للهجرة ، وأعاد بناءه عبد الله الحبحاب سنة ١١٤هـ ثم أمر بإعادة بناؤه سنة ٢٥٠هـ الخليفة العباسي المستعين بالله ، وكان للفاطميين والأغالبة والخراسانيين عناية ا حتى العصر الحفصي ، حيث إنشاء السلطان أبو فارس الحفصي سنة ٧٩٧هـ خزانة للكتب في ركن الأهل من هذا الجامع ثم أضاف حفيدة عثمان سنة ٨٣هـ خزانة أخرى وجعلها في الجانب الشرقي منه إضافة إلى السقاية والميضاءة التي إنشاءها في هذا الجامع ، وكان التعليم أساسه القرآن الكريم والسنة النبوية في هذا الجامع العظيم . سليمان زبيس : حول مدينة تونس ، في أجزاء متفرقة من هذا الكتاب . ومحمد الهادي الشريف ، تاريخ المغرب ، ص ٢٩٠ / ٢٩٨ .

وكان السلطان دوماً يستطيع نقل القضاة وعزلهم دون قيد أو شرط ، وكان العزل بدون تعين القاضي المعزول في منصب أخرى يعتبر عقوبة شديدة في حق القاضي [٢] .

وكذا يعتبر عقوبة نقل القاضي من مدينة إلى أخرى عقوبة تأديبية له ، روي ابن ناجي أنه تولى القضاء على التوالي لست مدن إقليمية وأضاف قائلاً " ولا أدري ما وراء ذلك " [3] يقصد بذلك نقله من مدينة إلى أخرى .

وكان القضاء حق من حقوق الحفصيين أو أصحاب الأصول المغربية ، وكان القضاة يتقاضون راتباً شهرياً زهيداً [٤] ، بل أن البعض منهم لا يأخذ من هذا الراتب شيئاً وينفقه في أوجه الخير ، كما فعل القاضي أبو محمد عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٠هـ ، فقد تولى قضاء الجزائر ثم بجاية ، وكان لا يأخذ شيئاً من مرتب القضاء وإنما يصرفه في أعمال البر والخير ، وكان يصرف على نفسه من فوائد العقار ببلدة الجزائر ، ومما ورثه عن أبيه [١] .

---

(2) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ ٢ ، ص ١١٨.

(3) ابن ناجي عبد الرحمن الدباغ أبو القاسم : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، جـ ٤ / ١٨٩ ، ١٩٠

(4) العمري : المسالك ، ص ١٢٢ .

(1) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٢٤٥ /٢٤٦ .

وكان القضاء يتم حسب المذهب المالكي [٢] ، وحاول المستشرق برنشفيك [٣] المساس مـن الأحكام الإسلامية واصفاً إياها بالقسوة ، وضرب مثال لذلك بحد السرقة ، ولكن إلا يرى هذا المستشرق أن السارق يستحق قطع يده حتى يثوب إلى رشده ولا يقدم على السرقة مرة أخرى ، أو لم يفكر في أثر هذا الحد في نفوس الذين توجد لديهم نوازع شيطانية إلا يكون هذا الحد زاجراً لهم ، فيحد ذلك من انتشار الجريمة ، إن أحكام الشريعة الإسلامية أحكام سماوية لا يستطيع أحد الرقي إلى مستواها ومعرفة مقاصدها إلا من هداة الله لذلك .

تعددت أقسام القضاء في العهد الحفصي إلا أننا نستطيع حصرها في أربعة أقسام على النحو التالي :

قاضي الجماعة :

كان قاضي الجماعة يتمتع بنفوذ واسع فكان هو الممثل الأعلى للسلطة الدينية ، فكان يتولى مقاليد القضاء والشعائر الدينية ، وكان له النظر في قضايا الأقاليم المباشرة والغير مباشرة ، ومقره تونس وله نواب في جميع الأقاليم الإفريقية يسمون بالظهير ، وكان له مجلس كل يوم خميس تحت إشراف الأمير يحضره القضاة المعنيين ويحكم في

(2) ينسب المذهب المالكي إلى الإمام ابو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي الحميري ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، كان بعيداً عن الملوك وصلباً في دينه ، عاش في المدينة ، وسأله المنصور إن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل فوضع " الموطأ " ولد سنة ٩٣هـ ، ومات سنة ١٧٩هـ في المدينة المنورة ، ونشر هذا المذهب في إفريقية أحد ففهائيها ويدعى أبو القاسم بن أبي بكر اليمني ، ينظر إلى نشر المذهب المالكي في الفصل الخامس من هذا البحث . حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جـ٢ ، ص ١٩٠٧ – ١٩٠٨ .

(3) تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ٢ ، ص ١٣٢ .

النوازل المعضلة ، وكان السلطان الحفصي لا يعزل أي قاضي إلا بعد أخذ رأي قاضي الجماعة [١] ، وكان قاضي الجماعة يملك الحق في تعيين القضاة وعزلهم .

قاضي الأنكحة :

أهتم الحفصيون بقضايا المجتمع الأسرية فكان لديهم قاضي خاص يحكم في قضايا النكاح يعرف بقاضي الأنكحة ، ويكون من أكبر العلماء المشهود لهم بذلك وكان قاضي الأنكحة هو القاضي الوحيد الذي لا يخضع لقاضي الجماعة ويكون له حق التصرف في القضايا التي أمامه وكان هذا اعتباراً من عهد السلطان أبي بكر عندما حدث نزاع بين قاضي الجماعة ابن عبد الرفيع وقاضي الأنكحة محمد بن عبد السلام حول موضوع فقهي ، تمكن قاضي الأنكحة ابن عبد السلام من الاستقلال بخطته وأصبح بإمكانه النظر في [٢] الزواج حسبما يرى دون جميع القضايا مهما كان نوعها مـن قاضي الجماعة ومما زاد هذا الصراع أن قاضي الأنكحة يخلف عادة قاضي الجماعة ، وهذا ما استنتج من قول الزركشي [٣] الذي قال فيه " ابن عبد الرفيع رمي بنفسه على ابن تاسكرت وكان مكيناً في الدولة المرينية قال له : إن توسطت لي في خطة القضاء فأنا أوليك عدلاً بتونس ، فلم يزل الأخر يتمثل إلى أن وقع الشرط ومشروطة وذلك أن الأجمي كان قاضي الأنكحة فنقل لقضاء الجماعة فاحتل ابن تاسكرت في توليه ابن عبد الرفيع قاضياً للأنكحة ثم أن الأجمي أقام مدة يسيرة ثم

---

(1) ابن ناجي : معالم الإيمان ، جـ٩٢/٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ . أحمد عامر ، الدولة الحفصية ، ص ٣٤. برانشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ٢ ، ص ١١٩ .

(2) ابن القنفذ : الفارسية ، ص ٣٣٣ ، ٣٨٩ . ابن ناجي ، معالم الإيمان ، ١٠٢/٢ .

(3) تاريخ الدولتين ، ص ٤٤ .

توفي ، فقيل يقدم ابن هارون [1] ، فقال ابن تاسكرت جرت العادة بأن قاضي الأنكحة هو الذي يتولى قضاء الجماعة ووطد ذلك بأنه من بيوتات تونس فولاه السلطان بوساطته " .

قاضي الأهلة :

وهو الذي يعلن دخول الأشهر عند رؤية الهلال ، ثم يقوم بإبلاغ السلطان بدخول الشهر ، وكان قاضي الأهلة موجوداً في العهد الحفصي على عكس ما ذكره برانشفيك [2] الذي نفى وجود قاضي الأهلة في هذا العهد وتحديداً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين إلا أنه ومن خلال المصادر استطعنا الاستدلال على وجودة في هذه الفترة من العهد الحفصي وتحديداً في عهد السلطان أبي بكر وربما يكون موجود قبل ذلك أيضاً فقد أورد صاحب الأتحاف في كلامة عن السلطان أبي بكر قوله " لما استهل رجب سنة ٧٤٧هـ بعث قاضي الأهلة بثبوت الشهر إلى السلطان فقال " لا إله إلا الله دخل رجب وكررها مراراً " [3] أيضاً ذكر المؤرخ ابن أبي دينار قاضي الأهلة ضمن القضاة الأربعة الموجودين في الدولة الحفصية [4] .

---

(1) ابن هارون هـو محمد بن هارون الكناني التونسي فقيه ، محدث ، له علم كبير بالأصول ، ولد سنة ٦٩٠هـ ، تولى قضاء الجماعة بغير مدينة تونس وكان بينه وبين قاضي الجماعة في تونس نزاع في مسائل فقهيه كتولي خطة الفتوى ، توفي في الوباء الذي اجتاح تونس سنة ٧٦٠هـ . محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين ، جـ٥ ، ص ٩٦ – ٩٧ .

(2) تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ٢ ، ص ١٢١ .

(3) ابن الضياف ، جـ١ ، ص ٢٢٠ .

(4) المؤنس ، ص ٢٦٣ .

وهذان دليلان كافيان على إثبات وجود قاضي الأهلة في العهد الحفصي وتحديداً في القرنين السابع والثامن الهجريين ، ولا سيما وأن هذه الخطة يترتب عليها معرفة شعائر دينية م المسلمين لذلك لا يمكن إنكار وجود قاضي يعني برؤية دخول الأشهر حتى يكون المسلمون على علم بدخول أشهر العبادة التي فرضها الله .

قاضي المحلة أو قاضي العسكر :

وهو الذي يرافق الجيش ويتولى إصدار الأحكام الدينية خلال تواجده مع الجيش ويقيم الشعائر الدينية من صلاة ونحو ذلك ، ويرجع ظهور قاضي المحلة إلى عهد السلطان أبي فارس ، وكان قاضي المحلة عادة ما يكون أحد العدول في تونس ، أو يتصدر للتدريس أو للإمامة إلى جانب مهمته هذه ، وهذا ما أكده ابن ناجي عندما قال " فإن العدالة جارية في زماننا الذي يصلى بأمير المؤمنين إذا سافر ويحكم بين الناس ، يكون عدلاً بتونس ويتقدم في غيرها من يستحقه من خطبة أو تدريس أو غير ذلك " [١] .

ونجد قاضي المحلة أحد الموقعين على المعاهدة [٢] التي تمت بين جنوة والحفصيين وكان القاضي في عهد السلطان هو أحمد بن كحيل التجاني [٣] ، وكان أحمد الشماع (والد المؤرخ) [أبو عبد الله محمد] قد تولى هذه الخطة زمن السلطان أبي فارس

---

(1) ابن ناجي : معالم الإيمان ، جـ٤ / ٢٥٣ .

(2) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ٢ / ١٢٤ .

(3) أحمد بن محمد بن عبد الله التجاني المعروف بابن كحيل ولد بتونس سنة ٨٠٢هـ ، تولى قضاء المحلة والتدريس بزاوية باب البحر ، ثم صرف عن القضاء سنة ٨٥٦هـ ، وأعيد له في ٨٦٥هـ ، وتوفي سنة ٨٦٥هـ . الزركلي ، الأعلام ، ٢١٩/١. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ١٢٩ ، ١٣١ .

إضافة إلى خطابة جامع القصبة وبعد وفاته انتقلت الخطتان إلى القاضي محمد المسراتي المتوفى سنة ٨٤٨هـ ، وربما تولي قاضي المحلة قضاء الجماعة وهذا ما حدث للقاضيين محمد بن الرصاع [(١)] وخليفته محمد القسنطيني فقد توليا قضاء الجماعة ، والإمامة والخطابة بجامع الزيتونة [(٢)] .

وعلى الرغم من أهمية قاضي المحلة إلا أنه بقي أقل رتبة وشأناً في سلم التشريع القضائي الحفصي ، ومن ضمن القضاة الذين أشار إليهم ابن أبي دينار [(٣)] كان قاضي المعاملات الذي يتولى إصدار الأحكام الخاصة بالبيع والشراء ونحو ذلك .

وقد كان لكل قاضي من هؤلاء القضاة عدول ومفتين يقومون بمساعدته فالعدول كما ذكرهم ابن خلدون الذين يقومون (بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملاً عند الإشهاد وأداءً عند التنازع وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديو م وسائر معاملا م وشرط هذه الوظيفة الأتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عبارا ا وانتظام فصولها ومن جهة إحكام شروطها وعقودها " [(٤)] .

---

(1) محمد بن أبي القاسم بن أبي يحيي بن أبي الفضل بن محمد الرصاع سمي بذلك لأن جده كان يصنع المنابر ويرصعها ، تولى قضاء المحلة والتدريس بزاوية البحر سنة ٨٦٥هـ ، ثم تولي قضاء الأنكحة سنة ٨٧٥هـ وقضاء الجماعة والإمامة بجامع الزيتونة والفتيابة ثم اقتصر على إمامة الجامع بعد ذلك وكان ضليعاً في الفقه له مؤلفات عده مها " الأجوبة التونسية " (تذكره المحسنين) ، (التسهيل والتقريب) ، وغير ذلك ، توفي سنة ٨٩٤هـ . محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين ، جـ٢ / ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(2) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ١٤٣ .

(3) المؤنس ، ص ٢٦٣ .

(4) المقدمة ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

وكـان تعيين العدول يتم عن طريق قاضي الجماعة الذي يتمتع بـحق عـزلهم أيضاً ووجـد العـدول في كـل مكان يوجد به قاضي ، وأكثر منهم البعض فالقاضي ابن القداح [١] المتوفى سنة ٧٣٤هـ قدم أثناء توليته قضاء الجماعة بتونس خمسين عدلاً دفعة [٢] واحدة وعندما سئل عن سبب تقديم هذا العدد الكبير أجاب " إذا كان الطالب يأتي إلينا ويترك زوجته إن كان متزوجاً ويرضي بالغربة والصبر على القمل والبرغوث والبق ويخدم بيده من طبخ وغيره وهو مجد في العلم فإذا لم تقدمه في خطة تليق به من شهادة وقضاء أو نحو ذلك طلع ولده لصناعة الحدادين " [٣] .

فأراد بذلك التوسعة على الناس في الرزق ، وكان البعض لا يؤيد كثرة العدول ويرى الإقلال منهم أفضل فالقاضي ابن يعقوب [٤] رأي في كثر م مفسدة ومضرة [٥] وكذلك القاضي ابن عبد السلام الذي ألغي جميع التعيينات التي أقرها سلفة السابق ابن القداح .

---

(1) عمر بن علي بن قداح الهواري التونسي أبو علي ، عالماً بالمذهب المالكي ، ومفتي مجيد ، تولى التدريس بالمدرسة الشماعية ، ولي قضاء الأنكحة مرتين وقضاء الجماعة ، توفي بتونس سنة ٧٣٤هـ كان يفتي يوم الجمعة في أربعين مسألة . الزركشي : تاريخ الدولتين ، ٥٧ / ٥٨ .

(2) ابن ناجي : معالم الأيمان ، ١٤٤/٣ .

(3) المصدر السابق نفسه ، ١٤٤ .

(4) أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنجلاتي ، فقيه ، كان له مجلس علم تقرأ عليه الكتب المذهبية ، كان من المفتيين في الدولة ، انقطع في أخر عمره عن الناس حتى توفي سنة ٦٦٠هـ . الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٢٦٥ .

(5) ابن ناجي : معالم الأيمان ، جـ١٤٥/٤ .

أما المساعد الثاني للقاضي فكان المفتي الذي يتولى خطة الإمامة والخطابة بالجامع فكان لكل مدينة من المدن الكبرى مفتي ، أما مدينة تونس فكان يوجد ا عدة مفتيين ملحقين بمختلف المساجد مثل جامع الزيتونة وجامع التوفيق وجامع باب الجزيرة [٦]، وعادة ما يكون المفتي من أهل البلد نفسها ، فعندما قدم الإمام أبن عرفة للفتيا بجامع الزيتونة خلفاً للشيخ الغبريني [١] ، لم يرض أهل تونس لأنه ليس من أبناء جلد م فاشترطوا عليه شروط ، فقبلها [٢] .

وكان المفتيين يصدرون فتواهم عادة بعد صلاة الجمعة ، فقد عرف عن ابن القداح إصدار أربعين فتوى كل يوم جمعة ، والبعض بفضل الجلوس للفتوى بعد صلاة العصر [٣] .

ومن كل ما سبق نستنتج أن القضاء في العهد الحفصي شهد نجاحاً وتطوراً كبيراً وأصبح القضاة يتمتعون باحترام الناس وتقديرهم لأ م كانوا يتمتعون بالاستقلالية في تنفيذ الأحكـام بعيداً عن التدخـل السياسي وحسب أحـكام الشـريعة الإسلامية فآدا ذلك إلى ظهور عدد من القضاة العظماء أمثال ابن الغماز وابن الرفيع وابن عبد السلام وغيرهم .

---

(6) برانشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ١٤١/٢ .

(1) الغبريني هو أحمد بن أحمد بن علي الغبريني ، كنيته أبو العباس ، ولد سنة ٦٤٤هـ ولي القضاء بعدة مدن أخرها بجاية ، عرف ببراعته في علم الفقه ، له كتاب عظيم الفائدة أطلق عليه عنوان الدرايه أت الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية " توفي في الطاعون سنة ٧١٤هـ - الغبريني : عنوان الدراية ، ٩، ١٠، ١٤.

(2) محمد محفوظ : تراجم المؤلفين ، جـ٣ ، ص ٣٦٦ .

(3) الزركشي : المصدر السابق ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية

المبحث الأول : النظام المالي في الدولة

المبحث الثاني : والزارعة والري

المبحث الثالث : الصناعة .

المبحث الرابـع : التجـارة والعلاقـات الاقتصادية بـين الـدول الحفـصية والدول المجاورة لها .

المبحث الأول : النظام المالي في الدولة :

ازدهر النشاط الاقتصادي في تونس بفضل السياسة التي اتبعها بعض السلاطين الحفصيين ، من تحديد الضرائب المنظمة التي تدخل الخزانة العامة سنوياً بصرف النظر عن حالة المحصول ، والخراج الذي فرضه الحفصيون ومختلف المكوس المفروضة على الصنائع ونقل البضائع وبيعها وما تؤديه القبائل من ضرائب فرضت عليها وإلى جانب هذا النظام الجبائي شجع الحفصيون نشاط التجارة ومهاجمة السفن الصليبية في البحر كنوع من أنواع الجهاد ضد وجـودهم البحري في المنطقة البحرية واستخلصوا منهما غنائم هائلة قدرها المؤرخ ابن أبي دينار على عهد السلطان أبي زكـرياء الأول (بالبيت البيت) والبيت عبارة عن ألف ألف ، ومن الواضح أنه لم يكن هناك أي فصل بين الخزينة العمومية للدولة وبين صندوق السلطان ، فكانت الأموال تحت تصرفه وحده ، مما جعله أقل تبعية لما تدفعة الرعية من الضرائب وأن تصبح له على تلك الرعية الغلبة المطلقة [(١)] .

وكان الموظفون في الدولة يتقاضون أربعين ديناراً في كل تفرقة ، والتفرقة تكون أربع مرات في السنة ، فلها مواعيد محددة ، فهناك تفرقة في عيد الفطر وتفرقة في عيد الأضحى ، وتفرقة في ربيع الأول ، وتفرقة أخيرة في رجب [(٢)] ، وربما هذه التفرقة تختص بالموظفين في الجيش ، لأن الزركشي ذكر أن أحد المدرسين قد بلغ رابتة في الشهر عشرة دنانير [(٣)] ، فهذا يدلنا على أن أمر التفرقة قاصر على وظائف معينة ،

---

(١) ابن القنفذ : الفارسية ، ١١٣/١١٤ . وابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٣١ .

(٢) العامري : المغرب في سبعة قرون ، ص ١٦٨ .

(٣) تاريخ الدولتين ، ص ٧٠.

بينما يتقاضى أصحاب الوظائف الأخرى كالمدرسين رواتبهم بالشهر ، وكان موظفوا الأقاليم يتقاضون مرتبا م من قاضي الجهة نيابة عن الدولة .

أما فيما يتعلق بالملكية العقارية فإن السلطان كانت له أملاك وعقارات خاصة وتابعة له ، وهذه الأملاك والعقارات غير الأملاك المخصصة للدولة ، والتي له أيضاً حرية التصرف فيها ، فكان الإقطاع في الدولة يوزع على كبار رجال الدولة أو للبلاط الحكومي ومنهم شيوخ الموحدين العسكريون ثم الفقهاء وبعض الشخصيات السياسية التي لا تنتمي إلى سلك الإدارة العادي ، ونعني م مجموعة رؤساء العرب الذين أرغموا السلطة الحفصية على الاعتراف م كأعضاء لهم حقوق على الدولة ، وقد قدرت مساحة الأرض التي تمنع لكل شيخ موحدي بمساحة تتراوح ما بين مائتين ومائة هكتار ، ومع هذا فإن شيوخ الموحدين غير مجبورين على العيش في الأرض وإنما هي من باب التوسعة عليهم ، وكان لهم الحرية في العيش إلى جانب السلطان في عاصمته أو في مرافقته في حملاته العسكرية [١] .

أما الفقراء فإ م يمنحون في كل سنة تفرقة يطلق عليها المواساة تمنح لهم عند تحصيل الغلات في مخازن الدولة [٢] ، وليس لها مقدار محدد أو مضبوط ويمنحون كذلك بعض الاقطاعات من باب الإحسان مثلما فعل السلطان أبو بكر عندما منح بعض سكان قفصة الفقراء إقطاعات يستفيدون منها وكانت هذه الإقطاعات إقطاعات إستغلال لا تمليك [٣] .

---

(١) برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، جـ٢ ، ص ١٩٠ / ١٩١ .

(٢) العامري : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٣) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢/ ١٩١ .

ويحق للسلطان الحفصي منح إقطاعات لأشخاص أجانب ، فقد منح السلطان أبو زكرياء إثر انتصاره على الأمير يغمراسن وبعد أن أصبح هذا الأمير تابعاً له إقطاعات في إفـريقية يستخلص جبايتها لصالحة ، وقد أصبح هذا حقاً لأسرة يغمراسن ، فطالب به أحد أفراد هذه الأسرة بعد خمس وستين سنة في عهد السلطان أبي بكر ، وقد تم له ذلك الحق ، كما منح السلطان الحفصي أبو بكر جراية وإقطاعاً لأمير مريني كان يأويه في بلاطه ، ومنح العرب إقطاعاً يشمل جزءاً كبيراً من وادي إفريقية [(١)] .

وكانت للدولة ضرائب ثقيلة تفرضها على الأسواق ، فلا يباع في أسواق تونس أو غيرها شيء قل أو كثر إلا ويؤدي بايعة لجانب السلطة معلوماً من درهم إلى ديناراً أو أكثر من دينار فيما له قيمة ، وكانت هذه الضرائب تؤدي إلى نزاع بين السلطان الحفصي والقضاة الورعين فمثلاً قاضي القيروان أبو عبد الله بن شعيب [(٢)] عندما رفعت له شكاية من بعض القيروانيين حول المكوس المفروضة عليهم في العهد الحفصي غضب فقال (ليس في الشريعة مكس) [(٣)] بل وضرب المكاس وطيف به فلما علم السلطان بموقف القاضي عزلة في الحال .

---

(١) العامري : المرجع السابق ، ص ١٦٩ . وبرنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ / ١٩١ ، ١٩٢١ .

(٢) أبو عبد الله بن شعيب ، إمام وفقيه جليل ، متصوف ، عالماً بالمذهب المالكي أصلة من المغرب ، رحل إلى المشرق ، ثم عاد وتولى التدريس بتونس ، وعرض عليه القضاء فامتنع ، فشد عليه فيه ، وولي قضاء القيروان وعزل ، ثم أقام ببجاية إلى أن توفي . الغبريني : عنوان الدراية ، ص ١٩٠ / ١٩١ .

(٣) الغبريني : المصدر السابق ، ص ١٩١.

وتفيد الإحصائية التي ذكرها الترجمان [٤] عند حديثة عن الضرائب التي ألغاها السلطان الورع أبو فارس إلى ضخامتها وأ ا كانت تشكل خطراً على أصحاب الأسواق والسلع طوال هذا العهد ، فهو يذكر " أن مجبا سوق الرهادنة وقدره ثلاثة آلاف ديناراً ذهباً ، ومجبا سوق رحبة الطعام وقدره خمسة آلاف دينار ، ومجبا رحبة الماشية وقدره عشرة آلاف دينار ، ومجبا فندق الزيت وقدره خمسة آلاف دينار ، ومجبا فنقد الخضرة وقدره ثلاثة آلاف دينار ، ومجبا سوق العطارين وقدره مائة وخمسون دينار ، ومجبا فندق الأرام وقدره خمسون ديناراً ، ومجبا فندق الفحم وقدره ألف دينار ، ومجبا كيس العمود وقدره ألف دينار ، ومجبا فوائد الأسواق وهو مال ضربة بعض الملوك المتقدمين على من بوادي بحيرة وغيرهم وهم أهل خيام وعمود ، ثبت ذلك عليهم مدة طـويلة حتى أبطله الملك أبو فارس وقدره ألف دينار ، ومجبا فوائد دار الشعر وقـدره ثلاثة آلاف دينار ، ومجبا سـوق القشاشين وقدره مائتا دينار ، ومجبا سـوق الصفارين وقدره مائتا دينار ، ومجبا سوق العرافين وقدره خمسون دينار " [١] .

هذا إضافة إلى الضرائب التي كانت على الفخارين وعلى المطربين وكلها أسقطها هذا السلطان تسهيلاً لرعيته .

وكان للضريبة أربعة أنواع – العشر – الحكر – الوظيفة – الزمة .

فالعشر ضريبة شرعية تفرض على المزروعات وعلى جميع أنواع الأراضي المنتجة زراعياً ، وتقدر بحسب المحاصيل ، وكذلك على الإنعام والمعادن النفيسة حسب مقاييس معينة حدد ا الشريعة الإسلامية .

---

(٤) أبي محمد عبد الله : تحفة الأريب ، ص ٨٨ .

(١) الترجمان : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

أما الحكر : الذي يعرف بالجزاء فهو ضريبة على الأرض الموات التي صير ا اليد العاملة صالحة للإنتاج بعد الإهمال وتحل هذه الضريبة إلى بيت المال لتكون في صالح العامة [٢] .

أما ضريبتا الوظيفة واللزمة : فهي عسيرة التحديد ، أيضاً كانت هناك ضريبة باهظة تقدر بخمسمائة ألف درهم في السنة لمقاومة الـجراد ويطلق عليها اسم (مودة الجراد) [١] .

وكانت العملة عند الحفصيين هي الدينار ويزن ٤,٧٢ مليغرامات ، ويتجزأ إلى نصف الدينار ، وربع الدينار ، وثمن الدينار ، وأيضاً الدرهم فكانت الدراهم الحفصية مربعة الشكل وأحياناً تكون مستطيلة ، ويزن الدرهم غراماً واحداً [٢] والحفصيون هم أول من أصلح المكاييل بتونس على مقتضى نصوص الشريعة الإسلامية ، فكانت لهم موازين معينة ، مثل الأوقية التي يبلغ وز ا ٣١,٤٨ غراماً ، وتتجزأ إلى الرطل الذي يستخدم في وزن المواد الغذائية ، والقنطار الذي يساوي مائة ركل ، ويستعمل المثقال البالغ وزنه ٤,٧٢ غراماً لوزن الذهب وكانوا يستخدمونه للمواد الجافة – وزن القفيز الذي جعلوه موافقاً للوسق الشرعي أي ١٧٥,٩٢ لتر [٣] ، واستخدموا لوزن السوائل كالزيت ونحوه وحـدة تتمثل في " المطر " وكانت تساوي ٢٠,٩٦ لتراً ، واستخدموا " الجرة " التي تساوي ثلاثة أمطار – أي خمسين لتر ، واستعملوا

---

(٢) العامري : المرجع السابق ، ص ١٧٠ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٩٦ / ١٩٧ .

(١) ابن ناجي ، معالم الإيمان ، جـ٤ ، ص ٩٥ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ، جـ١ ، ص ٤٥٧ .

(٣) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ / ٢٦٠ . العامري : تاريخ المغرب ، ص ٢٣.

للمكاييل (القبضة) (والحفنة) [٤] ولم يبدى الحفصيون عنايـة بضـرب الفـلوس (النحاس) إلا في عهد المستنصر بالله عندما سك عملة من النحاس مقـلداً ا فلوس المشرق ، تسهـيلاً على الناس في المعـاملات وتيسيراً لقضـاء حـاجا م ، وسماها (الحندوس) ولكن الناس أفسدوها بضر ا ناقصة عن الوزن فأبطلت ، وفي عهد الدعي ابن أبي عمارة الذي أدعى أنه الفضل ضرب السكة باسم " الفضل " وفي زمن السلطان أبي عمرو عثمان ٨٣٩هـ - ٨٩٣ هـ [١] جدد ضرب الدرهم الفضة وأسماه الناصري جمع نواصر وجزأه إلى خمسي وهو خمسة أسداس الدرهم وإلى خروبة وهن أربعة أسداس الدرهم وإلى نصف ناصر – يعني ٦/٣ وغلى قفصي وهو القيراط أي سدس الدرهم ، واستمرت النقود الحفصية في المحافظة على جود ا وحسن مظهرها طـوال العصر الحفصي حتى عهد أخر الحفصين تدهورت وصار مشوه الكتابة ، رديئاً ، فتارة مقطوع الأطراف غير مستوي الزوايا ، مطموس الخط تارة أخر والحروف متشابكة ومتداخلها حتى أنه يصعب قراء ا [٢] .

---

(٤) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ٢٦١ .

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٤٢٤ . حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، جـ١ ، ص ٤٥٨ / ٤٥٩ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٦٥ .

المبحث الثاني : الزراعة والري :

أن العناية بالزراعة على عهد الحفصين شهدت جهوداً عظيمة ، لا سيما وأن مدينة تونس لا يوجد ا أ ار ولا عيون ، فكانت تعاني من مشاكل الري التي تعرض الزراعة إلى الجفاف واليبس مما يؤدي بدورة إلى تعطيل مساحات شاسعة من الأراضي الجيدة بسبب قلة المياه ، وقد حاول الحفصيون التغلب على هذه المشكلة بعدة طرق منها استخدام (المآجل) جمع (مأجل) (١) ، كما أظهروا مهارة فائقة في احتجاز مياه الأمطار بواسطة السطوح أو السدود (٢) ، واستخدموا طريقة (الفيضانات المسيرة) (٣) لسقي مزارعهم وثبت استخدامها في التخوم الطرابلسية عندما استخدمت لزراعة الذرة البيضاء هنالك ، وكان استخراج الماء من الآبار يتم عن طريق آلة رافعة تسمى (السانية) وهي ناعورة مدورة يحركها بعض الحيوانات كالحمار أو الجمل ، وتستخرج الماء من البئر وتصبه في حوض ثم يمر منها إلى السواقي وتزود الساقية بقنوات ممدودة تحت الأرض ثم ببعض الصهاريج التي تتفرع عنها السواقي ممدودة فـوق جدران صغيرة منخفضة للري واستعملت هذه الطريـقة في المنطقة الشرقية والجنوبية من إفريقية (٤)، وأشار ابن ناجي إلى أن المحاصيل الزراعية في سهول القيروان تروي عن طريق الري (بالدلو) (٥) واستخـدموا إلى جانب الدلو بعض الأدوات

---

(١) المأجل : جمع مأجل ، وهو الصهريج المزود بماء المطر . برنشفيك ، تاريخ إفريقية ، جـ٢ ، ص ٢١٧ .

(٢) برنشفيك : المرجع السابق نفسه . التجاني ، الرحلة ، ص ١٤٢ .

(3) التجاني : المرجع السابق نفسه ، ص ١١١ .

(4) ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، جـ٧٦/٢ ، برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢١٨ .

(5) ابن ناجي : المرجع السابق ، ١٧٣/١ .

الأخرى للري مثل السطول الخشبية وتسمى (الأقباب) [١] والجدير بالملاحظة أن القاضي ابن الشباط [٢] هو الذي قام بضبط الري وذلك بعد أن حدث نزاع بين الناس على الماء في توزر ، فوقع حل ذلك النزاع بطريقة طبقها القاضي ابن الشباط لتوزيع المياه توزيعاً عادلاً وكانت هذه الطريقة تعتمد على جهاز يتضمن ساعات مائية تفرغ ثماني مرات في الساعة ، وعندما تفرغ يكون وقت السقي المخصص للفلاحين قد انتهى ولا يحق أن يحتفظ به حينئذ [٣] واستخدمت في فزان [٤] وجنوب منطقة وهران والجنوب الغربي وهي مناطق صحراوية طريقة (الفجارات) وهي عبارة عن سراديب موجودة تحت الأرض تتضمن على مسافات متغيرة بعض الفتحات لجلب المياه إلى هذه المناطق [٥] .

وفي سنة ٦٦٦هـ قام المستنصر بعمل جليل النفع تمثل هذا العمل في إصلاح الحنايا [٦] الأصلية الغير شاملة لفرع جوقار وأشاد تكملة لها بداية من مكان يسمى

---

(١) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢١٩ .

(٢) أبو عبد الله محمد بن علي المصري التوزري المعروف بابن الشباط ، ولد سنة ٦١٨هـ عالم وفقيه وقاضي مشهور في تونس له تأليف عـدة أدبية وفقهية ، توفي سنة ٦٨١هـ . النيفر ، عنوان الأريب ، جـ١ ، ص ٦٠ . العامري : تاريخ المغرب ، ص ١٨٠.

(٣) ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ١٣٩ . العامري : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

(٤) فزان : منطقة كبيرة ومسكونة بين الفيوم وطرابلس الغرب على بعد مسيرة قرابة ستين يوماً من القاهرة ، والغالب على ألوان أهلها السواد . يـاقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٦ ، ص ٧٣٤ . ليون الإفريقي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٤٧ .

(٥) برنشفيك : المرجع السابق نفسه ، جـ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٦) الحنايا أو السافية من جملة غرائب الدنيا وهي من عمل الروم مجلوبة من جبال بجنوب تونس على مسيرة يومين أو نحوها في أوعار وجبال فإذا انتهوا بها إلى جبل أوتل خرقوه وسربو الماء فيه وإذا انتهوا إلى واد بنو قناطر بعضها فوق بعض حتى يستوي مع مجرى السافية بصخور منحوتة حتى يتسرب الماء منها في مستوى

الآن (المنيهلة) واقع بين باردو وسبالة وبذلك مكن من إيصال مياه عيون زغوان إلى قصر رأس الطابية ثم إلى قصر أبي فهر أريانة ثم إلى صهريج داخل باب اللواء – أو باب سيدي عبد الله بتونس ومن هنالك جلب إلى جامع الزيتونة في أنابيب من رصاص فكانت هذه الحنايا مساهمة بجزء كبير في حل مشكلة المياه في تونس فكان السكان الذين ليس لديهم ماء يزدحمون على هذه المنشأة العجيبة [١] (الملحق ص ٤٢٧) .

وكان سكان تونس يطلقون على الأرض المزروعة بالأشجار اسم غابة وعلى الحقل اسم بحيرة أو فدان كما يطلقون على الحديقة اسم (رياض) و (جنان) [٢] ، وكانت الأراضي المحيطة بتونس تزخر بالمنتزهات في وسط حقول واسعة فيها جميع أصناف الأشجار والغلال والخضر ، وكان الفلاحون يستخدمون للتسميد فضلات البشر والحيوانات ، واستخدموا للزراعة محراث خشبي يشد إلى أحد الحيوانات كالحمار أو الثور أو الجمل وهذا المحراث مجهز بسكة معدنية بدون سكين ولا مقلب ثم يشق بواسطته الأرض سطحياً بخــط قصير دون أن يقلب كتلة التراب ويبقي إلى نزول المطر ، فيقسم الفلاح حقله إلى أجزاء مربعة أو مستطيلة الشكل ويحدد هذه الأجزاء بعلامات معينة ثم يزرعها ويحرثها عمودياً [٣] .

معتدل وانتهت هذه السافية إلى مدينة قرطاجنة ويذكر أن الروم أقاموا في صنع هذا العمل أربعمائة سنة . العبدري الرحلة المغربية ، ص ٤٠/٤١ .

(١) العبدري : المصدر السابق ، ص ٤٠ . الشماع : الأدلة البينية ، ص ٦٨ . الضياف ، الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٥٢ ، ١٣١ . ابن ناجي ، معالم الإيمان ، جـ ٤/١٦٧ .

(٣) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ .

وتتمثل أهم المزروعات في تونس في القمح والشعير اللذين يعدان أهم المنتوجات في كثير من المناطق التونسية ، فمدينة أوربس مثلاً أشتهرت بإنتاج القمح بصورة كبيرة حتى أن الأعراب يأتون إليها كل سنة ويملئون أكياسهم منه دون أي ثمن [١] ، وفي باجة التي زارها الإدريسي [٢] في القرن السادس الهجري ذكر أ ا أغنى مدينة مغربية بالقمح ، ومن الأقوال المأثورة في تونس والتي تدل على وفرة القمح في باجة " أنه لو كانت باجتان لفاق عدد حبات القمح عدد حبات الرمل " [٣] .

وقـدر ليون الإفريقي [٤] إنتاج باجة السنوي من القمح بأكثر من عشرين ألف ستية [٥] ، وأشتهرت سهول التل الأعلى وسهول قسنطينة ومدينة نيفاش ومسيلة وطبنة بإنتاجها للقمح ، وكان أهالي سكيكدة يدفعون القمح للجنويين مقابل أخذ الأقمشة منهم (وهو ما يعرف بالمقايضة) [٦] ، ويأتي الشعير في المرتبة الثانية بعد القمح فهو يقوم بدور أساسي في تغذية السكان والمواشي وتبلغ قيمته نصف قيمة القمح ، ويكثر في مناطق بجاية وجيجل والمنستير [٧] ، وجبال غريان [٨] ، ويكثر

---

(١) ليون الإفريقي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٦٦ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢) نزهة المشتاق ، ص ١١٥ .

(٣) ليون الإفريقي : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٤) وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٦٦ .

(٥) ستيه : مكيال قديم يقدر بنحو خمسة أرطال . ليون : المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٦) ليون : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٥٤. برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٢٧ .

(٧) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٨) جبال غريان : امتداد الجبل يقّرن من جهة الشرق ، يبعد عن طرابلس بمائة كيلو متر جنوباً وهو جبل بارد يفصله عن باقي الجبال بعض المساحات الرملية . ليون : وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ١٠٦ .

التمر في مدينة قابس التي وصفها التجاني بأ ا جنة الدنيا لكثرة بساتين النخل ا لا يكاد ينبت فيها سواه [١] ، وأشار ليون إلى فاكهة أخرى حلوة يسميها الأعراب حب العزيز وهي نبته صغيرة مثل الفول تنب تحت الأرض على شكل الفجل ، هذا إضافة إلى نباتات عدة في أراضي قسنطينة التي يبلغ إنتاجها ثلاثين ضعف ما يزرع فيها وكان أهم منتوجا ا التمر الذي يباع فيها بثمن بخس إذ يمكن الحصول على ثمانية أرطال أو عشرة من التمر بثلاث بايوتشيات ، والزعفران الممتاز الذي يكثر في جبال غريان ويساهم بشكل كبير في رفع المستوى الاقتصادي لـهذا الجبل إذ يقدر دخل هذا الجبل سنوياً ستون ألف دوبل ، ويكثر الزيتون والتين والجوز والكتان والقنب في مناطق سوسة ، وجبال بجاية ونكاوس [٢] .

وتنتج البلاد التونسية إلى جانب هذه النباتات الزبيب والحمضيات مثل الليمون والأترج – والخوخ – والمشمش – والبرقوق – والكرز – والتفاح – السفرجل – الأجاص – والحمص والفاصوليا – الخس – العدس – واللفت – والقرع – والجزر والثوم – البصل – وقصب السكر ، ويكثر فيها النباتات الطبية ومنها الكمون – الكروية – والأنسيون – والحناء وغيرها [٣] .

والملاحظ أن هذه المحصولات الزراعية يتم حصاد معظمها في شهر مايو ، ويتم الحصاد بواسطة منجل مسنن حيث تقطع السنابل الطويلة بعد ترك كمية من التبن لرعي الماشية ثم تدرس بواسطة حوافر الدواب وتتبع هذه الطريقة في قسنطينة

---

(1) الرحلة ، ص ١٢٢ .

(2) ليون الإفريقي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٩ ، ١٠٦ .

(3) الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص ٩٤ ، ١١٠ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٣١ .

والجنوب الشرقي وتستعمل في جهات البلاد التونسية ومنطقة تبسة (دراسة) مجرورة بأحد الحيوانات ومجهزة بأحجار قاطعة وشفرات حديدية وتعرف باسم (الجاروشة) واستخـدمت سـوسة وصفـاقس والقيروان عـربة ذات عجـلات مسننة تسمى (الكريطة) ، ويتم نسف الحب في البيدر عند هبوب الريح بواسطة مذار طويلة ثم مجارف مصنوعة من الخشب ، ويسحق الحب بواسطة الرحى اليدوية والطاحونات التي تدار بالدواب [(١)] .

وقد ذكر التجاني [(٢)] أن في ا لجنوب التونسي بالقرب من توزر عدداً من الطواحين الهوائية في وادي مجسر ، كما أشار الشماع إلى وفرة الطواحين في تونس فقال " وما يزيد على مائة وعشرين طاحونة ، وكان يطحن ا أربعة آلاف قفيز قمحاً كل يوم آلف تبل وألف تطحن وألف تغربل وألف تصنع " [(٣)] .

والحبوب تخزن في مطمورات في منطقة أوراس ، بينما تخزن في القصور ذات الغرف في الجنوب التونسي وفي طرابلس وفي منطقة قسنطينة وبعض المدن الأخرى تخزن في مطمورات تحت الأرض [(٤)] .

ومن الملاحظ أن تونس كانت تزخر بالعديد من المنتوجات الزراعية وأن أرضها خصبة تجود بكافة أنواع النباتات ، " فلو أتفق أن يكون ا ماء جار لكانت معدومة النظير شرقاً وغرباً " [(٥)] .

---

(١) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ ٢ ، ص ٢٣ ، ٢٤ . ليون : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٧٥ .

(٢) الرحلة ، ص ١٨٣ .

(٣) الأدلة البينة ، ص ٩١ .

(٤) ابن ناجي : المصدر السابق ، جـ ٤ /١٦٨ . الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١١٨/٩٥ .

(٥) العبدري : الرحلة ، ص ٤٠ .

المبحث الثالث : الصناعة :

اعتمدت الصناعة على المواد المنتجة في البلاد اعتماداً كبيراً واقتصروا على استيراد المواد الكمالية من الخارج وتمثلت الصناعات الأولية في طحن الحبوب واستخراج الزيت عن طريقتين ، الأولى تتم بطحن الزيتون في طاحونة تحركها الدواب ثم يوضع في معصرة ذات لولب ، فيستـخرج الزيت ويسمى في هذه الحالة (المعصري) وما يبقي بعد العصر يسمى (فَيتور) والطريقة الثانية تسمى ضرب الماء وتتمثل في غسل حبات الزيتون بالماء الحار وتحويلها إلى عجينه ثم وضعها في آنية ، حتى يطفوا الزيت على السطح ، فيجمع عندئذ ، وكانت هذه الطريقة الأكثر انتشاراً في تونس لسهولتها [١] .

وأيضاً من خشب الزيتون المتوفر بكثرة في إفريقية يصنع الفحم الذي يتخذ بعضه حطباً للتسخين ، واشتهرت قـرية الحمامـات بوجود عدد من صانعي الفحم " الفحامين " [٢] وازدهرت صناعة النسيج وتوفرت في كل مدينة كبيرة كانت أو صغيرة إلا أن تونس اختصت بنوع رفيع من القماش (بالإفريقي) ينسج من القطن والكتان أو من الكتان وحده ، وقد أمر المستنصر بتأسيس مصانع للنسيج وخاصة الأقمشة الحريرية في فندق الخلة بسوق القماش وفندق الهناء وفندق باب السويقة وفندق الياسمينة ، ويبدو أن هذه المناسج الحريرية أخفيت في فنادق لأن هذه الصناعة كانت محتكرة من العائلات دون غيرها .

---

(١) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٢١ .

(٢) ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٧٨ ، ٨٣ .

واشتهرت صناعة نسيجية أخرى مثل الأغطية المقلمة (الحنبلي) والتي تصنع في عنابة وصطفورة ، واحتلت صناعة الأقمشة أماكن عديدة في أسواق المدن كالقيصيرية وهي سوق تتفرد بتجارة الأقمشة فقط ، وسوق القماش وسوق الجبة وسوق الغزل وسوق القشاشين [(١)] ، واشتهرت سوسة بأقمشتها الكتانية ، وجربة بالقماش الإفريقي الذي يلبسه الملوك الحفصين [(٢)] ، وقفصة بصناعة الشيلان والملابس والعمائم ، ومدينة أوربس التي لم يكن يعرف أهلها إلا النسيج والفلاحة وبطرة بصناعة الشاشية وأقمشة الصوف بشكل عام ، وأشتهرت مدينة ميلة [(٣)] بصنع أغطية الأسرة [(٤)] .

وكان النساء ينسجن الأقمشة تحت أيدي معلمات يقمن بتدريبهن وسط أناشيد تبث روح التدين والتكبير ، وكان النسج يتم على نول عمودي بسيط يتركب من مسداتين أفقيتين متطابقتين ممدودة بسداة وتشدهما دعامتان عموديتان وتمر الخيوط بواسطة اليد أما النول الأفقي المخصص للرجال فهو منتشر على نطاق كبير ويتركب من آلة يحركها النساج بواسطة دواسة ومن مكوك يستعمل لتمرير الخيط [(٥)] .

ويقول ليون في وصف القماش المصنوع في تونس " يصنعون فيها كمية عظيمة من القماش البالغ حد الإتقان ، يباع في إفريقيا كلها بأثمان باهظة ، لأنه رفيع ومتين ،

---

(١) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٦٧، ٦٨ . أحمد عامر ، الدولة الحفصية ، ص ٩٦ .

(٢) العامري : تاريخ المغرب ، ص ١٧١ .

(٣) ميلة : مدينة عتيقة بناها الرومان على بعد ٣٢ ميلاً من قسنطينة ، تعرف في القديم باسم ميلو ا بناء إسلامي عتيق يدعى القصبة . أحمد مدني ، الجزائر ، ص ٢٤١ . وليون المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٦٠

(٤) العامري : المرجع السابق ، ص ١٧١ . ليون : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٩٣ ، ١٠٩ .

(٥) برنشفيك : تاريخ إفريقية ، جـ٢ ، ص ٢٢٢ .

والنساء يتقّن الغزل غاية الإتقان ، فيجلسن في مكان مرتفع ويرخين المغزل كثيراً إلى أسفل ، يقعدن مثلاً في نافذة ويتركن المغزل يـ ل إلى ساحة الدار أو يـ ل من ثقب السقف بين طابق وأخر ، فيتكون الخيط بواسطة ثقل المغزل ويأتي جيد الانبساط والفتل منتظم الغلظ " [١] .

وأيضاً صناعة الجلد أي دبغة ونقشة وزخرفته [٢] وهي باهظة التكاليف إذ تتم معالجة الجلود في جرار كبيرة باستخدام الكلس والملح وقشرة للدبغ [٣] ، وأشتهرت مدينة القل [٤] بصناعة الجلود التي تتوفر بكميات كبيرة حتى أ ا تصدر إلى الخارج والباقي تزود به صناع الأحذية والسراجين الذين يصنعون الجزم للجنود والضباط ، وفي تجليد الكتب ، وتتم ـيئة الجلود وإعدادها في أسواق السراجين ، وأسواق الخرازين ، وكانت صناعة الجلود والصباغة التي تتم بالملونات الطبيعية ذات الأصل النباتي والنوعية الجيدة ، تقام في أطراف المدن تفادياً للروائح الكريهة المنبعثة منها وتجنباً للتلوث والإزعاج [٥] .

---

(١) ليون الإفريقي : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٧٤ .
(٢) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٩٦ .
(٣) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٢٢ .
(٤) القُلّ : مدينة كبيرة بناها الرومان على ساحل البحر عند قدم جبل شاهق ، وأسمها القديم شلو ، احتلها النورمانديون ثم أستولى عليها بربروسا ، ليون : المرجع السابق ، جـ٢، ص٥٤ . أحمد مدني ، الجزائر ، ص ٢٣٤ .
(٥) ليون : المصدر السابق ، ص ٥٤ . الدولاتلي : المرجع السابق ، ص ٧٠ . برنشفيك ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٢٣ .

اشتهرت أيضاً صناعة الخزف اليدوي في كل مكان (الملحق ، ص ٢٤٧) ، وكانت مدينة نابل [٦] تشتهر بالخزف المطلي الذي يمثل أحـد البضائع المصدرة للخارج ، ويمثل الخزف في الساحل صناعة م لية يقمن ا النسوة هناك ، واستخدم الخزف في النقش على الخشب المعد للأثاث وعلى الجدران للتزويق ، وكان الفخاريين الذين يصنعون أباريق وأواني وقمافم يستعملون مخرطة يحركو ا بأرجلهم ثم يتولون (شي) الخزف في أفران خاصة [١] ، واشتهرت قفصة بصناعة الزجاج والأواني الذهبية ، وزوارة [٢] بصناعة الجبس والجير حتى أن أهل هذه المدينة لا يعيشون إلا من هذه الصناعة وكانت في سوسة وتونس وقفصة معامل لصناعة الجليز وامتازت بالإجادة في النحت على الخشب وصناعة الجص [٣] .

وأيضاً كانت في إفريقية صناعة المعادن وخاصة الحديد والرصاص المتوفر في عنابة والأوربس وقرب بجاية [٤] ، وصناعة الملح الذي اشتهرت به مدينة تفزة [٥] حتى أنه

---

(٦) نابل : أو نابولي رإدس مدينة صغيرة على ساحل البحر قرب حلق الوادي بناها الرومان ويسميها المغاربة نابل . ليون : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٨٢ .

(١) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٢) زوارة : مدينة صغيرة على ساحل البحر المتوسط ، تنقسم إلى زوارة الصغرى والكبرى والصغرى تعرف بوطن المرابطين ، والكبرى كوطين وهي أضخم من الأولى وأكبر . التجاني : الرحلة ، ص ٢٠٧ ، ٢١٠

(٣) العامري : تاريخ المغرب ، ص ١٧٢ .

(٤) الأدريسي : نزهة المشتاق ، ص ٩٩ /١٠٥ .

(٥) مدينة إفريقية تبعد عن تمبكتو ودرعة مسيرة عشرين يوماً ، يقيم فيها أناس من أصل أجنبي يأتون مع القوافل كمنجمين يستخرجون الملح ، وهي أرض سبخة شديدة الملوحة . ليون : وصف إفريقيا ، جـ ٢ ، ص ١٠٨ / ١٠٩ .

يوجد فيها بكثره ويشبه مقالع الرخام ، وكانت له مناجم على طول البلاد التونسية والطرابلسية وأشهر سباخ الملح سبخة (راس المخبز) ، الواقع غرب زوارة [٦] .

ومن الصناعات المعروفة في تونس صناعة الصابون وصانعة العطور ، وصناعة الشمع والفضة وصناعة المنجنيق والبارود ، وصناعة الحُصر ، وصناعة الإبر ، وغيرها من الصناعات [١] .

هذا وقد نظمت الدولة الصناعات تنظيماً جيداً فجعلت لكل صناعة مكان خاص ا وأسواق خاصة بالصناعات ولكل صناعة رئيساً يعرف بالأمين ، يتولى الفصل عند ال اع بين الصناع وزبائنهم ويرأس هؤلاء الأمناء رئيس ذو نفوذ كان له فصل القضاء في سائر نوازع الصناع ، وكانت الصناعات الثمينة تتجمع حول الجامع الأعظم [٢] ، والصناعات المسببة للتلوث والإزعاج في أطراف المدن ، ولاقت الصناعة رواجاً كبيراً في داخل البلاد وخارجها .

---

(٦) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٢٣ . وليون : المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(١) العامري : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(2) عبد الله الترجمان : تحفة الأريب ، ص ٨٨ . والعامري : المرجع السابق ، ص ١٧٠ . والدولاتلي : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

المبحث الرابع : التجارة والعلاقات الاقتصادية بين الدولة الحفصية ودول الجوار :

شهدت التجارة في هذا العهد ازدهاراً ملحوظاً ، فأوجدت العديد من الأسواق ومنها سوق الشماعين (١) ، وسوق العطارين (٢) الذي بلغت عدد دكاكينه السبعمائة وسوق القماشين (٣) ، وسوق النحاسين (٤) ، وسوق الكتبيين (٥) ، وسوق الربع الخاصة بالسلطان الحفصي ، وسوق العبيد ويسمى سوق المعرض الواقع في قلب المدينة ، وسوق الجزارين والفاكهانيين ، واللّبانيين ، والقصابين ، وأسواق السمك التي توجد خارج باب البحر ، وأسواق خاصة بالحيوانات في العاصمة منها ، رحبة الغنم ، وبطحاء الخيل (المركاض) وغيرها (٦) (الملحق ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤) .

وكانت الأسواق التجارية على نوعين يومية ، مثل الأسواق المذكورة أعلاه ، وأسواق أسبوعية وهي متوفرة في المدينة والبادية بكثرة ، ومنها (سوق الجمعة) الذي يقام خارج أسوار عنابة يبيع فيه التجار منتوجا م من الزبدة والحبوب (٧) ،

---

(١) كان سوق البلاغجية في العهد الحفصي يسمى سوق الشماعين . الشماع : الأدلة البينة ، ص ٥٧ .

(٢) سوق العطارين : أنشأها الأمير أبو زكرياء الأول في القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي . سليمان زبيس : حول مدينة تونس ، ص ٣٨ .

(٣) سوق القماشين : أنشأها الأمير أبي عمرو عثمان في القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي . زبيس : المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٤) سوق النحاسيين : موجودة في بداية الدولة الحفصية في القرن السابع . زبيس : المرجع السابق نفسه .

(٥) سوق الكتبيين : موجود في بداية الدولة الحفصية . زبيس : المرجع السابق نفسه ، ص ٣٨ .

(٦) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٩٧ . الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٩٦ ، ٧٠ .

(٧) التجاني : الرحلة ، ص ١٣٥ .

وسوق (الإثنين) المقام في جبال قسنطينة يقام كل أسبوع ويقصده عدد كبير من تجار قسنطينة والقالة [١] ، وسوق (الخميس) و (الاثنين) المقامين في بجاية [٢] ، وفي جربة يقام سوق مرة في الأسبوع يحتشد فيه جميع سكان الجزيرة وعدد من الأعراب حاملين معهم كمية من الصوف لبيعها في هذا السوق الأسبوعي الكبير [٣] ، كما أشار التجاني [٤] إلى وجود معارض تجارية ينظمها أهل توزر .

وقد ساعد نظام الإدارة الجمركية على تشجيع التجارة فكانت الحبوب تعفي من الضرائب حتى يتم تمويل البلاد منها ، ومنحت للتجار الأجانب حقوق التصدير للبضائع معفاة من الضرائب إن استوردوا لتونس بضائع تساوي البضائع التي يصدرو ا ، فإن زادت صادر م على واردا م فالضريبة ٥% على الفارق وكانت الإدارة لا تأخذ أية ضريبة على الصفقات المنعقدة في الدولة والأجانب ، مما أدى بدوره إلى تشجيع البضائع المحلية ، فانتعش اقتصاد البلاد ، حتى أنه قدر دخل هذه الإدارة الجمركية على العهد الحفصي بدخل سنوي لا يقل عن ١٧٠,٠٠٠ ألف دينار [٥] .

وكانت التجارة على نوعين داخلية وخارجية ، فالتجارة الداخلية التي تتم عادة بين المدن الإفريقية مثل القمح الذي تستورده تونس من مواطن تكاثره في عنابة أو الأربس ، أو باجة ، والفواكه التي تستوردها صفاقس من مدينة قابس ، وتمور

---

(١) ليون : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٠٣ .
(٢) الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص ١٠٨ ، ١١٤ .
(٣) ليون : المصدر السابق ، ص ٩٤ .
(٤) الرحلة ، ص ١٢٨ .
(٥) العامري : تاريخ المغرب ، ص ١٧٤ .

الجنوب التي تصدر إلى الوسط والشمال مقابل الحبوب التي يوفرها التل والسباسب والواحات ، والتبادل التجاري بين تقرت وقسنطينة وبين الجريد والقيروان (٦) .

أما التجارة الخارجية فقد ساعد موقع تونس الإستراتيجي وكو ا همزة وصل بين المشرق والغرب ، على إقامة علاقات اقتصادية مع كثير من الدول ا اورة لها ، وكان اعتمادها في تجار ا الخارجية على ثلاثة طرق اثنان منها بري والأخرى بحري ، فالطريق الأول البري شمال جنوبي ربط إفريقية بالسودان ، وكان الاتجار مع السودان بواسطة القوافل التي تقتني الذهب من هذا البلد بثمن بخس عن طريق المقايضة ثم تقوم بتحويل كمية منه إلى المشرق وأوربا (١) ، وكانت مدينة وراكلا ميناء تجاري إفريقي هام للتجارة مع السودان ، حيث يقوم التجار بنقل منتوجات البربر إلى واركلا ويستبدلو ا بما يأتي به التجار من السودان ، كذلك تعتبر مدينة مزاب رأس خط تجاري يلتقي فيه تجار الجزائر وبجاية بتجار السودان ، وكان تجار مسراته (٢) يستوردون المسك من السودان ويصدرونه إلى تركيا وغيرها من الدول (٣) ، وأشار ليون الإفريقي (٤) : بثراء تجار مدينة غدامس (٥) لأ م يتجارون مع السودان .

---

(١) الإدريسي : المصدر السابق ، ص ١٢١ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٦٥ .

(١) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٧٣ .

(٢) ليون : وصف إفريقيا ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ ، ١٣٦ .

(٣) مسراته : إقليم على شاطئ البحر المتوسط يبعد نحو ١٣٠ ميلاً عن طرابلس . ليون : المصدر السابق نفسه ، ص ١١١ .

(٤) ليون :ا لمصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ .

الطريق البري الثاني برية شرقية غربية تصل إفريقية بأقطار المشرق من جهة والمغرب والأندلس من جهة أخرى ، فكانت إفريقية تستغل هذا الطريق في فرض ضرائب على دخول السلع عند الحدود وخلال مرورها ببعض المدن الإفريقية ، وتنشط التجارة عن هذا الطريق في موسم الحج ، حيث يصطحب القوافل تجار محترفون أو أفراد ينتهزون فرصة الحج للاتجار .

وكانت مصر تستورد من إفريقية الأسماك وخاصة من مدينة صفاقس المشهورة بنوع جيد من السمك يسمى (سباريس) ، وتستورد الزعفران من جبال غريان ، والزبيب والقماش من جربة (١) ، والقمح من أوجلة (٢) .

أما الطريق البحري (٣) الذي ربط تونس بالموانئ الأوربية خاصة المدن الإيطالية بيزه ، البندقية ، جنوة ، والتي كانت تحلم بما في المشرق من نفائس وبضائع ، ولم يكن لها بد من عقد أواصر الصداقة مع البلاد العربية وخاصة البلاد المطلة على البحر حتى تصبح الوسيط التجاري الطبيعي بين الشرق والغرب ، وبما أن إفريقية هي همزة الوصل بين الشرق والغرب ، سعوا إلى قيام علاقات اقتصادية منذ قيام هذه الدولة

---

(٥) غدامس : مدينة قديمة ، تقع جنوب تونس ، ا دواميس وكهوف وكانت سجوناً للملكة الكاهنة التي كانت بإفريقيا وفيها غرائب من البناء وأهلها بربر مسلمون وملثمون على عادة بربر إفريقية . الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص ٤٢٧ .

(١) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٧٣ . ليون : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٨٧ . التجاني : الرحلة ، ص ٦٨ ، ٨٤ .

(٢) أوجلة : مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب ضاربة إلى البر ، وقال أن أوجلة أسم للناحية وأسم المدينة أرزاقية . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٣٦٨ .

(٣) الدولاتلي : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

حتى يمكن لهم السيطرة على كل منفذ بري وبحري لنشر تجارة الشرق في أوربا الغربية ، ففي عهد السلطان أبو زكرياء الأول توجه مبعوث تلك المدن إلى تونس ، وأبرمت البندقية معاهدة سنة ١٢٣١هـ ، وبيزة ١٢٣٤م ، وجنوة ١٢٣٦هـ ، وتحدد من خلال هذه الاتفاقيات مبادئ تعاطي التجارة واستقرار النصارى في إفريقية وتمتعهم بالحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم ، وبلغ مدة صلاحية الاتفاقية مع البندقية وبيزة ٣٤ سنة ، وكان فيها بند يحذر على الجنوبيين تعاطي التجارة والإقامة في غير المراكز المحددة لهم ، وعدم تشجيع القرصنة ومعاقبة ومطاردة مواطنيهم الذين يلحقون الضرر بالأفارقة ، وذلك بالاشتراك مع المسلمين في البحر ، ويتحصلوا مقابل ذلك على حق توريد القمح من إفريقية بدون رسوم خلال سنوات الجدب بشرط أن لا يفوق سعر القفيز في البلد الأصلي ثلاثة دنانير ونصف ، وتبلغ الكمية المرخص بتصديرها حمـولة خمس سفن ، بينما تكون الحمولة التي تصدرها البندقية ثمان سفن إلى أثنتا عشرة [1] .

أما المعاهدة مع بيزة فلم تحمل شيئاً من هذه الشروط بل أنه يسمح لرعاياهم بالإقامة خارج تونس في كل من بجاية – عنابة – المهدية وصفاقس وقابس ، وطرابلس ويرجع السبب في تمتع بيزة بامتيازات عن غيرها من المدن الإيطالية لأ م يتمتعون بحظوة واعتبار وخطورة أكبر من غيرهم من المدن الأوربية ، وبالإضافة إلى الإيطاليين كان البروفنسيون ولا سيما أهل مرسيليا الذين يترددون على موانئ إفريقية ، وفي

(١) شارل اندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس ، الجزائر ، المغرب الأقصى) من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠م ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٧ .

سنة ١٢٢٩هـ حدد قانون مرسيليا نظام بيع الخمر في بعض المراكز التجارية بتونس وبجاية وأشـارت الوثائـق الرسمية في سنة ١٢٣٣هـ إلى زيارة قنصل مـرسيليا إلى بجاية [٢] ، وارتبطت صقلية أيضاً في عهد الإمبراطور فريدريك الثاني بعلاقات اقتصادية مع تونس على عهد السلطان أبو زكريا الأول كانت إفريقية تدفع خلالها لصقلية ضريبة سنوية تقدر بثلاثة آلاف قطعة ذهبية .

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف أسباب هذه الضريبة إلا أنه يبدو لنا أ ا مقابل حماية الموانئ الإفريقية التجارية من قراصنة جنوة التي أمتنع السلطان أبو زكرياء من تجديد المعاهدة المعقودة بينهم بسبب الهجوم الذي قام به الجنوبيين على ميناء بجاية واستلائهم على سفينة تجارية تابعة لجمهورية بيزا الإيطالية وإحراقهم لعدة سفن كانت راسية في الموانئ وكان هذا رد فعل من الجنوبيين لأن تجاراً من بيزة استولوا على سفينة تجارية كانت تقوم برحلا ا بين تونس وموانئ الأندلس ، وكان صراع المدينتين الإيطاليتين من أجل استقلال تلك الموانئ دافعاً بابي زكريا إلى إقامة علاقة حماية مع ملك صقلية فريدريك الثاني [١] .

واستمرت العلاقات الاقتصادية في عهد الخليفة المستنصر الحفصي بل وشهدت ازدهاراً كبيراً بعد توقيع اتفاقية الصلح بعد فشل الحملة الصليبية الثامنة على تونس التزم المستنصر الحفصي بموجبها على دفع غرامة مالية لفرنسا ، ودفع الضريبة المفروضة من فريدريك الثاني ملك صقلية السابق إلى شارل دانجو الملك الجديد ،

---

(٢) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٥٨ . شارل أندرية : تاريخ إفريقية ، جـ٢ ، ص ١٩٦ .

(١) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٦٥ . محمد العروسي " السلطة الحفصية ، ص ١٥٦ .

وتضمنت كذلك المصالح التجارية بين الدول المعنية وعدم الاعتداء على الأراضي التابعة للمستنصر الحفصي حاضراً أو مستقبلاً [٢].

وجـددت أرجونة بقيادة ملكها خايم الأول عقد معـاهدة سنة ١٢٧١م وكانت سارية المفعول لمـدة عشر سنوات ، كما استأنفت المعاهدات مع المدن الإيطالية (جنوة ، بيزه ، البندقية) بعد توقفها أثر الحملة الصليبية ، وأبرمت البندقية وجنوة معاهدتين مع ملك تونس في سنة ١٢٧١م – ١٢٧٢م ، وتستمر لمدة أربع سنوات مع البندقية وعشر سنوات مع جنوة وأضافت هذه المعاهدة مع جنوة إعفاء من الرسوم الجمركية بإفريقية وتحصلت البندقية وفلورنسا طيلة القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع الهجري على امتيازات للتجارة في تونس أما الجنوبيين فقد حافظوا على تجار م [١] مع تونس إلى أواخر القرن التاسع الهجري .

الصادرات :

كانت بيزة تستورد من بجاية اللوز والزبيب والجلود ، وكذلك الجزات والخام من بجاية وطرابلس إلى مرسيليا وجنوة والبندقية وبيزة ، وكانت جمهورية البندقية متزعمة لتصدير ملح إفريقية إلى أوربا وبلاد المشرق فكانت تنقل كميات كبيرة من الملح إلى السودان عن طريق البر ، وكانت البندقية تريد احتكار هذه التجارة وهذا ما

---

(٢) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٧٣ .

(١) برنشفيك : المرجع السابق نفسه ، ص٩٧ . ابن القنفذ : الفارسية ، ص ٣٣٣ .

يتضح من رد سفير البندقية على السلطان الحفصي قائلاً له : " إن الجمهورية لا ترغب إلا في تجارة مادتين اثنتين هما الملح والحبوب " [٢] .

ومن ضمن صادرا ا إلى أوربا الخزف والمرجان والزرابي التي تصدر من تونس وطرابلس غالباً إلى المدن الأوربية ، وقد كان جهاز الأميرة الأرجوانية إيزابيلا يشتمل على زربيتين مصنوعتين في مدينة تونس وقد تحصلت البندقية على حق تصدير الزرابي من طرابلس بدون رسوم جمركية وكان الجنوبيون يستوردون القمح من سكيكدة الإفريقية وكذلك زيت الزيتون والأقمشة – والتمور [٣] .

الواردات :

استوردت تونس كثيراً من المتوجات لعل من أبرزها الزيوت الأوربية ، الخمور ، المواد الطبية ، والتوابل الشرقية (قـرنفل ، والقرفة ، الزنجبيل ، وجوز الطيب ، السنا ، الزعفران ، الصبر ، الصمغ ، الكافور) .

وكذلك العطورات مثل البخور والمسك ، العنبر ،ومواد الصباغة مثل (النيلة ، والبقم) [١] .

---

(٢) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٣) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ . شارل : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٩٧ .

(١) البقم : وهو شجر من أمريكا يحتوي خشبه على مادة ملونة تستعمل في الصباغة . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٠ .

وتستورد تونس أيضاً الكتان والقنب والأقمشة التي ترد من مرسيليا وخاصة قماش (الأيتامين) وهو قماش رقيق – وتستورد الخشب والحديد والقصدير – النحاس – والسيوف – الذهب والفضة – الأحجار الكريمة كالياقوت الأحمر والوردي والزمرد والفيروز واللؤلؤ والجوهرات المختلفة التي يضاف إليها المصنوعات الزجاجية الواردة من البندقية مثل المرجان المصنوع في جنوة أو في مرسيليا ، والأسلحة التي تصدر إلى تونس في الخفاء نظراً للمنع الصادر من ملك أرجونة خايم الأول ضد إفريقية [٢] ، ذكر الملك القطلونيين اللذين رخص لهما في التحويل إلى تونس بالقرار الذي اتخذه في برشلونة بالاتفاق مع الدومينكيين والفرنيسيسكّيين بخصوص منع إمداد المسلمين بالمواد التالية : (الأسلحة ، والحديد ، والقمح ، والشعير ، والذرة البيضاء ، والدخن ، والفول ، ودقيق كل الحبوب ، وحبال القنب أو غير ذلك من المواد الصالحة لصنع حبال السفن والرصاص " [١] .

ولكن هذا القرار لم يطبق دائماً وكثيراً ما كانت الدول تتراجع في قرارا ما لصالح مصالحها الخاصة .

وقد ساعد على رقي التجارة وبلوغها هذه الدرجة من الازدهار بالإضافة إلى العوامل التي سبق تعدادها الاتصال المباشر بين الأفارقة والتجار الأجانب بالعاصمة حيث تمكنوا من تنظيم شؤونهم التجارية وتعلموا طرق المعاملات في جو من الثقة

(٢) ليون : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٠٦ ، ١٠٨ . شارل : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٩٧ .
برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٠ .

(١) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ .

المتبادلة بالإضافة إلى وجود شركات منظمة لتبديل العملة وتسعيرها ومؤسسات للقروض [٢] ، وهكذا امتازت تونس باقتصاد له كل خصوصيات الدول الكبرى .

---

(٢) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ١٠٠ .

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

أولاً : الأجناس والطبقات والعلاقات بينها .

ثانياً : العادات الاجتماعيـة (مظاهرهـا – وآثارها) .

المبحث الأول : الأجناس والطبقات والعلاقات بينها :

تعددت الأجناس وتنوعت الفئات الاجتماعية في مجتمع الحفصيين وقدر المؤرخ ابن الشماع [(١)] عدد منازل هذه الفئات في تونس سنة ٧٦٣هـ بسبعة آلاف م ل ، وعدها مؤرخ [(٢)] آخر في سنة ٩٢٢هـ بعشرة آلاف م ل ، وذكر برنشفيك أن عدد السكان في عهد السلطان عثمان أخر عظماء بني حفص قد بلغ ثمان مائة ألف نسمة [(٣)] ، ولو القينا نظرة سريعة على الفئات القاطنة بمدينة تونس – على سبيل المثال – لوجدناها متفرعة إلى عدة أعراق وأجناس مختلفة ، فبحكم موقع تونس الاستراتيجي أصبحت محط رحال أقوام عديدة ، فالموحدون الحفصيون أنفسهم غرباء عـن إفريقية واختاروا لهم في المدينة حياً خصاً م فضلاً عن القصبة المقر الرسمي للدولة ، وهي تحتل منطقة شاسعة في الجنوب الغربي وتتألف مجموعة القبائل الموحدية والحفصية من مصمودة وهنتاتة ، والقبائل التي ساند م مثل هرغة وهزرجة ، وتينملل وغيرهم وكانت معظم هذه القبائل تقيم في وسط البلاد ، والمناطق الشمالية منها [(٤)] ، أما بقية القبائل البربرية فكانت منتشرة في نواحي عدة من إفريقية ، فقبائل زواوة [(٥)] في المرتفعات التابعة لمنطقة القبائل الكبرى أو (جبال زواوة) كما يطلق عليها الواقعة غرب بجاية أو في منحدرات جبال جرجرة أو المنتشرة شرقاً في المنطقة الغابية من جبل

---

(١) الأدلة البينة النورانية ، ص ١٠٥ .

(٢) ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٧٤ (ومنها ألف أسرة خارج باب المنارة وثلاثمائة في ربض باب السويقة " .

(٣) برنشفيك : إفريقية في العهد الحفصي ، جـ١ ، ص ٣٨٨ .

(٤) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٨٩ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٥٥ .

(٥) زواوة : قبيلة بربرية من كتامة وهي أكبر قبائل كتامة ولهم بطون وشعوب كثيرة وهم من ولد سمكان بن يحي بن ضري بن زحيك بن مادغيس . ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٢٦١ .

الزاب ، وكانت قبائل آيت فراوسن وإرثن وعيسي وبني توجد أيضاً في هذه المناطق ، أما أهالي آيت جناد فكانوا يقيمون في السلسلة الجبلية الممتدة شمال وادي سباو .

وفي وادي السمام كانت أعداد كبيرة من قبائل صنهاجة البربرية ، وفي منطقة القبائل الصغرى ، وتـحديداً في جبال البابور كانت قبائل لواتة [(١)] ، وفي مدينة جيجل [(٢)] التي قدر ليون الإفريقي [(٣)] سكا ا بستمائة أسرة ، كانت تقيم قبائل بربرية وصفها الإدريسي [(٤)] بالغلظة والشراسة وينسبون إلى بني زلداوي أو بين زنداي .

وفي سطيف وميلة كانت قبائل كتامة منتشرة إضافة إلى إقليم قسنطينة الداخلي، وفي سهل تاغرت وفرجيوة كانت قبائل سدويكش البربرية التي اندمجت مع العرب ، وفي سلسلة جبال الحضنة أقامت قبائل بربرية مختلفة مثل قبائل العجسية وريفة الموجودة أيضاً في تقرت [(٥)] إلى جانب قبائل زناتة ، وفي سهل عنابة كانت قبائل ولهاصة البربرية ، وفي جبل أوراس قبيلة بربرية تعرف بالشاوية (أي رعاة الشاة) وهم قوم جمعوا بين حياة الترحال والاستقرار وكانوا خليطاً مـن لواتة وكتامة وهوارة ، وفي منطقة نقاوس والسهول المحيطة ا كان هناك فرعان من لواتة وهما بنو

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٣٠٨ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٣١٥ .

(٢) جيجل من تأسيس القرطاجنيين كانوا يدعو ا إيجلجيلي ، وأن بربروسا لما جاء لإنقاذ السواحل الإفريقية من قرصان الأسبان اتخذها عاصمة له ، وتقع حالياً في شبة جزيرة منخفضة منبسطة بعيده عن بجاية بنحو ٩٦كلم . أحمد توفيق مدين : كتاب الجزائر ، ص ٢١٦ .

(٣) وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٥٢/٥١ .

(٤) نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، ص ٩٧ .

(٥) تقرت أو تقرة : مدينة قديمة بناها النوميديون على جبل في شكل نتوء يمر في سفحها ر صغير يقطعة جسر متحرك ، وتقع على بعد ٥٠٠ ميل جنوب البحر المتوسط ، وهي مسورة ما عدا جهة الجبل فإن صخورها تحميها . ليون الإفريقي ، جـ٢ ، ص ١٣٥ .

ريمان وبنو باديس ، كما يكثر سكان لواتة المنحدرين من قبائل مطماطة وأولاد دمار القديمة ومنهم الورغمة في جبل دمار ، أما جبل نفوسة فكان أهلاً بسكان من قبائل نفوسة ومغراوة [(١)] وفي ورقلة كانت قبائل زناتة تختلط مع سكان السودان ويتزاوجون معهم حتى ظهر خليط من القبائل الممزوجة بالعنصر الزنجي .

وفي منطقة التل الأعلى في قسنطينة كانت تكثر قبائل هوارة فهذا الإقليم المفضل لديهم ، إضافة إلى مدينة جربة التي كانت تضم هوارة وكتامة والماية وفي نفراوة يكثر قبائل نفزاوة البربرية الذين أعطوا أسمهم لهذه المدينة ، أما مدينة الحامة فكانت مقسمة بين قبائل زناتة وفروعها من توجين وبنو رتاجن وأولاد يوسف [(٢)] .

وما يمكن قوله أن منطقة القبائل الكبرى أو [جبال زواوة] والقسم الشرقي من منطقة القبائل الصغرى ومنطقة أوراس تقريباً وجبال دمار ونفوسة هي مناطق احتفظ فيها العنصر البربري بأصالته ولم يمتزج مع القادمين الجدد .

وشهد القرن الثالث عشر [(٣)] نزوح قبائل عربية من بني هلال وبني سليم ، استوطنوا تونس وأضروا السكان البربر عندما زاحموهم في مساكنهم فأدوا إلى هجرتهم إلى المدن أو التجائهم إلى المرتفعات ، بينما سيطر هؤلاء العرب على أجزاء متفرقة من البلاد فالأثبج [(4)] انفردوا بجبال أوراس الشرقية ، وعرب الحد لجأت في

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٢٦٤ . ليون : المصدر السابق نفسه ، جـ١ ، ص ٦٦ . وبرنشفيك المرجع السابق نفسه في أجزاء متفرقة منه ، ص ٣٢٢ / ٣٢٥ ، ٣٢٨ .

(٢) برنشفيك : المرجع السابق نفسه ، جـ١ ، ص ٣٢٩ .

(٣) المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٥٧ .

(٤) الأثبج الهلاليون يزعمون أنهم من ولد أبي ربيعة بن نهيك بن هلال وكانوا أوفر القبائل الهلالية الداخلة إلى إفريقية وأكثرهم بطوناً ومنهم بني دريد ، وكرفة ، وقرة ، وعياض ، والعاصم ، ومقدم ، ولطيف . ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٢٢ ، ٢٤ . السلاوي : الاستقصاء ، جـ٢ ، ص ٢٢١ .

المناطق التي تلي زاب ودة ، أما أولاد ثابت وهم فرع من الأثبج فأقطعهم الحفصيون جانب أوراس الشرقي والزيبان الشرقية واستخدمهم صاحب الزاب كجنود في الجيش كما استقر بني دريد [١] الذين تولوا رياسة هلال عند دخولهم إفريقية وكان لهم دور كبير في استقرار القبائل العربية بإفريقية فكانت مواطنهم ما بين بونة وقسنطينة إلى قرية طارف مصقلة وما يحاذيها من القفر ، أما في الزاب فقد استقر بنوا الضحاك [٢] بن شرف بن أثيج وبني لطيف [٣] ، فقد اخضعهم الذواودة بعد أن تغلبوا عليهم فاستقروا في بلاد الزاب مثل الوسن وغريبو و ورة وبادس وأصبحوا من رعايا والي الزاب وبسكرة له عليهم حق الجباية [٤] .

أما قبائل رياح [٥] الهلالية فنقلهم الحفصيين إلى ضواحي القيروان وبلاد قسيطلة لمنافسة الذواودة لما أنكروه عليهم من استبداد ، ويبدوا أ م حرضوا بني مرداس من

---

(١) بني دريد : فرع من الأثبج الهلالية ولهم بطون عدة منها أولاد سرور ، وأولاد عطية ، وأولاد عبد الله . ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٢٢١ .

(٢) فرع من الأثبج أيضاً ، وهم بطون كثيرة تصارع على رئاستهم أميران أبو عطية وكلب بن منيع وانتصر كلب بن منيع وإستئثار بالرئاسة ، ورحل ابن عطية إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى واستقر ابناء كلب في الزاب واتخذوا المدن مقراً لهم . ابن خلدون ، المصدر السابق نفسه ، جـ٦ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) بنو لطيف فرع من الأثبج لهم بطون عدة منهم اليتامي من أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف وذو مطرف وذو وابي ، وأبي الخليل ، وذو جلال بن معاصي وأولاد لقمان بن خليفة وأولاد براز بن معن بن محيا وأولاد جريد بن علوان بن لقمان وينسب إليه بنو مزني ولاة الزاب وبسكرة . ابن خلدون ، جـ٦ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٢٣، ٢٤، ٢٥ . والسلاوي ، الاستقصاء ،جـ٢ ، ص ٢٢١ ، ٢٢٣ . برنشفيك ، إفريقية في العهد الحفصي ، جـ١ ، ص ٣٢٣ .

(٥) قبائل رياح الهلالية : يرجع نسبهم إلى رياح بن أبي ربيعة بن يك بن هلال بن عامر وهو أخو الأثبج بطو م ، عمر ، علي ، أولاد همان وفاوع ، عامر ، وسعيد ، ومرداس ، وخضر . ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٣٢ ، ٣٧ .

بني سليم عليهم فحاربوهم حتى طردوهم من شرق إفريقية إلى غر ا واستقر الكعوب ومرداس من بني سليم من قابس إلى بونة ونفطة والذواودة بضواحي قسنطينة وبجاية من التلول وأجزاء من الزاب وريغ وورقلة وما ورائها من القفار بينما استقرت بعض قبائل الذواودة مثل أولاد عكسر وأولاد سباع بجبل أوراس والزاب وبلاد الحضنة [(١)] (تقاوس ومقرة المسيلة) .

على أن مختلف القبائل العربية قد جاورت رياح واندمجت معها مثل بنو رئاب بن حجير المنتسبون إلى بني ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وبنو عنترة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وبنو شداد بن الأشجع ابن هلال بن عامر بن صعصعة المستقرون بضواحي بونة وفرقة من بني سعد بن بكر بن هوازن المستقرون بنواحي باجة وهم يعسكرون مع جند السلطان [(٢)] ومن بني دهمان أولاد جامع كانوا ولاة على قابس وأولاد جبارة من فادع ولاة على سوسة [(٣)] .

أما قبائل بن سليم فاستقر منهم بني عوف [(٤)] في بلاد العناب بإفريقية وحالف الحفصيين أولاد جامع من مرادس ولكنهم ثاروا على الحفصيين وحالفوا الموحدين في المغرب واستدعاهم السلطان أبو زكريا الأول للطاعة فأبوا ، فأصطنع الحفصيين قبائل الكعوب لمحاربة المرداسيين وطردهم من إفريقية إلى القفر ، واستقل المرادسيون أيام مرابع الكعوب في الصيف بالتلول ليسيطروا على ضواحي قسنطينة فإذا انحدرت

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص٣٢ ،٣٧ . وبرنشفيك ، المرجع السابق نفسه ، ص٣٢٠ / ٣٢٢ .

(٢) القلقشندي : اية الأرب ، ص ٢٥٨ ، ٢٩٠ .

(٣) ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٣٧ . رحلة التجاني ، ص ٣٠ ، ٩٤ .

(٤) بني عوف بن ثة بن سليم واشهر بطـو م مرداس وأولاد جامع علاق ومنهم أولاد يحيي وأولاد حصن . ابن خلدون المصدر السابق ، جـ٦ ، ٧٤/٧٥ .

الكعوب إلى مشاتيهم بالقفر شتاءٍ انسحبت مرادس إلى القفر ولهم على توزر ونفطة وبلاد قسيطلة أتاوة يؤدو ا إليهم [(١)] .

استقر بنو حكيم ما بين سوسة والأجم بينما استقرت بطون أخرى من بني سليم أمثال أولاد هورة بن عوف وأولاد نمي والبدرانة ، وأولاد أحمد والحمد والمسا ة الحسين وغيرهم ما بين الاجم والمباركة من نواحي قابس واستقرت بعض قبائل بني يزيد ما بين قابس ونفوسة وما إلى ذلك من الضواحي والجبال [(٢)] .

واستقر أولاد حجر ومنهم شيوخ مرغم وشيوخ ذؤيب حول قابس وعلى الطريق إلى صفاقس [(٣)] .

هذا وبالرغم من الصورة العدائية التي ظهر ا العرب في إفريقية ، حتى أن بعض فقهاء تونس حذروا السكان البربر من التعامل معهم ووصفوهم بالمفسدين [(٤)] ، وجدت علاقات حسنة بين بعض العرب والسكان البربر ، بل أن بعض سلاطين بني حفص صاهر بعض القبائل العربية [(٥)] ، فأبو فارس عبد العزيز السلطان الحفصي الذائع الصيت كانت أمة عربية من قبيلة المحاميد [(٦)] بطرابلس وتدعى " جوهرة " .

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٧٤ ، ٧٥ . وبرنشفيك ، إفريقية في العهد الحفصي ، جـ١ ، ص ٣٣٦ .

(٢) القلقشندي : اية الأرب ، ص ٣٢٢ . ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٣) العمري : مسالك الأبصار ، جـ٣ ، ص ٧٢ / ٧٤ .

(٤) الشماع : الأدلة البينة ، ص ١٣٨ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٢ .

(٦) هم بطن من بني يزيد من القبائل المنتسبة لبني سليم ، والمحاميد من أولاد وشاح وهم بنو محمود بن طوب بن بقية بن وشاح كانت رئاستهم في آخر القرن الثامن في بني رحاب بن محمود ثم لأولاد سباع بن يعقوب

بل أن بعض القبائل البربرية اندمجت مع العرب [قبائل ولهاصة وسدويكش] وحاولت الانتساب لهم وقلدوهم في عاداتهم ولغتهم ، فكانوا يعيشون في الخيام كالعرب ويزاولون تربية الإبل والبقر ويركبون الخيل ، وكذلك قبيلة (الشاوية) ، الذين أمتزجوا مع العرب وتزاوجوا منهم حتى أصبح مـن الصعب التمييز بينهم وبين العرب [١] ، أيضاً كان للعرب دور إيجابي في إفريقية فكانوا يأخذون مواشي السكان البربر لترعي مع مواشيهم وكان لهم تأثير على الناحية الاقتصادية في إفريقية بفضل خبرتهم الطويلة في تنمية الثروة الحيوانية وإمداد البلاد بالأنعام المختلفة وخاصة الخيول الأصيلة ، وساهموا في إنعاش التجارة أيضاً فكانوا مسيطرين على طرق التجارة ، فلا يجتازها غيرهم إلا بدفع [خفارة] أو [معلوم حماية] ، واحتكروا تموين بعض المدن الإفريقية مقابل توزيع منتجاتهم ، كما سيطروا على التجارة مع السودان ومصر وخاصة تجارة الملح ، وكانت لهم مساهمة في النواحي الإدارية فمنهم من تولى ديوان البحر بتونس وجباية سائر أعمال تونس ، كما أسندت وظائف القضاء والفتيا إلى علماء العرب في المناطق التي يسيطرون عليها [٢] .

وكذلك شهد العصر الحفصي هجرة الكثير من الأندلسيين إلى المغرب وخاصة إلى تونس وكانت الهجرة الأندلسية على مرحلتين [٣] ، الأولى في منتصف القرن

بن عطية بن رحاب وكانت مواطنهم بين قابس ونفوسة وفي طرابلس . ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٨٥ . التجاني : الرحلة ، ص ١١٨ .

(١) ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، جـ١ ، ص ٦٦ . وبرنشفيك ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٣٢٠ ، ٣٢٣ .

(٢) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ١٦٦ .

(٣) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٨٩ .

السابع هجري بعد سقوط بلنسية وشاطبة ومرسية وجيان ، وقرطبة ، وأشبيلية ، أما المرحلة الثانية فكانت بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٨هـ وقد وصف المقري الهجرة الأندلسية بقوله " فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس " [(١)] .

وأصبح الأندلسيون يشكلون جاليات كثيرة في تونس ، فكانت لهم أحياء خاصة بهم في النواحي الشمالية الشرقية من المدينة قرب الحقول والبساتين الممتدة خارج باب السويقة وقرطاجنة وأضفي الأندلسيون على جميع أحيائهم التي يقطنون بها الطابع الأندلسي (الملحق ، ص ٢٤٨) ، فاستخدموا ذوقهم وخبراتهم المعمارية والزخرفية في بناءاتهما الجديدة ، كما استخـدموا مهاراتهم في فلاحة الأرض وزراعتها بأساليبهم الزراعية المشهورة عنهم .

وكأنهم أرادوا أن يجعلوا أحياءهم نموذجاً يذكرهم بأحيائهم القديمة في الأندلس .

وأدى ظهور الفن الأندلسي في تونس إلى استقطاب السلاطين للعديد من الأندلسيين من فنانون ومعماريون لإضافة التجديد والابتكار في القصور الحفصية فظهرت القصور الحفصية مشربة بالطابع الزخرفي الأندلسي [(٢)] .

وفي نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) [(٣)] توافدت على تونس أعداد من المهاجرين الصقالبة أثر الاحتلال النورماندي لصقلية ، وكذلك سكان البليار من بني غاينة الذين كانوا يسكونون إفريقية من قبل كانت لهم جذور

---

(١) نفح الطيب ، جـ٤ ، ص ٥٢٨ .

(٢) الدولاتلي : المرجع السابق نفسه ، ص ٨٩ .

(٣) الدولاتلي : المرجع السابق نفسه ، ص ٨٨ .

فيها أيضاً فبنات بنو غانية كانوا يقيمون في إفريقية بعد أن نقلهم السلطان الحفصي أبو زكرياء الأول وكان لهم باب يعرف باسمهم (باب البنات) ، كما وجد العنصر اليهودي بكثرة في إفريقية وكانوا أكثر ثراء من بقية السكان فكانوا محتكرين لصناعة الذهب والفضة وغيرها من الصناعات ، فكان وجودهم يمثل رافد اقتصادي للبلاد أرادبني حفص الانتفاع به حيث كان اليهود يدفعون ضرائب اقتصادية للدولة مقابل السماح لهم بالتجارة ، إضافة إلى الجزية [(١)] التي كانوا يدفعو ا [(٢)] .

وكان لليهود حي خاص م يعرف بالحارة [(٣)] وكانوا يمارسون شعائرهم الدينية بكل حرية .

وفي سنة ٦٤٨هـ في عهد السلطان المستنصر أراد تميزهم عن غيرهم من السكان فجعل لهم [الشكلة] [(٤)] وهو نوع من اللباس الخاص ، يتكون من خرقة من القماش الأصفر توضع على الرأس أو في أعناقهم تميزهم عن غيرهم من السكان ، وكانوا يتعرضون للعقاب والتعنيف عندما لا يرتدو ا .

وكان اليهود يخضعون للقضاة المسلمين في الكثير من القضايا ويتعرضون للقتل والسجن عند التعدي على حدود المسلمين فقد أعدم يهودي لأنه شتم النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أعدم يهودي أخر لأنه خطف أبناء المسلمين وباعهم إلى النصارى .

---

(١) الجزية : هي ما يؤخذ من أهل الذمة وقيل هي الخراج المضروب على رؤوس أهل الذمة وتؤخذ ممن دخل الذمة من أهل الكتاب وا وس والصابئة لقاء الحماية لهم . توفيق اليوزبكي : دراسات في النظم العربية والإسلامية ، ص ١٢٣ .

(2) برنشفيك : إفريقية في العهد الحفصي ، جـ ١ ، ص ٤٣٥ .

(3) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٧٣.

(4) الشماع : الأدلة البينة ، ص ٦٦ . ابن القنفذ : الفارسية ، ص ٣٢٢ . الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٥ .

هذا وكانت العلاقة بينهم وبين السكان قائمة على المصلحة العامة فكان التجار اليهود يبيعون على المسلمين ما يحتاجونه من تجارة عن طريق دكاكينهم الموضوعة في أماكن معينة أو عن طريق اليهود المتجولين بين السكان (٥) .

وبسبب عقد المعاهدات التجارية (١) مع الدول المسيحية استوطن تونس أعداد كبيرة من النصارى الذين كانوا يقيمون في فنادق خاصة لهم في النواحي الشرقية القريبة من البحر ، وكان للتجار المسيحيين قنصل يمثل سيادة الدولة (٢) وله الحق في مقابلة السلطان الحفصي خارج العاصمة مرة في الأسبوع ، كما يحق له منع المسلمين من دخول فنادق النصارى ، والقنصل يقوم بدور الحاكم في مختلف شئون النصارى المتواجدين في تونس ، ويأخذ جزء من إيرادات الفندق كأجر له ، وكان للمسيحيين الحرية الكاملة في إقامة كنائسهم في البلاد الإفريقية وممارسة شعائرهم الدينية ، فوجدت لهم كنائس عدة مثل كنيسة مريم لرعايا بيزا ، وكنيسة بطرس في بجاية وغيرها (٣) .

استخدم الحفصيون الجنود المسيحيين في صفـوف جيوشهم وكان لهؤلاء الجنود [المرتزقة] حي في تونس يعرف باسمهم [ربض النصارى] في باب المنارة وكان السلطان الحفصي يفضل نصاري " الربط " من أحفاد المرتزقة الأقدمين وهم يتآلفون من ثلاث فرق يرأس كل فرقة قائد .

(5) برنشفيك : المرجع السابق نفسه ، ص ٤٣٧ / ٤٣٩ .

(١) زبيس : حول مدينة تونس ، ص ١٨ / ١٩ .

(٢) برنشفيك : إفريقية في العهد الحفصي ، جـ ١ ، ص ٤٦٦ .

(٣) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٧٢ . الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٩١ .

ويملك القواد بعض المراكز العمرانية في البلاد على شكل إقطاعات ويتمتع نصارى الربط بحرية كاملة في إقامة شعائرهم ودق أجراسهم وكانت لهم كنيسة تدعى باسم كنيسة القديس فرانسوا (٤) .

وكانوا معفين من جميع الرسوم والضرائب ويخضعون لسلطة قضا م ، وكان هؤلاء النصارى يرتدون ملابس الأهالي المسلمين مقتصرين على تعويض العمامة بالقلنسوة (٥) .

وكان العبيد البيض معظمهم من أصل مسيحي يعملون لدى المسلمين ووقع استعبادهم عن طريق القراصنة أو عن طريق الأسر في المعارك الحربية ، وكانوا يباعون في رحبة المعرض قرب جامع الزيتونة ، وكانت الدماء الأوربية تجري في دماء عدد كبير من الإفريقيين خاصة أبناء العائلة الحفصية نتيجة تزاوجهم مع جوار مسيحيات ، فأم المستنصر مثلاً الأميرة عطف مؤسسة مدرسة الهواء وجامع التوفيق من أصل مسيحي (١) .

وكذلك العناصر المسيحية في الدولة مثل العلوج المعتقين الذين كثيراً ما احتلوا مراكز القيادة في الجيش وحصلوا على ثقة السلطان واحترامه بسبب ما يقومون به من جهد في حمايته والدفاع عنه (٢) .

وأيضاً وجد نوع من العبيد السود (الزنوج) الذين يجلبون من السودان عن طريق التجار وكانوا يعملون في خدمة المنازل والبعض يستخدم في فلاحة الأرض ، وكان منهم الخصيان الذين يحرسون حريم السلطان والأسر المرموقة ، وقد تسرب

---

(4) برنشفيك : المرجع السابق نفسه ، جـ ١ ، ص ٤٧٧ / ٤٧٨ .

(5) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٧٨ .

(١) الدولاتلي : المرجع السابق نفسه ، ص ٩٠ . برنشفيك : المرجع السابق نفسه ، ص ٤٧٩ .

(٢) الدولاتلي : المرجع السابق نفسه ، ص ٩٠ .

الدم الزنجي (المولدين) في إفريقية عن طريق التزاوج مع هؤلاء النساء المشتغلات في المنازل [٣] .

والملاحظ أن نظام الطبقات في العصر الحفصي قد أوجد نوعاً من الصراع في إفريقية ، فالطبقة الأرستقراطية المتمثلة في الأسرة الحفصية كانت في صراع مع طبقة الأشراف المتمثلة في شيوخ الموحدين وصراع أخر مع الطبقة المتوسطة من السكان المتحضرين والأعيان من التجار .

وكذلك الصراع قائم بين الطبقات الدنيا من العبيد ونحوهم ولكنه لم يأخذ طابع الصراع بين الطبقات الكبرى [٤] .

(٣) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٦٥ . أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٧٤ .

(٤) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٧١ /١٧٢ . والدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٩١/٩٢ .

المبحث الثاني : العادات الاجتماعية (مظاهرها وأثارها) :

لكل شعب عادات وأعراف يتميز ا عن غيره من شعوب العالم ، ولما كانت إفريقية مقراً لكثير من الأجناس على اختلاف عادا ا وأعرقها ، وجد فيها الكثير من العادات والمظاهر الاجتماعية المختلفة ، إلا أنه ومن الملاحظ أن معظم هذه العادات والأعراف الاجتماعية تمثلت في ثلاثة أنماط اجتماعية وهي :

الملبس :

ذكر برنشفيك " أن لبس عموم السكان في القرن الخامس عشر الميلادي ثياب قصيرة تغطي الركبتين فقط ، ودون لبس السراويل أو الأحذية " [١] .

وكانت الجبة المصنوعة من الصوف بألوان مختلفة والتي أصبحت ثوباً فضفاضاً ومستطيل الشكل لباس الطبقات المتوسطة ، أما الأغنياء فإن الجبة التي يرتدو ا تصنع من قماش يسمى (السفساري) يصنع من الحرير والقطن [٢] .

أو الحرير والصوف وهناك قماش أخر يعرف بالتلمساني وهو على نوعين أحدهما مختم والأخر غير مختم [٣] .

وكان السلاطين يستوردون أيضاً أقمشة من أوروبا تعرف بـ (المللف) [٤] .

---

(١) إفريقية في العهد الحفصي ، جـ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) العمري : مسالك الأبصار ، ص ٢٣ . برنشفيك : المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٣) العمري : المرجع السابق ، ص ١٢٥ /١٢٧ .

(٤) الدولاتلي : مدينة تونس في العهد الحفصي ، ص ٦٨ . وبرنشفيك ، جـ٢ ، ص ٢٩٠ .

أما لبس الإحرام أو التحريمة فإنه عرف في إفريقية منذ عهد الموحدين الذين كانوا يصنعونه بشكل متقاطع على هيأة لا ألف لا . أما الأفارقة فإ م يضعونه على أكتافهم فوق الجبة (٥) .

وظل اللباس المميز والمحبب في إفريقية لكل الطبقات يسمى (البرنس) وهو معطف متصل بغطاء على الرأس ، وتميز عند السلاطين في القرنين التاسع والعاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلادي) باللون القرمزي (١) .

أما بقية السكان فاتخذوا ألواناً أخرى مغايرة للون السلطاني ، وعرف الأفارقة نوعاً أخر من الملابس يعرف با (الكبوط) أو (الراس) وهو لباس أصفر من برنس يغطي الرأس والكتفين ، ويقابل المعطف الأندلسي (الكابلاّر) (٢) .

وتميز الفقهـاء بلبس الأقمصة والسراويل ، وأهـل البادية بلباس داخلي يعرف (بالكساء) وهي قطعة قماش مضلع الشكل يسدل طرفة على الكتف الأيسر (٣) .

وأمـا العرب الذين كانوا يعملون مـع السلطان الحفصي ، فقد كـانوا يلبسون معـاطف مبطنة بالفـرو الملون بالزعفران (٤) ، بينما كان الأطفال يلبسون (الشملة) (٥) .

---

(٥) الدولاتلي : المرجع السابق ، ص ٦٨ . ابن ناجي : معالم الإيمان ، جـ٤ / ١٥٢ .
(١) الدولاتلي : المرجع السابق ، ص ٦٨ .
(٢) ابن ناجي : معالم الإيمان ، جـ٤/٢٠٨ .
(٣) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨٩ .
(٤) ابن ناجي : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٨٨ .

أما غطاء الرأس فتمثل في (العمامة) أو (القلنسوة) المتوسطة الحجم والمصنوعة من قماش ملفوف حول الرأس تلبس من قبل الفقهاء والعلماء والتجار ورجال البلاط الحفصي [٦] ، أمـا الأعراب وبعض أهـل البادية البربر فكانـوا يلفون العمامة حول الرقبة ثم يلفو ا حول رؤوسهم ، ويتلثمون بالطرف الباقي منها تحت الذقن[١] ، وكان عامـة الناس يلبسون الطاقية المعروفة (بالشاشية) و(القلنسوة) ذكر ابن ناجي : " دخل علينا رجل عليه جبة بيضاء وعلى رأسة فويطة وقلنسوة وعلى أكتافه فوطة " [٢] .

وتنوعت الأحذية التي يرتديها سكان إفريقية ، فأشار ليون الإفريقي إلى نوع من الأحذية يعرف (البوابيج) مصنوع من الأسل يرتديه أهالي المنستير ، وأحذية مصنوعة من جلود الوعل يرتديها أهل قفصة [٣] ، كما عرفت تونس في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي أحذية (المداس) و (القرق) المصنوع من الفلين .

إضافة إلى لبس نوع يعرف (بالقبقاب) كما استعمل العرب نوعاً من الأحذية المصنوعة من الجلد اللين تسمى (الأتمقة) ونوع أخر يعرف (بالرواحي) [٤] .

أما لبس الجزمات ، فلم يستعمل إلا من قبل الجنود العسكريين المنتمين إلى الجيش الحفصي وخاصة العرب [٥] .

---

(٦) ابن ناجي ، ص ٢٢٨ . برنشفيك ، المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(١) ابن ناجي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٥١/٤ .

(٣) ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ١٤٥ / ٨٤ .

(٤) برنشفيك ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٩٢ .

أما اللباس الذي ترتديه النساء فوصفه ليون بقوله " السيدات التونسيات يرتدين لباساً حسناً ويتأنقن في زينتهن ويسترن وجوههن عندما يخرجن مثلما تفعـل الفاسيات (يقصد نساء فاس) يغطين الوجوه بوضع خمار يدعى " السفساري " على عصابة عريضة جداً يعصبن بها جباههن بحيث تبدو رؤوسهن وكأنها رؤوس عماليق " (٦) .

وأهتم النساء بزينتهن فكن ينفقن الكثير من الأموال في شراء الملابس الفاخرة وأدوات الزينة المتنوعة كالحناء الذي يستخدمنه في صباغة أيديهن وأرجلهن ، وعلى رؤوسهن أيضاً ، وأكثرن من استعمال الكحل لإبـراز جمال أعينهن ، واستخدمـوا (الحرقوس) أو (الحرقوص) لتزيين حواجبهن ، كما استعملوا الأدهنة كمـرطبات (كريمات) لأجسامهن ، واستخدمن الوشم أيضاً لتجميل وجوههن وكثر استخدامه من قبل نساء البادية ، كما أظهر النساء اهتماماً بالغاً بلبس الذهب والمجوهرات من أقراط وخواتم وأساور وخلاخل ، وبلغ من اهتمام النساء بالزينة أن أسواق العطارة كانت أخر ما يغلق من الأسواق عادة (١) .

وهكذا أولع الأفارقة بالترف والتأنق في الملبس والزينة فكان الأغنياء منهم يفضلون لبس الأقمشة المستوردة من الشرق ، كما كان السلاطين ورجال دولتهم يتلقون عادة ثياب رسمية يهديها السلاطين المماليك في مصر في المناسبات الرسمية

---

(٥) العمري : مسالك الأبصار ، ص ٢١ / ١٢٥ .

(٦) وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٧٨ .

(١) ابن ناجي : معالم الإيمان ، جـ٤ ، ص ١٣٣ . وليون : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٧٨ . وبرنشفيك المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ .

فكانت تضفي تشريفاً على صاحبها ، وهيبة وكان الناس يتباهون بلبس أفخر وأرقى الأقمشة ، فكان اللباس الجيد دليلاً على م له ومكانة صاحبة [٢] .

(٢) الدولاتلي : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

العادات والتقاليد المتعلقة بالأطعمة والأشربة :

كان للتونسيين أطعمة محببة ومشهورة يتناولو ا يومياً أو أطعمة خاصة يتناولو ا في أيام معينة من السنة .

وكان الغذاء العادي لسكان إفريقية متوفر في البلاد مثل الحبوب من حنطة وشعير ذرة والزيت ، والزبدة والعسل والتمر والملح ، وربما اقتصر البعض منهم على نوع واحد من الطعام كالشعير لرخص ثمنه ولأنه في متناول الجميع (١) .

وكان لعموم السكان أكلات معروفة تميزت عن غيرهم من الأمم ومن أشهرها المقروض وهو نوع من الحلويات يصنع مـن التمر والعسل والبهارات ويقلي في الزيت (٢) وهو طعام مشهور عند التونسيون ومحل تفاخر بين السكان حتى وصفه ابن أبي دينار بقوله " وليس بعده شئ " ثم أردف قائلاً : " أني التقيت بمن أكله في الحضرة فأعجبه فقال : عجبت لمن في بيته المقروض كيف ينام الليل " (٣) .

و " المروزية " (٤) وهي لحم مضاف إليه ارات متنوعة يطبخ ثم يؤكل عقب الصوم لأنه نوع من التطيب (٥) .

و " البسيس " أو " البسيسة " (٦) وهو دقيق الشعير الممزوج بقليل من الماء الخاثر كالصمغ ومضاف إليه الزيت أو عصير البرتقال أو ليمون ، ثم يؤكل هذا

---

(١) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٢) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ٣٠٥ . برنشفيك : المرجع السابق ، ص ٥٨٦ .

(٣) المؤنس ، ص ٣٠٥ .

(٤) المروزية : نسبة إلى مروز مدينة ببلاد العجم ، ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ٣٠٥ .

(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق . برنشفيك ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ .

العجين نيئاً دون مضغ ، وبلغ من حب الشعب التونسي لهذا النوع من الطعام أن جعل له أسواق خاصة لا يباع فيها غير هذا النوع من الطعام .

و (البازين) [(١)] المصنوع من دقيق الشعير والمطبوخ في ماء ثم المعجون في أناء ويسقي بالزيت أو مرق اللحم ، أما الطعام الرسمي للبلاد فيتمثل في (الكسكسي)[(٢)] المصنوع من السميد ومطبوخ بالبخار ويسقى بالحليب أو المرق ، وهو من الأطعمة الدالة على الرفاهية والترف ، وكان لهذا الطعام حكاية أدعاها أحد الأولياء المتصوفين في مكة تتلخص في أن أحد الحجاج الأفارقة أشتهي هذا النوع من الأكل فقدم له هذا الوالي الصوفي بشكل سحري طبق مملوء كسكسي ومشبع بالسمن والكرنب ولحم البقر ، فكانت هذه إحدى الكرامات التي ادعاها بعض رجال التصوف ، وهي غير مقبولة من الناحية العقلية وأن كانت في مضمو ا تدل على قيمة هذا الصنف وحب الناس له .

ومن أطعمتهم المشهورة (البركوكش) [(٣)] وهو شبيه بالكسكسي إلا أنه مصنوع ممن البرغل المحبب واللحم .

كما أشتهر الخبز التونسي بجودته ونقاوته ، حتى أن الرحالة الإفريقي ليون أعجب بالخبز التونسي ووصفه " الشديد البياض والبالغ اللذة " [(٤)] .

---

(٦) ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، جـ ٢ ، ص ٧٦ .

(١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٧٦ . وبرنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨٤ . ابن ناجي : معالم الأيمان ، جـ ١٧٣/٤ .

(٢) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٣) ابن ناجي : المصدر السابق ، جـ ٤ / ١١٧ .

وكان الخبز التونسي مصدر تفاخر ومباهاة في تونس ، فكان الأهالي يتسابقون لصناعته ، وعرف الخبز التونسي بكبر حجمه حتى أنه يكفي لجماعة من الناس قد يصل عددهم إلى العشرين فصاعداً ، ويبقي هذا الخبز نحو شهر فأكثر .

ويرى المؤرخ ابن أبي دينار سبب [١] لتكبير هذا الخبز فيقول " أن حريمهم أكثر أ ماكاً من رجالهن ويكرهن الامتهان بالخدمة عدة أيام بعد العيد فلهذا جمعن بين الخبز والمروزية لطول بقائهما " [٢] .

ومـن أطعمتهم أيضاً " العصيدة " [٣] المصنوعة من دقيق الحنطة والزبدة والعسل ، والتي تقدم عادة للنساء النفساء ، وتصنع أيضاً " كعقيقة " عن المولود وكان ذلك اعتباراً من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، لأن الشيخ المرجـاني " عق " بعصيدة عن السلطان أبي عبد الله محمد بن يحي المعروف بأبي

---

(٤) وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٧٥ .

(١) ويرى ابن أبي دينار سبباً أخر لتكبير حجم الخبز " أن بعض العمال كان ا (يقصد تونس) في الزمن السابق دامت ولايته واشتد سلطانه فسعى به بعض الكارهين إلى أستاذه وأدعى أنه استقل بالأمر وخرج عن الطاعة وحرضه على الفتك به فتحرك إليه أستاذه بعسكرة فلما قرب من تونس خرج العامل بذات نفسه وقيل أنه ابن خرسان وصحب منه رغيفاً من أعجب ما يكون فلما وقعت عينه على أستاذه ترجل وقبل بركابه وأخرج ذلك الرغيف وناوله له فأخذه من يده وقبله ورده إلى صاحبه ورجع من مكانه وقال لخاصته : هذا مستمر على طاعتنا والإشارة إلى ذلك خطابة بلسان الحال أن هذا ما أنعمت به على فإن أردته فهو لي مردود إليك فلم جئت طوبته فأبقاه على علمه ورجع مسروراً فمن هنالك استمر الحال على تكبير هذا الرغيف " . المؤنس ، ص ٣٠٥ .

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

(٣) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٨٤ . الشماع : الأدلة النورانية ، ص ٨٣ .

عصيدة ، وهكذا اشتهر أمر " العصيدة " في يوم " العقيقة " فكانت الطعام المفضل في ذلك اليوم لأهل تونس .

و " الدويدة " المصنوعة من فتائل العجين ولحم الدجـاج ، ويتناوله الناس يوم عـاشوراء ، و " المرقاز " وهو نوع مـن " المقانق " و "النقانق " و " الكعـك " [١] و " الزلابية " والمحبنة وصفته جبن طري يدعك بالأيدي حتى يصبح كالعجين ، ثم يعجن السميد ويؤخذ قطعة من العجين الذي قد بسط بالكف ويجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك ، ويجمع حتى تصبح العجينة محشوة بالجبن ، ويقلى في الزيت ، ثم يرش بعد ذلك بالسكر الناعم وقليل من الكمون وبعض الثمار كاللوز والتمر والتفاح ، وأصل هذا الطعام أندلسي نقله المهاجرون إلى تونس فنال استحسان التونسيين وأصبح من أطعمتهم المفضلة [٢] .

وإضافة إلى ذلك كان السكان يتناولون السمك وخاصة سكان السواحل ومختلف الفواكه ، والبصل والفول والحمص ، كما كانوا يستوردون البهارات بأنواعها المختلفة ، وكان التونسيون يتناولون طعامهم جالسين على البسط [٣] ، وكانت لديهم أدوات لحفظ الأغذية ، كما كانت تحفظ الملابس وأدوات الغسل في صناديق خاصة ، وأما الأثاث فيتكون من الزرابي المفروشة على الأرض أو المعلقة على الجدران .

---

(١) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ٣٠٦ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢٨٤ . ابن ناجي ، معالم الأيمان ، جـ٦٣/٤ ، ٦٤ .

(٢) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ١٣٨ .

(٣) برنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٢٩٧ .

وكان التنوير عن طريق المصابيح المصنوعة من الطين إضافة إلى الشمع ، واستخدموا عود " الثقاب " المصنوع من الكبريت ، لإيقاد النار [٤] .

وكان لهم عادات في الاحتفال بالأعياد ويصف ابن بطوطة حال سكان تونس في يوم العيد فيقول " وكان يوم العيد يتجمل الناس ويلبسون أجمل الملابس ، ويخرج السلطان راكباً ومعه أقاربه وخواصة وخدم مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب ، فيستمعون للخطبة ثم ينصرفون إلى منازلهم " [١] .

وكان الناس يخرجون إلى ضواحي مدينة تونس ، حيث يحتفلون بأيام العيد بصناعة الأطعمة المختلفة كالخبز ، والكعك والحلويات كالمقروض والزلابية وغيرها ، وكانت أيام العيد تستمر خمسة عشر يوماً [٢] .

وكانت لهم أيام مشهورة منها يوم عاشوراء (العاشر من المحرم) وهو يوم مشهور في تونس ، حيث ينفق الناس الأموال الباهظة في الاحتفال به ، فيزين الناس الحوانيت التي تباع فيها الفواكه ، وتقام الأهازيج والأغاني المصاحبة بآلات الطرب المختلفة ، ويحرص الأباء على شراء ألعـاب مختلفة لأبنائهم ويوسعون عليهم في النفقة [٣] ، كما كان لهم سوق يعرف باسم هذا اليوم وهو سوق عاشوراء [٤]

---

(٤) المرجع السابق ، جـ٢/٢٩٧ .

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٥ .

(٢) ابن أبي دينار : المؤنس ، ٣٠٥ / ٣٠٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠٧ . وبرنشفيك : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٩٧ .

(٤) ابن نـاجي : معـالم الإيمان ، جـ٤/٥٠ ، ٥١ . والبكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٣٩ / ٧٩ .

بالمنستير يخرج إليه الناس لشراء ما يحتاجونه في مثل هذا اليوم ، وكانوا يخرجون زكاة أموالهم في يوم عاشوراء ، وأيضاً يوم التاسع من المحرم يحتفلون به ويواظبون على أكل الدجاج والأطعمة المصنوعة منه مثل (الدويدة) (٥) ويكثرون من الأنفاق فيه .

ومن الأعياد المبتدعة في المغرب الاحتفال بالمولد النبوي (أي الثاني عشر ربيع الأول) وأول من سن هذه البدعة (١) في بلاد المغرب السلطان المريني أبي عنان ، ثم نقلت هذه العـادة إلى سلاطين بني حفص وتحديداً في عهد السلطان أبي فـارس عبد العزيز (أي في بداية القرن الرابع عشر الميلادي) ثم سار بقية السلاطين على أثرة .

وفي هذه الليلة يتم احتفال عظيم تنشد فيه الأشعار التي قيلت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وتوقد القناديل وتصنع الأطعمة الفاخرة وتوزع الصدقات من قبل السلطان والأثرياء على الناس ، وتكون هذه الليلة بالغة الأهمية (لنقيب الأشراف) حيث يتوافد إليه الناس من كل مكان ويجتمع لديه الفقهاء والعلماء لقراءة القرآن والأناشيد ، ويستمر الاحتفال بالمولد النبوي خمسة عشر يوماً (٢) .

ويكون (لنقيب الأشراف) عادة يأخذها من السلطة الحفصية طوال أيام الاحتفال من زيت وشمع ونحوه (٣) .

---

(٥)ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ٣٠٦ .

(١) البدعة في اللغة : كل شيء أحدث على غير مثال سابق ، سواء أكان محمودة أم مذموماً ، وهي مأخوذة من بدع الشيء يبدعه إذا أنشأة وأخترعه ، وفي الاصطلاح : كل ما حدث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكان محموداً أو مذموماً . عبد الرؤوف محمد عثمان : محبة الرسول بين الأتباع والابتداع ، ص ٢١٥ .

(٢) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٣) برنشفيك : إفريقية في العهد الحفصي ، جـ٢ ، ص ٣١٩ .

ولهم تعظيم كبير وتقاليد إسلامية للاحتفال بالنصف من شعبان منها أن ليلة السابع والعشرين منه لذكرى الإسراء والمعراج [٤] ، فكان السلطان إذا دخل رجب هلل وكبر وقال (لا إله إلا الله دخل رجب !) [٥].

كما يعتبر أول مايو [١] عيد من أعيادهم ، يكثرون فيه من إنفاق الأموال وصناعة أنواع خاصة من الطعام مثل المرقاز ، الذي لا يكاد يخلو منه بيت في تونس في مثل هذا اليوم ، ويكثر الناس من شراء النباتات والبقول مثل النارنج والليم الحلو والليمون ، والحشائش ، وخاصة الخس الذي يزينون [٢] به منازلهم حتى أنه يباع بمقدار كبير جداً ربما بقدر ما يباع خلال السنة بكاملها ، وكعادة أهل تونس يستمر احتفالهم بأول مايو خمسة عشرة يوماً ، ولا نعلم السر في تقدير عدد أيام الاحتفال بالأعياد في إفريقية ، وفي أول مايو أيضاً يخرج أهـل الخلاعة وا ون عند باب الخضراء ، ويكثرون من الأغاني الماجنة والخلاعة والشعوذة [٣] ، ويرى ابن أبي دينار أن السبب في الاحتفال ذا اليوم يعود " لأن غالب سنينهم يطيب فيها زرعهم وتخرج الجباة إلى أطراف البلاد ، وكذلك جملة ثمار تظهر في هذا الشهر وأهل تونس يقولون تظهر يوم ماية سبع غلال " [٤] .

---

(٤) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١ . وأحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٧٩ . وابن أبي دينار : المؤنس ، ص ٣١٣ .

(٥) الضياف : الإتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

(١) هو النوروز وهو عيد من أعياد الفرس وأول من احتفل به ملك الفرس جمشيد وكان ذلك قبل إبراهيم عليه السلام وكان يوافق عند الفرس أول يوم من يناير . ومعنى النوروز اليوم الجديد ولما كانت تونس تتبع الروم في حساب شهورهم كان أول يوم من ماية هو يوم النوروز عندهم . ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ٣٠٩ / ٣١٢ .

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ٣٠٧ .

(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ٣٠٨ . وبرنشفيك ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٢٣ .

(٤) المؤنس ، ص ٣١٢ .

وكان لهم عادات في استقبال شهر رمضان المبارك ، فالكثير منهم يفضل الاعتكاف طوال هذا الشهر ، وكانت في الجوامع أبواق للإعلان عن موعد الإمساك أو الإفطار ، كما واظب أهل إفريقية كغيرهم من المسلمين على إقامة صلاة التراويح طـوال الشهر الكريم ، وأضافوا ختم صحيح البخاري إلى ختم القرآن الكريم ، وفي أخر هذا الشهر العظيم يقوم الإمام بالدعاء والابتهالات في جمع عظيم من الناس [(٥)] .

٣ - السكن وما يتبعه من نشاط اجتماعي عمراني :

تتضح في السكن الحفصي معالم النشاط العمراني للمجتمع الإفريقي ، وأفريقية كغيرها من الأمم عرفت أنماطا مختلفة من المساكن القديمة كالخيمة والكوخ ، بل أن العرب في العصر الحفصي كانوا يسكنون الخيام المصنوعة من الوبر والصوف [(١)] التي يسهل عليهم هدمها عند سفرهم لغزوا م وحرو م .

وكذلك كان أهل جزيرة جربة يسكنون أكواخاً من القصب [(٢)] ، وكان سكان الأرياف يقيمون في أخصاص النخيل ، والبعض ينحتون مـن الجبال مساكن يحتمون ا ، وكانت هذه المساكن غالبها لأهل الأرياف والبدو الرحل ، ولكن أهل المدن كانت مساكنهم تختلف كثيراً ، فابتداءٍ بتوليه السلطان المستنصر للحكم بدأ طابع الترف والتأنق [(٣)] في المسكن يأخذ طريقه إلى البلاد الإفريقية وخاصة بعد الاتصال المباشر مع الأندلسيين ومع أقطار العالم الإسلامي كمصر والمغرب الأقصى ومع الدول الأوروبية .

---

(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ٣١٣ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٢٣ .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٠٣ .

(٢) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، ص ١٢٧ / ١٥٠ .

(٣) العبدري : الرحلة ، ص ٤٠ . ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣١ .

وقد راعى أهالي إفريقية عوامل المناخ والعوامل التشريعية في إقامة مبانيهم ، فعلى الرغم من احتفاظ مبانيهم بالشكل (الهيليني) القديم إلا أننا نلاحظ بعض التجديدات التي يتطلبها المجتمع الإفريقي المحافظ ، فلو نظرنا إلى تخطيط المنزل الحفصي لوجدناه عبارة عن مربع الشكل ذو خلايا مغطاة بسطوح وفناء ذي أروقة متعددة مزودة بمدخل متعرج [٤] ، وتكون المنازل غالباً من طابق أرضي تغطي أجزاء منه للاحتماء بها أيام الصيف بينما يبقى جزء منه مكشوف لاستجلاب الإضاءة والهواء البارد أيام الشتاء وغالباً ما تحاط أفنية المنازل الأرضية بحدائق من الورود والأزهار كما هو الحال في مدينة نكاوس [١] التي كانت جميع مبانيها محاطة بالأزهار وخاصة الورد الدمشقي والأس والبنفسج ، وكان لكل دار من دورها سقاية خاصة به [٢] .

أما بالنسبة للمباني التي تتكون من طابقين ، فإنها تزود بنوافذ في الطابق العلوي للإنارة والتهوية ، أما الطابق السفلي فلا تفتح فيه نوافذ وذلك محافظة منهم على محارم البيت حتى لا يكونوا عرضة لنظر كل عابر .

أضافـوا أيضاً إلى المبنى الهيليني (القديم) الغرف الرئيسية وتكون مقابلة للمدخل ، كما جعلوا هناك جناحاً مخصصاً لاستقبال الضيوف وكان يسمى (دار الضيافة) وفي وسط الفناء جعلوا نافورات يخرج منها الماء وسط حوض دائري وزخرفت المشكاوات التي تغطي الإيوان وجوانب الحجر الأمامية ، واحتوت المنازل

---

(٤) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٢٠٨ .

(١) نكاوس : مدينة بناها الرومان وتسمى نيسيويس الرومانية المعروفة باسم نيسيفيبوس ودعاها العرب نكاوس وتبعد عن البحر المتوسط ١٦٠ كلم ، وعن المسيلة ٤٨٠ كلم . ليون الإفريقي : وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٥٣ .

(٢) ليون الإفريقي : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٣ .

على دهاليز سرية ، يضع الناس فيها مدخرا م الفائضة كالزيت والفحم [٣] ونـحو ذلك وهي تشبه (المخازن الم لية) في الوقت الحاضر ، وكانت معظم الدور تحتوي على آبار ومراجل [٤] وكانت قصور رأس الطابية وقصر أبي فهر خير مثال على جمال المساكن الحفصية وقد افاض ابن خلدون في وصف هذا القصر فقال " واتخذ المستنصر بخارج حضرته البنيان الطائر الذكر ، المعروف بابي فهر ، يشتمل على جنات معروشات اغترس فيها من شجر كل فاكهة من أصناف التين ، والزيتون ، والرمان ، والنخيل ، والأعناب ، وسائر الفواكه وأضاف الشجر ، ونضد كل صنف منها دوحه حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البري وسمي دوح هذا بالشعراء واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والحوائز ، وشجر النور ، والليم ، والنارنج ، والسرور ، والريحان ، والياسمين ، والتليو وأمثاله .

وجعل وسط هذه الرياض روضاً فسيح الساحة ، وصنع فيه بحيرة كبيرة جلب إليها الماء من الحنايا القديمة التي تجلب الماء من زغوان إلى قرطاجة بعد أن بنى لها حنايا جديدة ما تزال أثارها ماثلة إلى اليوم وراء باب سعدون وقرب رأس الطابية ، وكان الماء ينبعث فواراً في البحيرة ندسة عجيبة فتضطرب أمواج هذا الصهريج الكبير فيصبح مثل البحر ، ونظراً لعمق الماء حتى في حافات البحيرة فإن الجواري المتنـزهات كـن يتجنبن خوض غمارة إلاّ على المراكب الشراعية متباريات متنافسات ، وبنيت بطرفي البحيرة قٌبتان متقابلتان على أعمدة من المرمر شيدت جوانبها بالرخام المنجد ، ورفعت سقوفها الخشبية على ابنيه محكمة وأشكال منمقة إلى

---

(٣) الدولاتلي : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ . وبرنشفيك ، إفريقية في العهد الحفصي ، جـ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٤) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٧٦ .

آخر ما اشتملت عليه تلك الرياض من القصور والأواوين والحوائز والمقاصير غرفاً من فوقها غرف تجري من تحتها الأنهار ثم وصل (محمد المستنصر بالله) ما يبني قصوره ورياض " رأس الطابية " بحائطين ممتدين يحوزان عرض العشرة أذرع ، يحتجب به الحرم في خروجهن إلى تلك البساتين حتى لا تقع العيون عليهن ، فكان ذلك مصنعاً فخيماً ، وأثراً على أيام الدولة خالداً " [١] .

هذا وأضاف الحفصيون مباني أخرى مثال " البرج الجديد " الذي بناه السلطان أبو بكر الحفصي وقدر بناؤه بخمسين ألف ديناراً [١] .

كما شيد السلطان أبو فارس عبد العزيز قصوراً ملكية امتازت بارتفاعها المكون من عدة أدوار اصطفت على حافة طريق عريض وربطت ببعضها بدهليز يتسع لعدة أشخاص [٢] .

ولم يكن البناء مقتصراً على المساكن فقط ولكن تعداه إلى بناء الحمامات خارج المدن وقد تفننوا في بنائها فكان حمام الرميمي [٣] المشهور في غاية الجمال والنظافة ، كما يوجد حمام على بعد قريب من مدينة قسنطينة يحتوي على عينان أحدهما ماء ساخن يتدفق بين أحجار ضخمة [يعرف الآن بحمام سيدي مسيد] وفي الجهة المقابلة

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٦٣١ .

(١) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٧١ .

(٢) الزركشي : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٣) نسبه إلى أبي عبد الله محمد بن الرميمي ، كان وزيراً لمحمد بن هود صاحب المرية . ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٦١٥ .

لهذه العين توجد عين أخرى ماءها بارد ويوجد بقر ا بناء ضخم من رخام ربما يستخدم كاستراحات لرواد هاتين العينين [٤] .

وكانت الحمامات متسعة ومتناسقة في بناءها ، وكانت محط إعجاب كل الرحالة الذين رأوها وقال ليون في وصفها " الحمامات متعددة وهي أكثر تنسيقاً وتسهيلاً من حمامات فاس " [٥] .

هذا وقد استخدم الحفصيون مواد متطورة في زخرفة مبانيهم ، فاستخدموا المرمر لتأطير المداخل وتبليط الصحون وتزين الأعمدة والتيجان والجدران ، وقد أشار البكري إلى كثرة استخدام الرخام في المباني التونسية " وعضادات أبواب دور تونس كلها رخام بديع ولوحان قائمان وثالث معترض عليها مكان العتبة " [١] .

وقال العمري " أن جميع مباني تونس مسقوفة بالأخشاب وتفرش ديار اكبارها بالرخام " [٢] .

وفي بجاية وفي قلعتها الكبيرة زخرفة بالفسيفساء والجص ا زع والخشب المنقوش المزدان بألوان اللازورد [٣] .

واعتمد الحفصيون على الحجارة المنحوتة في بناء واجهات المنازل واستخدموا نوعين من الحجارة : الحجر الترابي ، والكذان ، فكانوا يقومون بطريقة مبتكرة في بناء الأقباء بالحجارة تحت الأرض دون الالتجاء إلى الهياكل الخشبية ، واستخدام الطوب

---

(٤) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٧٦ . ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٥٩ .

(٥) وصف ، إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٧٧ .

(١) المسالك والممالك ، ص ٤٠ .

(٢) مسالك الأبصار ، ص ١٩٧ .

(٣) ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٥٠ .

المقوى بمادة الجير في بناء الأسوار والتحصينات العسكرية والمدينة [٤] ، وأشاد الرحالة ليون بجمال المباني الحفصية فقال : " معظم الديار حسنة المظهر مبنية بحجارة مزلوجة ومنحوتة على أكمل وجه ، سقوفها مزدانة بالفسيفساء والجص المزخرف بطريقة فنية عجيبة ومصبوغة بالازورد وغيره من الألوان الرفيعة ذلك لأن الألواح وأخشاب البناء نادرة جداً وتبلط الحجرات بمربعات لامعة ذات لون فاتح ، وتبلط الساحات بقطع لامعة، وغالب المنازل ليس لها سوى طابق أرضي ومدخلها جميع ذوبابين أولهما يفضي إلى الخارج والأخر يتصل بالمسكن ويرقى إليه بسلم من بضع درجات مزدانة بتبليط جميل ويتنافس السكان في تجميل مداخل بيوتهم لتكون أكثر أناقة وزخرفة من غيرها " [٥] .

وكانت إفريقية كما قلنا سابقاً ملتقى للكثير من المدارس المعمارية واستطاعت بفضل مرونتها استيعاب هذه التيارات المتمثلة في التيار المشرقي والمغربي الأندلسي بل وأضافت لمسة فنية حفصية مبتكرة على بعض المباني العامة ، فلو نظرنا إلى تخطيط الجامع الموحدي في عهد السلطان أبي زكرياء حيث بدأ بناؤه سنة ٦٢٩ هـ وانتهى سنة ٦٣٣ هـ لوجدناه يشتمل على تيارات مختلفة أندلسية ومشرقية ولوجدناه أيضاً يحتوي ابتكارات حفصية وخاصة منطقة التيجان التي كانت كلها تعود إلى العصر الحفصي .

مخطط الجامع الموحدي بالقصبة :

لم يوجد به الصحن المعتاد في جميع الجوامع الإفريقية ولعله أندثر بعوامل السنين وبناؤه على اسطوانات مجلوبة من مدينة تونسية تسمى بهنشيل باشو [١] .

---

(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص ٦٣١ . العبدري : الرحلة ، ص ٤٠ . والدولاتلي : مدينة تونس في العهد الحفصي ، ص ٢٠٧ .

(5) وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٧٧ .

(1) هنشيل باشو : مدينة مزدهرة كانت عاصمة جزيرة شريك [الوطن القبلي] سابقاً ، واندرست في نهاية القرن السادس الهجري . الدولاتلي: المرجع السابق ، ص١٥٠ . زبيس : حول مدينة تونس ، ص ٢٢ .

ووجدت تحت أرضية بيت الصلاة مواجل عديدة سقفت بعقود ترفعها أكتاف وأعمدة بدون تيجان ، مستقبلة المياه المتجمعة فوق السطوح ، حيث تقوم بتصريفها بواسطة ميازيب يمتد منها نفق له انحدار ينساب فيه الماء إلى الفناء ، وألصقت بالجدار الخارجي فتحة استعملت كحوض ، وفتحة أخرى تؤدي إلى الصهاريج مباشرة ويقع المحراب في الجهة الشمالية حيث غُطي بزخارف جصيه ذات [٢] عناصر فنية وهندسية رائعة ، ويتكون الرواقان الشمالي من ثمانية أقواس[٣] والجنوبي من عشرة أقواس ، ويتصلان ببيت الصلاة بواسطة ثلاثة أبواب في الرواق الشمالي وأربعة في الرواق الجنوبي ونلاحظ دائماً الزيادة في الرواق الجنوبي ، كما يقسم بيت الصلاة إلى سبع بلاطات وتسعة أروقة ، وكانت المنارة واقعة في الزاوية الشمالية الشرقية ويمكن الصعود إليها بواسطة السلم الملتف حـول النواة المركزية التي تحتلها غرفتان متراكبتان ، وأسندت المدارج على أقبية مهدية ويتم الانتقال بين طوابق السلم بواسطة استراحات مرتكزة على أقبية ، وهذه المنارة هي الأولى من نوعها في إفريقية وكانت تقليداً للمنائر الموحدية في المغرب الأقصى والأندلس [١] ، وقد أظهر التونسيون مهارة فائقة في هندمة الحجارة واستعمالها في المباني كما ذكرنا ، وتوصلوا إلى استخدام نوعين من الزخرفة يظهر الأول في الجهة الشمالية والجنوبية حيث نجد شكل المعين البسيط في صف يتكون من سبعة أعمدة نصف محشورة في الجـدار المبني

(2) الدولاتلي : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ، ١٥٢ . زبيس ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(3) الأقواس : كان العرب يستخدمون نوعان من الأقواس وهي المصنوعة على رسم البيكارين مع كسرة خفيفة في أعلاها وخصر خفيف في أسفلها ، وتطور هذا النوع حتى أصبح لا يرى لأسفله خصر وكانت هذه الأقواس في إفريقية والأندلس تأخذ شكل نعل الفرس أو (الأقواس ا اوزة) ، والنوع الأخر من الأقواس هو المصنوع على شكل نصف دائرة ، ووجد في كثير من المباني الإسـلامية في إفريقيا وأسيا وغيرها . غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

(١) الدولاتلي : المرجع السابق ، ص ١٥٢/١٥٤ .

بالحجارة المهندمة تعلوه بتدرج الـوسادة ثم الحامل ثم مسقط العقد وهـو على شكل (لا) ينخفض أسفل ساقه حيث يتجاوزا الحامل بكثير وتليه قاعدة مستطيلة ذات وجه مقصر يتلاءم انحناؤه مع العنصر العلوي الربع دائري ويتقاطع القوسان بفضل الجزئيين ٥ و ٦ و لا ، تتألف شبكة المعينات المتكونة من عناصر مكررة إلا من الأجزاء الأربعة الأخيرة من بين الأجزاء الستة التي تتكون منها الزخرفة ، ويضفي الجزءان الباقيان نوعاً مـن الأناقة ، أما النوع الثاني من الزخـارف الحفصية فيسمى (ذو المفتاح المعلق) فزاد عـدد العناصر المشكلة للزخـارف المعينة باثنين جددين هما (المفتاح) المصنوع مـن عنصرين 5 و 5 ، وعنصر أخر مقوس مكون مـن قطعتين 4 و 4 ، وتزين قمة كل معين وردة ذات فصوص ثلاثة وكذلك الأقواس الحدوية الشكل فهي من التقاليد الإفريقية المحضة ، وأما الفقرات المتناوبة فهي ذات لونين الأسود والأبيض ويدور النتوء الذي يحيط بالأقواس أيضاً حـول إطارها المستطيل (١) .

ووصف جوج مارسية العمود الحفصي فقال " يتكون من قسم سفلي أسطواني ثم يتسع متخذاً شكل كأس ثم يمر إلى المربع ، وتتوج هذه السلة حافة سميكة ، تبرز وسط كل وجه فصاً صغيراً منتفخاً " (٢) .

وفي الجهة الشرقية من المنارة كتابة بالخط النسخي المزهر تشير إلى اسم أبي زكرياء وتاريخ انتهاء العمل فيها سنة ٦٣٣ هـ .

وعملت حول هذا الخط النسخي زخارف ملئت الفراغات بين الأحرف ، ويكتسح الأغصان عدداً وافراً من جريد النخل البسيط والمثنى ، والثمار الرمحية

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

الشكل مزينة بعناقيد العنب وأكـواز الصنوبر فساعدت على إبراز الأشكال الكتابية الملساء [٣] .

وتتألف رسوم التيجان الحفصية من نوعين من الشبكات الأولى تتعلق بزوايا السلة والمسند والثانية بالورقة المتوسطة ، واستخدم الحفصيون ألوانا معنية في رسوما م الذهبي والأسمر المحمر المتراكبة مع الأخضر الزيتوني ، وتمثل هذه الرسومات بداية زخرفية في المناطق التي تعلو المحراب ، وحافظ المحراب على الطراز الإفريقي إذ يتألف من تجويف على شكل نصف وتحيط بالتجويف كسوة من الألواح الرخامية الملساء تتناوب معها ألواح أخرى مزخرفة بأقواس مفصصة ويفصل هذه المنطقة الرخامية السفلى عن الطاقية المكلسة حزام من الرخام الأسود يتبعه نتوء وشريط كتابي .

وتحف النتواءت بإطار المستطيل وبعضادتية وكسيت الكوشات بالمرمر ، وأضفت هذه العناصر المتجمعة من التراث الأندلسي المغربي والمتمثلة في الأقواس الموشاة مساقطها بزخارف ملتوية وفي الأشكال الهندسية والكتابية التي تظهر في الجبهة والكوشات [١] وفي مقرنص [٢] القبة الذي كسي في الداخل بمقرنص الجبس وسقفت من الخارج بغشاء هرمي الشكل من القراميد [٣] وهكذا نرى أن الجامع الموحدي بالقصبة كان مزيجاً لتيارين فنيين معماريين هما الفن الأندلسي والمغربي ، أما التيار

---

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٣/١٥٩ .

(١) الدولاتلي ، المرجع السابق ، ص ١٦٥.

(2) المقرنصات أو المتدليات : وهي إنشاء الكَّوات (الخرق في الحائط) الصغيرة الناتئة المثلثة الكُرية المساة بالمتدليات ، لتدلي بعضها فوق بعض تدلياً هندسياً يشبه خلايا النحل ، وقد استخدمها المسلمون في ربط أطناف أروقة المآذن وفي ملء قباب المساجد وفي وصل القباب الكُرية بالأوجه المربعة .. الخ . غوستاف لوبون ، حاضرة العرب ، ص ٥٣٠ .

(3) زبيس : حول مدينة تونس ، ص ٢٢.

المشرقي فيظهر أكثر وضوحاً في الميضأة [٤] ، التي بناها السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان وكانت سقاية ضخمة تألفت من عدد من الأقبية المحروجة بالكذان والرخام ، وزخارف متنوعة وجدت في المصطبة التي زخرفت بأشكال أقواس متنوعة أبسطها القوس متعدد الفصوص ، وكان على نوعين شديد الانكسار أو شديد التجاوز ، أما القوس ذو الخطوط المنحنية المستوية الذي تنتهي فصوصه بزهرات السوسن ونوع أخر من الأقواس عمل من ثلاثة فصوص يفصل بين كل فصين حيد ، واستخدم المرمر بكثرة في تطويق الأقواس ولتوشيه أطرها المستطيلة وفي التركيبات الزخرفية المكونة للوحات وكوشات الأقواس وعملت منه أشكال نجمية وزخارف تشبه الصليب المعقوف وهذا الترف في الزخرفة ظهر في المشرق في مصر على عهد المماليك وهم الذين عرفوا هذا الترف الزخرفي وانتقل إلى إفريقية من عهد السلطان عثمان الذي بلغت العمارة في عهده شأناً عظيماً وأصبحت هذه الميضأة مثالاً يحتذي به في بقية العمائر الحفصية بل وطبق أيضاً حتى في المنازل والمساكن الحفصية [٥] .

---

(4) أمر ببنائها السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان وأختار المهندس أحمد القسنطيني للأشراف على أعمال البناء الذي بدأ سنة ٨٥٢هـ وانتهى سنة ٨٥٤ هـ . الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٣٥ .

(5) زبيس : المرجع السابق ، ص ٤٥ . والدولاتلي : المرجع السابق ، ص ١٦١ .

الفصل الخامس

الحياة الثقافية

أ – التكوين الثقافي للدولة .

ب – العلوم النقلية وأشهر علمائها .

جـ - العلوم العقلية وأشهر علمائها .

د – العلاقـات الثقافيـة بـين الدولـة الحفـصية ومـصر والأنـدلس ودول المغرب العربي .

المبحث الأول : التكوين الثقافي للدولة :

نهضت الثقافة الإفريقية نهضة شاملة وكان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية الإفريقية ، بل وقوة هذه الشخصية واستقلالها إلى حد كبير وليس من شك في أن ظروف إفريقية في هذه الفترة قد ساعدت على هذه النهضة ، ولا سيما في وجود أمراء حفصيين ، وفروا للناس وحدة واستقراراً وأمناً ورخاء ، فأتاحوا كل ما من شأنه أن ينهض بثقافتهم ويرقي بعلمهم .

ولقد تضافرت أسباب عدة لإنعاش نهضة ثقافية في تونس ، وكان من أبرزها :

١ – إيجاد أماكن للتعليم :

فلقد كان التعليم يتم في الكتاتيب ، ثم في المساجد ثم أخذ مساره الطبيعي في عهد السلطان أبي زكرياء الأول ، حيث أنشئت أول مدرسة في الشمال الإفريقي [١] وهي المدرسة الشماعية في الثلث الأول من القرن السابع الهجري وهي تقع بسوق البلاغجية في زنقة الشماعيين [٢] (الملحق ، ص ٢٤٥).

وفي عام ٦٤٢ هـ أمر الأمير الحفصي أبو زكرياء الثاني ابن السلطان أبي إسحاق بإنشاء مدرسة " المعرضية " وأحضر لها كتباً من كل الفنون العلمية [٣] ، ثم أنشئت المدرسة المنتصرية سنة ٨٣٩هـ في عهد السلطان الحفصي محمد المنتصر إلا

(١) دائرة المعارف : مادة تونس ، جـ٦ ، ص ٣٥ .

(٢) سليمان زبيس : حول مدينة تونس ، ص ٢٩ .

(٣) السراج : الحلل السندسية ، جـ٢ ، ص ١٥٨ .

أنه مات قبل إكمالها ، فاتمها أخوه أبو عمرو عثمان سنة ٨٤١هـ [٤] (الملحق ، ص٢٤٦) .

ولم يكن إنشاء المدارس قاصراً على السلاطين فقط ، بل شاركتهم النساء في ذلك ، فقـد حظى العصر الحفصي بالاهتمام بتعليم المـرأة ، ولـذا أنشأت المدارس لتعليمها ، فأنشئت الأميرة عطف [١] زوج الأمير الحفصي أبي زكرياء مدرسة " التوفيقية " وذلك بعد وفاة زوجها وفي عهد ابنها المستنصر سنة ٦٩٥هـ [٢] ، وفي سنة ٧٤٢هـ أنشئت الأميرة فاطمة شقيقة الأمير أبي زكرياء مدرسة في عنق الجمل ، على نفقتها الخاصة وأطلقت عليها أسم " المدرسة العنقية " [٣] .

أيضاً أنشئت مدارس عرفت باسم " دار المعلمة " في العاصمة تونس وفي عدة مدن أخرى .

يتم فيها تعليم الفتيات تعليماً م لياً ومهنياً حيث يدربن على الشئون الم لية وعلى الصناعات المختلفة مثل الغزل ، والخياطة ، والتطريز [٤] ، وغير ذلك .

وأيضاً كان للشعب التونسي مشاركة فعالة في إنشاء المدارس ، فقد أسس أبو محمد عبد الله المرجاني مدرسته التي عرفت باسمه " المرجانية " و (المدرسة المغربية)

---

(٤) سليمان زبيس : حول مدينة تونس العتيقة ،ص ٢٩ .

(١) الأميرة عطف هي زوجة السلطان أبو زكرياء الأول وأم الخليفة المستنصر وهـي نصرانية الأصل . الشماع ، الأدلة البينة ، ص ٦٢، ابن القنفذ: الفارسية ، ص٣٢٢. الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٢٤

(2) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٣٤ .

(٣) سليمان زبيس : حول مدينة تونس ، ص ٢٩.

(4) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٨٨ .

التي أنشـأها الشيخ المغـربي أبو عبد الله [5] ، و مـدرسة " سيدي يحي " التي تقـع في درب العسال وبناها يحي السليماني مع جامعة في سنة ٧٤٧هـ [٦] ، والمدرسة " العصفورية " التي أنشـأهـا ابن عصفور [١] ، وكـانت حـافلة بكبار الأدبـاء والعلماء ، والمدرسة " الحكيمية " التي أنشأها محمد بن علي اللخمي[٢] المعروف بابن حكيم [٣] ، ثم مدرسة الحاجب ابن تافراكين والتي تقع بنهج سيدي إبراهيم الرياحي في تونس [٤] .

أما المؤسسة الثانية التي كان لها دور بارز في مجال العلم فهي " الجامع " فقد ساهمت الجوامع (الملحق ، ص ٢٣٨ إلى ٢٤٢) في إنعاش الحركة العلمية ، فجامع

---

(5) أبو محمد عبد الله المغربي ، من رجال العلم والصلاح ، مؤسس جامع باب الجزيرة في المائة السابعة . محمد العامري ، تاريخ المغرب في سبعة قرون ، ص ١١٨ .

(6) محمد العامري : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(١) ابن عصفور : أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي ، ولد بأشبيلية سنة ٥٩٧هـ ، أديب ونحوي شهير ، نزيل تونس ، توفي سنة ٦٦٩هـ . أبو العباس الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ٣١٧ النيفر : عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونيسية من عالم وأديب ، جـ ١ ، ص ٣٣٩ .

(٢) السخاوي : الضوء اللأمع ، جـ ٢ ، ص ٢٦١.

(٣) ابن حكيم محمد بن علي اللخمي ، قائد جيش الأمير أبي بكر وسمي بابن حكيم نسبة إلى مهنة الطب ، التي كان يمارسها أبوه ، كان قائداً محنكاً برز نجمة في احتلال إفريقية الشرقية وولاية إقليم باجة ، ثم كان ضحية حسد وحقد الحاجب ابن تافراكين الذي دبر له مؤامرة جرده من خلالها من أمواله وممتلكاته وتوفي سنة ٧٤٤ هـ . السخاوي : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ / ٢٦٢ ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية ، جـ ١ ، ص ١٨٦ .

(٤) الضياف : الأتحاف ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

الزيتونة ، كان يزخر بعدد كبير من طلبة العلم قدر عددهم بثلاثة آلاف طالب [٥] ، كانوا يتلقون فيه العلوم الشرعية وهي أكثر ما يدرس في الجوامع عادة ، ومنها أيضاً جامع القصبة الذي أسسه السلطان الحفصي أبو زكرياء الأول سنة ٦٢٩هـ ، ومنها جامع " التوفيق " أو جامع " الهواء " بتونس الذي بنته الأميرة عطف سنة ٦٩٥هـ ، ناهيك عن الجوامع الأخرى مثل " جامع الحلق " [١] وجامع " التبانين " أو جامع " النفاته " [٢] وجامع " الصفصافة " [٣] الذي كان مقراً لعقد حلقات العلم بين رجال التصوف ، هذا وقدر عدد الجوامع والمساجد في تونس بمائتين [٤] جامع ومسجد ، كانت كلها تقوم بدور العبادة والتعليم وهما دوران لا يمكن فصلهما عن بعض .

أما النوع الثالث من المؤسسات التعليمية فهو يتمثل في الزوايا وهي نوعين :

أ – الزاوية التي يتخذها بعض الرجال الذين يدعون التصوف ويمارسون خلالها نشر علومهم بين الناس ثم إذا مات المتصوف أو الولي يقبر في هذا المكان الذي يطلقون عليه الزاوية ويصبح مكانه مقصد للزيارة والتبرك [٥] ، ومن أشهر هذه

---

(٥) محمد بن الخوجة : تاريخ معالم التوحيد ، ص ٢٢٨ .

(١) جامع الحلق بتونس ، موجود في حي باب الجديد ، من مأثر أمة زنجية ، قيل أ ا أسسته في القرن الثامن الهجري بثمن أسورة ذهبية . زبيس : حول مدينة تونس ، ص ٢٣ ، أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ١٠٦ .

(٢) يقع في ربض باب السويقة ، من مأثر الأمير الحفصي أبي عمرو عثمان . أحمد عامر : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٣) عبد العزيز الدولاتلي : مدينة تونس في العهد الحفصي ، ص ٨٤ .

(٤) برنشفيك ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٨٥ . الدولاتلي : المرجع السابق ، ص١٢٧ . أحمد عامر . المرجع السابق ، ص ١٠٦.

(٥) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ١٤١.

الزوايا زاوية سيدي ابن عروس [٦] ، وزاوية سيد الكلاعي [٧] وهي مقابلة لسيدي ابن عروس ، وزاوية سيدي قاسم الزليجي [١] ، وزاوية الشاذلي [٢] ، وغير ذلك من هذه الزوايا التي كانت تقوم بدور تعليمي ولاسيما لأبناء القرى ، والتي ينتشر فيها الجهل بتعاليم الدين الصحيحة ، فكان الراغبون في الدراسة من أبناء البادية والقرى يتحولون إليها [٣] .

(ب) وفي القرن التاسع تطورت خدمات الزوايا ، فأصبحت مكاناً لإيواء المسافرين والغرباء ، إضافة إلى كو ا مقراً للعلم ، ويرجع الفضل في إنشاء هذا النوع من الزوايا إلى عهد السلطان أبي فارس الذي أنشأ الزاوية التي بسيجوم [٤] وجعل فيها جامعاً للخطبة ورباطاً للتعليم وسيماطاً للمقيمين والواردين ، ومنها الـزاوية التي

---

(٦) هو أبو العباس أحمد بن عروس ، من الأولياء الذين يدعون التصوف ، وزاويته جوار جامع حمودة باشا بتونس كانت له مكانة كبيرة عند السلاطين الحفصيين ، حتى أن بعضهم أوصى بأن يدفن بجوار قبر سيدي بن عروس وتوفي بن عروس سنة ٨٠٨هـ ، وعمره ٩٠ عاماً ، ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٥٦ .

(٧) الكلاعي هو محمد بن أحمد بن عبد الله الكلاعي الصوفي له مؤلفات التصوف في " تحفة الحبيب وأنس اللبيب " و " نزهة العين وجلاء الغين " وغيرها ، توفي سنة ٦٩٣هـ ودفن بالزلاج . محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ .

(١) سبق التعريف به .

(٢) الشاذلي : نور الدين أبو الحسن الشاذلي ، ولد سنة ٥٩٣هـ أشهر المتصوفين في إفريقية ، عرف اتباعه بالشاذلية ، توفي سنة ٦٥٦هـ . أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ . برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٣٩ / ٣٤٠ .

(٣) ابن ناجي : معالم الإيمان ، جـ ٤ / ١٩٣ .

(٤) سيجوم هو مكان السبخة المعروفة بالسيجومي الآن قرب الملاسين من ضواحي العاصمة ا ضريح أحد الأولياء المدعو حسين ، السيجومي ، ويبدو أ ا نسبت إليه كما هو واضح من أسمه ، وقد خربت من الأعراب . ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٤٦ .

خارج باب أبي السعدون ، فجعلها للواردين إلى البلاد ، وزاوية أخرى بحومة الداموس [٥] ، جعلها أيضاً م لاً لمبيت الواردين ، وتابع السلطان الحفصي عثمان بناء هذا النوع مـن الزاويا ، فبنى زاوية الزميت [٦] بين باجة وتونس وجعل فيها جامعاً للصلاة ومكاناً للعلم والدرس ورباطاً للمقيمين والواردين [٧] .

وزاوية الفندق ، وزاية أبي الحداد ، وزاوية ال ول ، وزاوية بنونة [١] وغير ذلك من الزوايا .

أما عـن نظام التعليم السائد في هـذه المؤسسات السالفة الذكر ، فكان الطـلاب يخضعون لنظام تعليمي شـديد الوطأة ، فهم يقرؤون مـن الصباح إلى المسـاء في مختلف العلوم ، كما أ م معرضون للعقاب والتوبيخ عند التقصير في الدرس [٢] ، وكانت مـدة الدراسة في هذه المؤسسات التعليمية خمس سنوات ، ويرى ابن خلدون [٣] أن هذا دليل على تفوق أهل تونس ، لأن الدراسة في بلاد المغرب ستة عشر عاماً ، مع تنوع برامج الدراسة كذلك ، أما العطل فهي قليلة إذا ما قيست بالعطل في الوقت الحاضر ، فكانت أيام الأعياد (عيد الفطر المبارك ، وعيد

---

(٥) يطلق الداموس على الكهف في تونس . الترجمان أبي عبد الله ، تحفة الأريب ، ص ٨٦ .

(٦) الزميت : مدينة بناها السلطان أبا عمرو عثمان ، وبني ا زاويته هذه وهي من الأراضي الخصبة وكانت ا أبراج عديدة ربما استخدمت للمراقبة . ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، جـ٢ ، ص ٦٧ .

(٧) السراج : الحلل ، جـ٢ ، ص ١٨٧ / ١٨٨ .

(١) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٩٧ . وابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٥٧ . الشماع ، الأدلة ، ص ١٢٤ .

(٢) محمد بن الخوجة : معالم التوحيد ، ص ٢٨٨ .

(٣) المقدمة ، ص ٤٣٢.

الأضحى) إضافة إلى يومـي الخميس والجمعة ، ويبدو أن المدرسة الشماعية شذت عـن هذا النظام حيث أضاف شيخها ابن القداح يوم الاثنين إلى يومي الخميس والجمعة [(٤)] .

وكانت ذه المدارس بيوت لإيواء الفقراء ملحقة ا ، كانت توزع على مستحقيها ، والعيش ذه المدارس عيش زهد وقناعة ، تعود الإنسان الاعتماد على الذات ، فقد كان على الطلاب معالجة غذائهم بأنفسهم وعلى الرغم ما يعانيه الطلاب من الفقراء ، إلا أ م كانوا مقبلين على العلم برغبة وحب ، وكان الشيوخ يقدمون لهم العون إذا لمسوا منهم الحاجة ، ومن ذلك أن أحد الطلبة في إحدى المدارس بتونس كان فقير الحال ، ويقتات من فواضل الخضر الملقاه على أبواب المنازل ، فكان يأخذها خفية من الناس ويطبخها بعد (تتبيلها) حتى يظن الطلبة أ ا لحم ، فأثر ذلك على صحته ، حتى عين معيداً لتفوقه ، ولفت انتباه شيخه بما أحرزته دروسه من نجاح ، وقد قال واصفاً لحاله " قال لي بواب المدرسة يوماً ، حاجتي بمفتاح البيت فأعطيته له وخرجت لقضاء حاجتي ، واعتقادي أنه يكنس لي البيت ، لأننا ألفنا منه ذلك ، فلما قضيت حاجتي ورجعت أعطاني المفاتح ، فحليت البيت ودخلت ، وإذا في وسط البيت ثوب وجبه ملف معلقتان في مسمار وحرام وعمامة في مسمار أخر وكسوة أخري مثل ذلك وقنطار سميد ونصف قنطار فحماً ولحم مقطع ونصف لحم معلق ، وعليها دراهم وغير ذلك من حوائج البيت فقلت أظن هذا البيت ليس بيتي ، فخرجت منها وأخذت في عد البيوت فتحققت أ ا هي ، فقلت للبواب ما

(٤) برنشفيك: تاريخ إفريقية ، جـ٢ ، ص ٣٧٨ .

هـذا ؟ فقال لي : يقول لك الشيخ كنت أولاً جاهلاً بك وبحالك فلا سبيل أن تتشوش من شيء لا من طعام ولا من غيره " [١].

ولم يكن نظم الامتحانات الحالية مأخوذاً بها آنذاك ، وإنما هناك (إجازة) [٢]، من شيخ إلى تلاميذه الذين استطاعوا التفوق والإتقان والحفظ ، فيمنحون رخصة تسمح لهم بأن يقوموا بالتدريس مكان شيوخهم وهي رخصة عرفت (بالإجازة) [٣] وكان الطلبة لا ينتقلون من أهم المراكز العلمية الموجودة مثل القيروان إلى العاصمة لمواصلة دراساتهم إلا من يريد القضاء والشهادة أو هما معاً [١] .

أما عن طريقة التدريس فلم يكن هناك طريقة معينة ولا منهج متبع ، فلم يكن هناك كتب محددة للدراسة ، وإنما لكل شيخ طريقته ومنهجه في التدريس ، فمثلاً الشيخ محمد الرماح كلف تلاميذه بأن يتولوا عنه كل صباح تدريس التفسير والحديث وفروعهما وكلف آخرين بتدريس النحو والفرائض والحساب ، وكان كل يوم جمعة يجتمع مع هؤلاء المدرسين فيعرضون عليه ما أشكل عليهم [٢] .

---

(١) ابن ناجي : معالم الإيمان ، جـ ٤ ، ص ١١١ .

(٢) الإجازة : هي أذن وتسويغ ، وهي أذن من المعلم لتلميذه بنقل العلم عنه ، وقد بدأت مع علم الحديث ، وقد ساعدت على نقل العلم وتطوره . ابن فرحون ، الديباج ، جـ٢ / ٢٥٢ . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، جـ١ / ١٧٦ .

(٣) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ١٤٩ ، ١٥٢ .

(١) ابن ناجي : معالم الإيمان ، جـ ٤ / ٢٦٠ .

(٢) ابن ناجي : المصدر السابق ، جـ ٤ /١١٢ .

أما الشيخ عبد الله الشبيبي [٣] ، فكان يجلس بعد صلاة الصبح ، فيبدأ الحصة الأولى التي يخصصها لتفسير بعض آيات القرآن ، ثم الحصة الثانية التي تستمر إلى أذان الظهر وتخصص للفقه ومبادئه ويحضر هذه الحصص خمسة عشر طالباً من الطلبة المبتدئين [٤] .

أما الحصة الثالثة فهي مخصصة للطلبة الكبار الذين يبلغ عددهم نحو " العشرة " ثم يصلي الشيخ الظهر ويتناول طعامه ، وقبل آذان العصر بقليل يتولى تعليم " تجويد القرآن " إلى أذان المغرب ، حيث يتحول إلى زاوية من الزوايا للقيام بالتعليم ، ولا يعود إلى بيته إلا بعد العشاء حيث يعد للدروس التي سيلقيها من الغد [٥] .

ويتضح أن الطريقة السائدة هي طريقة الإلقاء والتي تتمثل في إلقاء الشيخ بعض الأسئلة على تلاميذه ومناقشتهم في المواضيع المطروحة [١] .

٢ - إنشاء المكتبات :

عمت الثقافة البلاد الإفريقية حتى أصبحت الحاضرة التونسية حاملة لمشعل العلم وقد عزز دورها الثقافي انتشار العديد من المكتبات ، فقد كان لكل مدرسة مكتبة خاصة ا ، كما أن الزوايا كانت تحتوي مكتبات فيها الكتب الدينية مثل القرآن ،

---

(٣) عبد الله محمد بن يوسف البلوي الشبيبي قيرواني – مقرئ – فقيه – رواية له مشاركة في العلوم ، أخذ عنه ابن ناجي له مؤلفات منها " شرح الرسالة " و " شروط التكليف " و " فرائض المالكية " ، توفي سنة ٧٨٢هـ . ابن ناجي ، تذييل معالم الإيمان ، ص٢٠٣ ، ٢٢٦ . محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين ، جـ٣ ، ص ١٤٥ .

(٤) ابن ناجي : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٠٦ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٢٥ .

(١) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣٥٦ .

التفسير ، وجوامع الحديث ، وكتب السير [٢] ، وكتب المناقب للأولياء الصالحين ، فقد ذكر التجاني [٣] " أنه في القرن الرابع عشر كان يوجد عدد من الكتب في زاوية بعيدة عن المدن الكبيرة وهي لأولاد سهيل " ، وحرص بعض الفقهاء على اقتناء الكتب ومن ذلك أن الشيخ علي بن حسن العواني [٤] كان يقتني العديد من الكتب في زاويته ، ثم أخرجها بعد ذلك للانتفاع ا [٥] .

وأيضاً انشأ الأمراء المكتبات في قصورهم ، ومن ذلك ما قام به السلطان الحفصي أبو زكرياء الأول الذي جمع سائر كتب مكتبة الصنهاجين والأغالبة ، وأظهر المكتبة التونسية بالقصبة وأضاف إليها ألوف الكتب حتى بلغت في عهده ٣٦ألف مجلد في شتى العلوم والفنون [٦] ، وجعل المستنصر بعد ذلك مهمة الإشراف على هذه المكتبة لأبي الحسن بن موسى بن معمر الطرابلسي [١] فلما سئل ابن معمر عن سير المكتبة الحفصية في زمن الواثق ابن الخليفة المستنصر بعد وفاة أبيه سنة ٦٧٥هـ

---

(٢) الدولاتلي : تونس في العهد الحفصي ، ص ٨٣ .

(٣) الرحلة ، ص ١٢٧ .

(٤) العـواني : إبراهيم بن يـوسف بن عبد الملك العواني القيرواني ، مؤرخ ، أديب ، تولى القضاء في الحامة وسوسة ، توفي سنة ٧١٦هـ . محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين ، جـ٣ ، ص ٤٣٨ .

(٥) ابن ناجي : معالم الإيمان ، جـ ٤ ، ص ١٥١ .

(٦) محمد العامري : تاريخ المغرب في سبعة قرون ، ص ١٦٤ .

(١) ابن معمر الطرابلسي الهواري التونسي ولد بطرابلس سنة ٦٠٩ هـ ، أديب ، فقيه ، خطيب ، مفوه ، تولى خطة القضاء في بجاية ، وباجة ، توفي سنة ٦٨٢هـ بعد سجنه من قبل رئيس الدولة أبو الحسن بن أبي مروان في بعض القضايا . محمد النيفر ، عنوان الأريب ، جـ١ ، ص ٢٦٣ . والغبريني : المرجع السابق ، ص ٣٠٩ .

" أ ا كانت ثلاثين ألف سفر ، وأنه الآن اختبرها ، فوجدها ستة آلاف سفر " [٢] ، وكان الخليفة المستنصر قد نفاه عنها إلى المهدية سنة ٦٦٧هـ لخلاف وقع بينهما .

وبعد وفاة المستنصر إعادة الواثق إلى المكتبة فوجدها تقصر عن ستة آلاف كتاب فلما سئل عن موجب ذلك قال : " المطروايدي البشر " [٣] .

وقد أبدى المستنصر عناية فائقة ـذه المكتبة فكان لا يسمح بترسيم تاليف في فهرستها حتى يدرس وينقد ، وقد أوكل مهمة النقد إلى الأديب الكبير حازم القرطاجني [٤] ، وقد استمرت هذه المكتبة منهلاً لرجال العلم وهواة الأدب والفنون حتى عهد أبي يحي اللحياني سنة ٧١١هـ حيث أتى على معظم هذه الكتب فباعها حتى ينجو بالفرار [٥] .

ولاحظ العبدري أن الجامع الأعظم بالقيروان كان يحتوي على كتب قديمة ، ومن بينها مصحف كبير الحجم يرجع تاريخه إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان [١] .

ولم تعرف المكتبات العمومية بمعناها المتعارف عليه إلا في زمن الأمير أبي فارس عبد العزيز الذي أسس أول مكتبة عمومية سنة ٨٣٧هـ في المقصورة الموجودة في

---

(٢) محمد النيفر : عنوان الأريب ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) حازم بن محمد بن خلف القرطاجني الأنصاري ، الأندلسي ، نزيل تونس ، ولد بقرطاجنة سنة ٦٠٨هـ نزل تونس بعد سقوط قرطاجنة في يد الأسبان ، وهو أديب وشاعر ، أشتهر بمقصورته التي بلغت ألف بيت في مدح الخليفة المستنصر ، توفي سنة ٦٨٤هـ . حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٢٥/١٥ .

(٥) محمد العامري : تاريخ المغرب ، ص ١٦٤ .

(١) الرحلة ، ص ٣٦ .

جامع الزيتونة وأهدى لها كتبا كان يملكها في مكتبته الخاصة في القصر حتى تكون في خدمة الطلبة [٢] .

وسن لها قانوناً حيث أشترط إلا يخرج أي كتاب من المكتبة ، وليس للراغب في المطالعة حق التصرف في الكتاب بالمطالعة أو النسخ إلا داخل المكتبة تحت مراقبة المشرف عليها ، وأقام لها موظفين رسميين يفتحو ا في أوقات محددة من أذان الظهر من كل يوم إلى أذان العصر [٣] .

وفي عهد السلطان أبي عمرو عثمان تم بناء خزانة كتب بالمقصورة الشرقية في الجامع الأعظم وقد أمر ببنائها السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان فتم ذلك سنة ٨٥٤هـ [٤] ثم أضاف السلطان أبو عبد الله بن الحسن سنة ٩٥٢هـ مقصورة أخرى بطرف صحن جامع الزيتونة من الجهة الشرقية وأضاف لها كتب عظيمة الفائدة وعرفت هذه المكتبة بـ (العبدلية) [٥] .

٣ - تشجيع الأمراء الحفصيين للعلماء ورعايتهم :

كان لتشجيع الأمراء الحفصيين أكبر الأثر في نشر العلم ، فالأمراء الحفصيون كانوا يحبون العلم ومجالسة العلماء فأبو زكرياء مؤسس الدولة كان عالماً ختم كتاب

---

(٢) الدولاتلي : مدينة تونس ، ص ٨٣ .

(٣) محمد العامري : تاريخ المغرب ، ص ١٦٦.

(٤) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ١١٩ .

(٥) ابن السراج : الحلل ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ .

المستصفي (١) على الشيخ الرعيني السوسي (٢) ، وناظر في النحو علي ابن عصفور ، فكان قدوة حسنة لأبنائه (٣) ، وأفراد شعبه ، ولقد جعل الحفصيون التعليم مجاناً حتى يشجعوا الناس على الإقبال عليه ، بل أن أبا زكرياء الثاني منح الطلاب في مدرسته المعرضية منحاً من الذهب والفضة حتى يحفزهم على التعليم ، وجعل لشيخ المدرسة عشرة دنانير من الذهب في الشهر ، وفتح نافذة من م له الملاصقة للمدرسة حتى يسمع ما يدرس (٤) فيستفيد ، وكان يحضر دروس الوعظ كل يوم اثنين وجمعة فيطلق العنبر والعود في أنحاء ا لمس (٥) ، وحرص السلطان أبو العباس على حضور الدروس العلمية بانتظام وكان موقفة من ابن خلدون ، عندما احتضنه وحماه طيلة السنوات التي قضاها في تونس (٦)خير مثال على رعاية الأمراء الحفصيين للعلماء ، أيضاً كان للسلطان أبي فارس عبد العزيز اهتمام كبير بالعلم حيث فرض ترتيب قراءة صحيح البخاري كل يوم بين الظهريين بجامع الزيتونة وقراءة الترغيب والترهيب (١) بعد

---

(١) " المستصفي في أصول الفقه " وهو أحد مؤلفات أبو حامد بن أحمد الغزالي الشافعي المولود سنة ٤٥٠هـ وله مؤلفات أخرى مثل " أحياء علوم الدين " و " افت الفلاسفة " و " الوجيز في فروع الفقه الشافعي " وهـو حكيم متصـوف أصولي ، توفي سنة ٥٠٥ هـ . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى، جـ ٤ ، ص ١٠١ ، ١٨٢ .

(٢) السوسي هو محمد بن عبد الجبار الرعيني السوسي ، فقيه ، ولد سنة ٥٦٧هـ ، وتوفي سنة ٦٦٢هـ . شيخ ابن زكرياء الأول الحفصي ، اشتغل بالعلم والإقراء مـده حياته . محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين ، جـ٣ ، ص ١٠١ ، ١٠٨ .

(٣) ابن السراج ، الحلل ، جـ٢ ، ص ١٤٤ .

(٤) محمد العامري : تاريخ المغرب ، ص ١١٨ .

(٥) ابن السراج : الحلل ، جـ٢ ، ص ١٥٨ .

(٦) محمد العروسي المطوي : السلطنة الحفصية ، ص ٥٤٢ .

(١) الترغيب والترهيب ، كتاب في الحـديث لابـن القاسم إسماعيل الفضل بن محمد القرشي ، ٤٥٧هـ . (الذهبي) ، سير أعلام النبلاء ، جـ ٨٠/٢٠ .

العصر ، وكتب السلطان أبو عمرو عثمان الختمة بيده في عدة أسفار وأوقف عليها أوقافاً للاشتغال بقراء ا بعد صلاة الظهر من كل يوم ، وبني ثلاثة مكاتب للقرآن العظيم واحد قبلي الجامع الأعظم واثنان في باب المنارة (٢) .

وأيضاً حرص أمراء بني حفص على إكرام العلماء وحسن وفاد م وإنزالهم منازل الحظوة مما جعل من تونس محط أنظار العلماء والأدباء من كل مكان ، حتى أن من فارق تونس كان يحن إليها ويتمنى عدم مفارقتها لما يجده عند ملوكها من العناية والاهتمام والإحسان والإكرام من أهلها ، حتى أن أحد الوافدين عليها عندما أجبرته الظروف على مفارقتها في سنة ٦٦٦هـ أنشد قائلاً :

رفيقي جـاوزنا حـدود مواطن صحبنا بـها الأيـام طلقاً محياها
وما إن تركناهـا لجهل بقدرهـا ولكـن ثنت عنا أعنة سقـياها
فسرنـا نحث السير عنها لغيرها إلى أن يمن الله عنا بلقـياها (٣)

٤ - الهجرة الأندلسية إلى بلاد الحفصيين :

كانت الأندلس تزخر بالعديد من العلماء والأدباء في كل فنون الثقافة العربية والإسلامية وبعد سقوط العديد من مد ا وولايا ا هاجرت طلائع العلماء الأندلسيين إلى بلاد المغرب واستوطن الكثير منهم إفريقية (٤) ، وكانت لهم مشاركة عظيمة في العلوم النقلية والعقلية والفلسفية والطبيعية ، وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل في المبحث الثالث من هذا الفصل .

المبحث الثاني : العلوم النقلية وأشهر علمائها :

---

(٢) الشماع : الأدلة النورانية ، ص ١٢٥ . وابن السراج ، الحلل ١٨٩/٢ . الضياف : الإتحاف ٢٣١/١ .

(٣) النيفر : عنوان الأريب ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ .

(٤) العامري : تاريخ المغرب في سبعة قرون ، ص ٥٢/٥١ .

تنوعت العلوم في العصر الحفصي فأصبحت تونس محط أنظار علماء المسلمين في كل مكان ، فتوافد عليها العلماء ينهلون من علومها ، ويستفيدون من معارفها ، وقد أعجب العبدري بتنوع العلوم في تونس فقال ممتدحاً لها " لا تنشد بها ضالة للعلم إلا وجد بها ولا تلتمس بها بغية إلا استفد بها وما من فن من فنون العلم إلا وجدت بتونس به قائماً ، ولا مـورداً من مـوارد المعارف إلا رأيت بها حوله وارداً وحائماً " [١] .

على أن أبرز هـذه العلوم هي العلوم النقلية وهي كما عرفها ابن خـلدون بأنها " العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول " [٢] .

١ - وأول هذه العلوم القرآن الكريم : الذي وجد عناية كبيرة من المسلمين على مر العصور ، وقد توص أهل تونس في هذا العصر على تعلمه وحفظه ومعرفة أحكامه ، فظهرت كتب التفاسير التي تعتني بتفسير القرآن وتدبره حتى يسهل على الناس معرفة أحكامه وما فيه من أوامر ونواهي ، وقد اعتمد أهل تونس في تفسيره على كتاب " الزمخشري " [٣] " الكشاف " الـذي شرحه محمد عطية ، فوصل هذا الشرح إلى المغرب في منتصف القـرن الرابع عشر [٤] . وأيضاً على

---

(١) الرحلة المغربية : ص ١٤٢ .

(٢) المقدمة : ص ٤٣٥ .

(٣) الزمخشري : هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ، من كبار أئمة العلم والتفسير واللغة والدين والأداب ، ولد سنة ٤٦٧هـ ، وسافر إلى مكة وبقي بها زمناً ثم تنقل بين البلدان ، وعاد إلى الجرجانية ، وتوفي بها سنة ٥٣٨هـ ، له عدة مؤلفات منها "المفصل" و " أطواق الذهب " و " الأنموذج " و " المقامات " و " الكشاف " وهو أشهر كتبه وتناول فيه تفسير القرآن الكريم ، وغيرها من المؤلفات . ابن خلكان وفيات الأعيان ١٦٩/٥ . والأعلام ١٧٨/٧ . والغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣٦٤ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٤٠ .

كتاب " الكشف والبيان في تفسير القرآن " للثعلبي [١] ، ثم ظهرت عدة تفاسير للقرآن الكريم ، فالحرالي أبو الحسن علي بن أحمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٦٣٨هـ كان عالماً ومفسراً ، رحل إلى المشرق وناظر العلماء ، له كتاب في قوانين التفسير " مفتاح اللباب المقفل على فهم القرآن المـ ل " وله تفسير أخر للقرآن كان يورد فيه الآي وينسقها نسقاً بديعاً وكان يسلك في تفسيره سبيل التحرير ، فيقف على الآية لفظة لفظة وحرفاً حرفا [٢] .

ومـن المفسرين أحمد بن محمد البسيلي الجزائري ، كان مدرساً بالمدرسة الحكيمية ، توفي سنة ٤٨٤ هـ وهـو أحد تلاميذ ابن عرفة له تفسير قيده عن شيخه ابن عرفة وأضـاف عليه إضافات من غيره [٣] ، ومنهم أيضاً ابن بزيزة عبد العزيز بن أحمد التميمي القرشي ، وهـو محدث ، ومفسر وراوية ، توفي سنة ٦٦٢ هـ لـه كتاب في تفسير القرآن العظيم [٤] ، جمع فيه بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشري .

أمـا الحديث فقـد بـرزت فيه كتب الصحـاح مثل " صحيح مسـلم " [٥]

(١) الثعلبي هو أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، مفسر من أهل نيسابور ، توفي سنة ٤٢٧هـ ، ويعتبر كتابه " الكشف والبيان في تفسير القرآن " من أهم كتب التفسير . ابن خلكان : وفيات الأعيان٢٢/١. ابن كثير : البداية والنهاية ٤٠/١٢ . وحاجي خليفة : كشف الظنون ٤٤٨/٢ .

(٢) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ١٩٠/١١ . محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين ، ١٣٧/١ .

(٤) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٩ . البغدادي ، هداية العارفين ، ٥٨١/١ .

(٥) صحيح مسلم : مؤلف ضخم في علم الحديث ، للإمام أبو الحسن بن الحجاج القشيري النبسابوري ، المولود سنة ٢٠٤هـ ، وهو ثاني كتاب في السنة النبوية وأحد الصحيحين ، وهو مرتب على الأبواب ،

و " صحيـح البخـاري " [١] و " سنـن الترمذي " [٢] و " النسائي" [٣] و " أبي داود " [٤] وقـد ظهـرت شـروحات عدة في الحديث ومنها شرح على صحيح مسلم لأبي محمد بن خلفه بن عمر الوشتاتي ، وهو قاضي الجزيرة القبلية في عهد أبي فارس الحفصي ، درس في تونس زمناً ، وهو محدث ومفسر وكتابة في الحديث المسمـى " اكمال إكمال المعلم " حظى بـاهتمام المحـدثين في العصر الحفصي لأنـه ضمنه عدة شروحات ومنها شرح كتاب المازري [٥] ، والقاضي عياض [٦] ،

وللإمام مسلم كتاب أخر " المسند الكبير " وقد رتبه على الرجال ، توفي الإمام مسلم سنة ٢٦١هـ . الأعلام ، ٢٢١/٧ .

(١) للإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله البخاري ، صاحب الجامع الصحيح ، ولد سنة ١٩٤هـ في بخاري ، وزار في طلب الحديث خراسان ، والعراق ومصر والشام وسمع من نحو ألف شيخ وجمع ستمائة ألف حديث أختار منها في صحيحه ما وثق برواته ، مات بضواحي سمر قند عام ٢٥٦هـ . الزركلي : الأعلام ، ٣٤/٦ .

(٢) الترمذي : محمد بن عيسي بن سورة بن موسى الترمذي أو عيسى ، تتلمذ على البخاري وشاركه في بعض شيوخه ، كان يضرب به المثل في الحفظ من تصانيفه " الجامع الكبير " المطبوع باسم صحيح الترمذي في الحديث و " الشمائل النبوية " و " التاريخ " و " العلل " ، توفي سنة ٢٧٩هـ . الزركلي : المصدر السابق ، ٣٢٢/٦ . ومقدمة كتاب صحيح سنن الترمذي باختصار السنة . محمد ناصر الدين الألباني ، ص أ ، ب .

(٣) أحمد بن علي بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي ، صاحب السنن الكبرى في الحديث وشيخ الإسلام في عصره ، ولد سنة ٢١٥هـ ، وتوفي سنة ٣٠٣ هـ . الأعلام ، ٣٣٨/٦ .

(٤) أبو داود : هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني ، أمام أهل الحديث في زمانه له " السنن " جزءان جمع فيه ٤٨٠٠ حديث انتخبها من خمسمائة ألف حديث ، ولد سنة ٢٠٢ هـ ، وتوفي سنة ٢٧٥هـ . الزركلي : المصدر السابق ، جـ٦/٣٢٥ .

(٥) المازري : أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري ، محدث من فقهاء المالكية نسبته إلى مازر بجزيرة صقلية ، توفي بالمهدية سنة ٥٣٦هـ . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ٣٨٢ .

والنووي [١] ، والقرطبي [٢] ، وللأبي أيضاً كتب في تفسير القرآن العظيم ، وقد توفي الأبي سنة ٨٢٨هـ [٣] .

وتعددت المؤلفات في الحديث ، ومنها " المستوفي في رفع أحـاديث المستصفي " و " جوامع الكلم النبوية " و " سنن القوم في أداب الليلة واليوم " جميعها للمحدث التونسي ابن عر ا عثمان بن عتيق القيسي المهدوي ، والمتولي لقضاء تبرسق ، والمتوفي سنة ٦٥٩هـ [٤] .

ومنهم أيضاً في الحديث عبد المهيمن بن محمد الحضرمي ، محدث ، ضابط له معرفة برجال الحديث ، وذكر أنة كانت لديه خزانه كتب نفيسة تزيد عن ثلاثة آلاف كتاب في الحديث والفقه والعربية ، وله في الحديث " أربعينية تساعية " [٥] وهي التي يحتوي سندها على تسعة رجال ، ومنهم أيضاً في علم الحديث عبد الرحمن بن محمد بن علي الأنصاري الأوسي يعرف بابن (الدباغ) ، ولد بالقيروان وأن سنة ٦٠٥ هـ ،

---

(٦) القاضي عياض هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي المالكي ، ولد سنة ٤٧٦هـ ، ورحل إلى الأندلس ، تولى قضاء سبته ، من مؤلفاته " ترتيب المدارك وتغريب المسالك " وكتاب " الشفا في أحوال المصطفي " ، توفي سنة ٥٤٤هـ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان (٤٨٣/٣) .

(١) أبو زكريا يحي بن شرف بن مري بن حسن الحوارني ، النووي ، الشافعي ، من أهل نوا من قرى سوريا ، له مؤلفات منها " روضة الطالبين " و " رياض الصالحين " و " الأربعون حديثاً النووية " ، تـوفي سنة ٦٧٦هـ . السبكي ، طبقات الشافعية ١٦٥/٥ ، ١٦٦ . والزركلي ، الأعلام ١٤٩/٨ .

(٢) القرطبي أحمد بن عمر القرطبي ، توفي سنة ٦٥٦هـ . السبكي : المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٤٠ .

(٣) البغدادي : هدية العارفين ١٨٤/٢ . محمود مقديش ، نزهة الأنظار ، ٢٣٩/١ ، ٢٤٠ .

(٤) الشماع : الأدلة النورانية ، ٥٣ – ٥٤ . العبدري ، ص ٥٠ . مخلوف : شجرة النور الذكية ،جـ ١٨٩/١ .

(٥) ابن القاضي : درة الحجال ١٧٣/٣ / ١٧٤ ، المقري ، نفح الطيب ٤٢٣/٣ .

وتوفي سنة ٦٩٩ هـ له (الأربعون حديثاً التساعية) و (كتاب الأحاديث الأربعين في عموم رحمة الله لسائر المؤمنين) ، و (كتاب سراج المتقين المنتخب من كلام سيد

المرسلين) و (مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب) [١] ومنهم أيضاً ابن بزيزة ، الذي له عدة مصنفات في الحديث منها (الإسعاد في مقاصد الإرشاد) [٢] وهو شرح على الإرشاد و (الأنوار في فضل القرآن والدعاء والاستغفار) وهو رسالة في ٢٨ ورقة فيها أربعين حديثاً في فضل القرآن [٣] وله (شرح الأحكام الصغرى) و (شرح الأحكام الكبرى) لعبد الحق الأشبيلي [٤] وهي في فقه الحديث وله (شرح أسماء الله الحسنى) و(منهاج المعارف إلى روح العوارف) [٥] .

أما الفقه [٦] فقد كان أكثر العلوم تطوراً ودراسة ، ويعود الفضل في ذلك إلى عودة بلاد المغرب إلى المذهب المالكي ، والذي كان سائداً في بلاد المغرب منذ عهـد الإمام مالك رحمة الله ، ولعل القارئ الكريم يتسأل عن سبب اختيار المذهب المالكي دون غيرة من المذاهب الأخرى ؟

---

(١) محمد محفوظ : تراجم المؤلفين ، حـ ٢ ، ص ٢٩ / ٢٩١ .

(٢) الإرشاد : كتاب في الفقه لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف ابن محمد بن حيوية الطائي السنبسي ولد سنة ٤١٩هـ وتوفي سنة ٤٧٨هـ لقب بإمام الحرمين له مؤلفات عدة منها ((الشامل)) و ((البرهان في أصول الفقه)) و ((الورقات في أصول الفقـه)) و ((التحفـة)) و ((مختصر النهاية)) وغيرها ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/ ٣٤٢ . الـذهبي الاعـلام ١٣٧/١ . السبكي طبقات الشافعية ، حـ ٥ / ٢٨٨ ، ٢٩٩ . (ابن العماد) عبد الحي الحنبلي شذرات الذهب في أخبار ذهب ،جـ٣ / ٣٦٠.

(٣) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٩ ، البغدادي : هدية العارفين ٥٨١/١ .

(٤) أبو محمد بن عبد الحق الأشبيلي،محدث مشهور في إشبيلية تتلمذ على يده فقهاء عدة ،ولد سنة ٥١٠هـ رحل إلى بجاية وتولي القضاء [illegible] ، وتوفي سنة ٥٨١هـ . الغبريني . عنوان الدراية ، ص ٤١ .

(٥) الزركشي :تاريخ الدولتين ، البغدادي هدية العارفين حـ ١ / ٨٥١ .

(٦) الفقه لغة : الفهم : إصطـلاحاً : هو العلم الحاصل بجملة في الأحكـام الـشرعية الفرعيـة بـالنظر والاستدلال . (الأمدي) الإحكام في أصول الأحكام ، جـ ١ ،ص ٧ .

ويجيب عن هذا التساؤل " ابن خلدون بقولة " أما مالك رحمة الله تعالى فاختص بمذهبة أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيرة إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم المدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا عن الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبلة وتلميذه من بعده فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيرة ممن لم تصل إليهم طريقته وأيضاً فالبدواه كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزال المذهب المالكي غضاً عندهم "[١] وهناك سبب أخر لانتشار المذهب المالكي في المغرب وهو أن أهلة كانوا لا يحبون الجدل ويميلون إلى الأخذ الحديث وهذا القول الإمام الشافعي [إذا صح الحديث فاضربوا برأيي عرض الحائط][٢] فطبيعتهم في تناول قضايا الفقه كطبيعة أهل مصر .

إلا أن المذهب المالكي بدأ في النسيان مع ظهور الدولة الموحدية التي ساد مذهبها الموحدي . حتى جاء العهد الحفصي ، حيث قام ثلاثة من العلماء بدور كبير وبارز في عودة نشر المذهب المالكي في إفريقية من جديد ، وأول هؤلاء العلماء كان أبو القاسم بن أبي بكر بن زيتون اليمني[٣] والذي كانت له رحلتان إلى المشرف في

---

(١) المقدمة ، ص ٤٤٩ .

(٢) الأمام الشافعي : للشيخ محمد أبو زهرة ، ص ١٦ .

(٣) هو تقي الدين أبو القاسم وأبو محمد بن بكر بن مسافر ولد سنة ٦٢١هـ وأخذ عن الرعيني وغيره ، وتوفي سنة ٦٩١ هت مخلوف : شجرة النور الزكية ، حـ ١ / ١٩٣ . والغبريني : عنوان الدراية ، ص ٩٧.

سنة ٦٢٨هـ و ٦٥٦هـ والتقى مع تلاميذ فخر الدين الرازي [١] ، وسمع من عـز الدين بن عبد السلام[٢] تأليفه (مختصر الرعاية) والقواعد المسماة (بمعالم الطاعات) فعاد إلى المغرب ونشر تأليف الإمام الرازي وطريقته في الأصول وهو أول مـن قـام بذلك [٣] ، ثم واصل عالم أخر مغربي الأصل يسمى شعيب الهسكوري نشر المـذهب المالكي في إفريقية إلى أن توفي سنة ٤١٦هـ [٤] وتبعة عـالم قبلي أخر يدعى أبـو علي نـاصر الدين بن أحمد بن عبد الحـق المشدالي ، ولـد سـنة ٦٣١ هـ ـ وتـوفي سنة ٧٣١هـ ، رحـل إلى المشرق صغيراً مع أبيه وقرأ وسمع بالشام ومصر والتقى بشيوخ عـدة منهم عـز الدين بن عبد السلام وشمس الدين الأصبهاني [٥] ، والشيخ صـدر الدين سليمان الحنفي[٦] وغيرهـم ثم عـاد إلى المغرب حاملاً كتاب

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي الرازي ، أوحد أهـل زمانـه في المعقـول والمنقول ، ولد سنة ٥٤٣هـ له مؤلفات عديدة منها (المباحث الشرقية) و (مفاتيح الغيب) و (معالم اصول الدين) و (المطالب العالية في الحكمة) ، و المحصول في علم أصول الفقه وغيرها تـوفي سـنة ٦٠٦ هـ ، وقيل ٦٥٩هـ السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ ٤ / ٢٨٥ والبغدادي : هدية العارفين جـ ١/ ٧٨٤ .

(٢) العز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي الدمشقي ، ولد بدمشق سنة ٥٧٧ هـ ـ وبـرع في الفقـه والأصول ، واللغة العربية ، تولي قضاء مصر، ثم اعتزل و توفي في القاهرة سنة ٦٦٠هـ له عدة كتب منها (التفسير الكبير) ، (الفوائد) و (الإلمام) وغيرها . السبكي ، المصدر السابق جـ ٥/ ٨٠ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٢٠٨/٧ . الزركلي : الأعلام ٤ / ٢١ .

(٣) ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ، جـ ١ /١٩٣ . والغبريني : المرجع السابق ، ٩٧ .

(٤) برنشفك ، تاريخ إفريقية جـ ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٥) شمس الدين أبو الثناء محمود ابن عبد الرحمن الأصبهاني ، مفسر ، عالم توفي سنة ٧٤٩هـ البغـدادي ، هدية العارفين ١٣٦/٢ ، الزركلي : الأعلام ، ٣٠٨/٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٣١٥/١٣ .

(٦) الحنفي سليمان بن أبي العز بن وهيب الأذرعي ، صدر الدين ، شيخ الحنفية في زمانه ولي قـضاء مـصر والشام ، توفي بدمشق سنة ٦٧٧هـ . ابن العماد ((شذرات الذهب جـ ٣٥٧/٥ ابن كثير ، البدايـة والنهاية ٢٨١/١٣ .

ابن الحاجب [١] (المختصر) وقام بنشرة في إفريقية وهو أول من أدخل هذا الكتاب الفقهي إلى المغرب [٢] . وأيضاً لا ننسى مساهمة أصحاب المدرسة القيروانية ممثلين في أبو محمد بن عبد ا يد بن أبي بكر بن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي المولد سنة ٦٠٦هـ والمتوفي سنة ٦٨٤ هـ . والذي رحل هو أيضاً إلى المشرق ، والتقى مع علمائه ، ثم عاد إلى تونس ، وكان ذا علم بالفقه ، والأصول [٣] فجلس للأقراء فتقرأ عليه الفنون الثلاثة الفقه وأصوله والدين ، وكانت مؤلفاته خير مساهم في نشر المالكية ومنها (العقيدة الدينية) و(شرحها) و (مذكي الفؤاد في الحض على الجهاد) وحلّ الالتباس في الرد على بغاه القياس) .

ومما ساعد أيضاً على نشر المذهب المالكي في تونس تسامح سلاطين بين حفص ، فقد أبدى الخليفة المستنصر تسامحاً عن المذهب الموحدي واعتناق المذهب المالكي وتدريسة في المدارس ، بل أصبحت هناك مدارس خاصة بالمذهب المالكي [٤] .

وقد بذل فقهاء تونس جهد كبيراً في تثبيت المذهب المالكي،حيث ظهرت التالف والشروحات التي تتناول المذاهب الفقهية ، وبالتحديد المذهب المالكي ، ومن أشهر

---

(١) هو عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جمال الدين المصري ، من أشهر تصانيفه (المختصر) ولد سنة ٥٧٠ هـ وتوفي سنة ٦٤٦ . ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ، جـ ٦ / ٣٦٠ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : الدر الكامنة في أيمان المائة الثامنة ، جـ ٦٣١/٤ .الغبريني : عنون الدراية ، ص ٢٢٩، العبدري ، ١٤٧ ،برنشفيك ، تاريخ إفريقية ٣٠٢/٢ .

(٣) أصول الفقه هي مجموعة من القواعد التي يتوصل ا إلي استنباط الأحكام الفقهية و له طريقتان ، طريقة الشافعية أو المتكلمين وهي الكتابة بدون التقيد بمذهب معين وهي عقلية محصنة ، والطريقة الثانية هي (الحنفية) وهي الكتابة مع التقييد بمذهب والدفاع عنه . وقد كثرة الكتابة في الأصول بعد القرن الثالث الهجري وأول من كتب فيه الشافعي ألف كتاب (القياس) و (الرسالة) و (الأستحسان) وغيرها . شهاب الدين القرافي ، شرح تنقيح الفصول في أختصار المحصول ، ص ١٧ .

(٤) الغبريني : عنون الدارية ، صـ ١٠٩ ، ١١٠.

علماء العصر الحفصي الذين اشتهروا بمؤلفا م الفقهية الفقيه محمد بن عبد الله بـن أحمد بـن عبد السلام المعروف بـابن الطير المتوفي سنة ٦٧٥هـ ، أختصـر كتاب (المستصفي) للغزالي في أصول الفقه [١] ومنهم أيضاً الفقيه القيـسي الصفاقـسي إبراهيم بن حمد المولود سنة ٦٩٧هـ والمتوفي سنة ٧٤٨هـ فله عدة مؤلفات فقهيه منها (تقييد على ابن الحاجب) ، و(جزء ألفة في أسماع المؤذنين خلف الإمـام) [٢] ومنهم ابن راشد القفصي المتوفي سنة ٧٣٦هـ ، كان من أبرز الفقهـاء في العـصر الحفصي ترك العديد من المؤلفات في الفقه والأصول ومنـها (الثاقـب في شـرح الحـاجب) وهو شرح مختصر ابن الحاجب وهو في ثمانيـة أسـفار و (الفـائق في الأحكام والوثائق) و(المذهب في ضبط مسائل المذهب) و (لباب اللبـاب فيمـا يتضمنه أبواب الكتاب من الأركان والشروط والموانع و الأسباب) وله مؤلفات في الأصول منها (تلخيص المحصول) و(نخبة الواصل في شرح الحاصـل) [٣] ومنـهم القاضي ابن عبد السلام فله تأليف فقهي [٤] أسماه (تنبيه الطالب لفهم ألفاظ جـامع الأمهات لأبي الحاجب) وهو مختصر شرح ألفاظ كتاب جامع الأمهات لأبي عمـرو عثمان بن الحاجب ومنهم محمد بن هارون الكناني التونسي [٥] وصفة ابن عرفة ببلوغ درجة الاجتهاد ، ويعتبر ابن عرفة أحد تلامذته ، وله عدة شروحات منـها (شـرح

(١) ابن ناجي : معالم الأيان ٣٠/٤ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : الدار الكامنة ٥٧/١ ، ابن القاضي ، درة الحجال ١٧٨/١ .

(٣) الزركشي تاريخ الدولتين ، ص ٦٠ ، ٦١ ، مخلوف ، شجرة النور الزكية ، ٢٠٧/١ ، ٢٠٨ ، ابـن فرحون ، الديباج ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٦ .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ٤٨٧/١ .

(٥) مخلوف شجرة النور الزكية ٢١١/١ ، ابن القاضي ، درة الحجال ١٣٤/٢ .

ذيب المدونة) و (شرح الحاصل للأرموي في الأصول) و (شـرح المعالم الفقهية) و (وشرح مختصر ابن الحاجب في الفروع) وله عدة مختصرات منها مختصر ذيب المدونة ومختصر النهاية والإتمام أختصره من كتاب النهاية في التوثيق للمنيطي ، ومنهم الربعي محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام التونسي المولود سنة ٦٣٩هـ والمتـوفى سنة ٧١٥هـ رحل إلى المشرق ولي قضاء الإسكندرية ، ثم عزل عنها لـه مختصرات في الفقه منها مختصر (قواعد الفروق) للقدافي [١] و (مختصر التقريع لابن الجلاب) ومنهم أيضاً الفقيه ابـن عـبد النور محمد الحميري المتـوفى سنة ٧٢٦هـ وهـو عالم تـونسي أخـذ العالم عن ابن زيتون ، له (تقييد كبير على الحاصل في الأصول) و (الحاوي في الفتاوى) [٢] . ومنهم أيضاً الإمـام محمد بن محمد بن عـرفة بن حماد الورغمي ولد بتونس سنة ٧١٦ هـ .

ونشأ في طلب العلم فأخذ عن علماء تونس فصار إماماً في العلـوم الـشرعية والأدبية والرياضية وهو حامل رأيه المذهب المالكي وفاتح باب الاجتهاد في الفقـه في العصر الحفصي ، كان الناس يرحلون إليه للفتيا من الأندلس والمغـرب والمـشرق . وكان لا يتولى أحد ولاية شرعية إلا بعد إشارته واختياره ، مسموع الكلمة ، لم يقبل الولاية الحكمية بل أقتصر على الإمامة بجامع الزيتونه وكان نظـر خزانـه الكتـب بالجامع إليه ولما أراد الحج حاسب عنها من استخلفه في النظر فيها فكانـت الخزانـة

(١) القرافي : هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن العلاء الرازي ولد سنة ٥٩٠هـ وتوفي سنة ٦٨٤هـ له مؤلفات عدة منها (شرح المحصول) (أنوار البروق) (الذخيرة) و (الأحكام) وغيرها . شهاب الـدين القرافي : من مقدمة كتابة شرح تنقيح الفصول ، ص ٥

(٢) ابن القاضي : درة الحجال ١٣٤/٢ ، مخلوف – شجرة النور ، ٢١١/١ ، الزركلي ، الاعلام ١٢٨/٧ أحمد التنبكتي – نيل الأبتهاج بتطريز الديباج، ص ٢٤٢ .

ستين ألف مجلد فقال : إن لله تلاشت كتب الخزانة [١] كان دائم النظر في المدونة [٢] معتنياً بقراء ا ، قرأ القرآن العظيم في صغره على محمد بن علي بن سلامة [٣]، وقـرأ علية التيسير لأبي عمرو الداني [٤] ، وقرأ أصول الفقه على أبن علوان [٥] ، وأصـول الدين على ابن سلامة وابن عبد السلام الهواري [٦] نظم قراءة يعقوب ، ولى إمامـة جامع الزيتونة ، كان كثير الصيام والصلاة زاهداً ، لا يحب التـردد علـى الـبلاط الحفصي ألا عندما تدعو الحاجة إلى ذلك حج سنة ٧٩٢هـ ، وتولى الفتيـا سـنة ٧٧٣هـ توفي سنة ٨٠٣هـ وعمرة خمسة وثمانون عاماً . له مؤلفات عدة كان يميل فيها إلى الاختصار وجمع المسائل في اللفظ القليل الموجز وهذا ما يعيبه عليه أهل العلم والرأي ومن مؤلفاته (مختصر الحوفي [٧] في الفرائض) و (المبسوط) في الفقه و هـو

---

(١) النيفر : عنوان الأريب ن حـ ٢/ ٣٣٤ ، ٤٣٦٥ ، محمود مقديش نزهة الأنظار ، حـ ١ / ٥٩٤ .

(٢) المدونة لعبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي ، الملقب (سحنون) ، انتهت إلية رئاسة العلم بالمغرب توفي سنة ٢٤٠هـ . الغبريني ، عنوان الدراية ، حسن ١١٢ . محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين ، حـ ـ ٣ ص ١٩ / ٢٣ .

(٣) محمد بن محمد بن حسن بن سلامة المتوفى سنة ٧٤٦هـ فقيه وزاهد ، تولي التدريس بمدرسة عنق الجمل بعد عزل القاضي ابن عبد السلام . محمد محفوظ : تراجم المؤلفين ، ص ٣ ، ص ٦٤ .

(٤) كتاب التيسير لأبن عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان أبو عمر الداني ، أحد حفاظ الحـديث مـن الأئمـة في علم القرآن وتفسيره من أهل دينة بالأندلس ، توفي سنة ٤٤٤هـ . الغـبريني ، عنـوان الدارية ، ص ٣١٦ .

(٥) ابن علوان عمر بن محمد بن علوان الهذلي التونسي فقيه توفي سنة ٧١٠هـ محمد محفوظ تراجم المـؤلفين حـ ٤١٤/٣ .

(٦) سبقت الترجمة له .

(٧) الحوفي هو أبو القاسم محمد بن محمد بن خلف الأشبيلي توفي سنة ٥٨٠ وله كتـاب بـسم (مختـصر الفرائض) الأعلام ٢٥٠/٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٣٣٢/١ .

في تسعة أجزاء ، و (مختصر المذهب) وهو جامع لمسائل المذهب أعتمد فيـه علـى المدونة ، واعتنى بضبط الحقائق الفقهية وشرحها [١] . وكان ابن عرفة لا يقبـل أي تأليف ، أن لم يكن فيه جهد وزيادة عن الذين سبقوه فكان يقول دائماً .

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة وتقـرير إيضـاح لمشكلة صورة
وعـزو غريب النقل فتح مقفل أو مشـكل ابدته نتيجة فكرة
فدع سعية وانظر لنفسك واجتهد وأياك تركا فهو أقبح خـلة [٢]

واعتبر الأمام ابن عرفة أخر كبار المجددين في هذا الميدان وأعلن علماء المغرب في القرن الخامس عشر غلق باب الاجتهاد [٣] .

ثم حمل لواء الفقه بعد ابن عرفة تلامذته ومن أشهرهم البرزلي الفضل أبو القاسم بن أحمد المولود سنة ٧٤٠هـ والمتوفى سنة ٨٤١هـ من أعلام المالكية يلقب شيخ الإسلام ، لازم ابن عرفة أربعين سنة وأخذ عنه طريقته ، وقرأ عليه بعـض صـحيح مسلم وجميع صحيح البخاري والموطأ (والشفا) للقاضي عياض وعلوم الحديث لأبن الصلاح والمدونة ، ورحل إلى المشرق سنة ٨٠٦هـ ، تولى التدريس بمدرسـة ابـن تافراجين وفي سنة ٨١٥هـ تولي الإمامة والخطابة والفتيا بجامع الزيتونه له (جـامع مسائل الأحكام فيما نـزل بالمفتين والحكام) ويعرف بديوان البرزلي في أربعة أجزاء (والحاوي في الفتاوي) ويعرف بالنوازل [٤] . ومنهـم أحمد بن عبد الـرحمن بـن

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ٢/٢٥٥ ، البغدادي ، هدية العارفين ٢/١٧٧.
(٢) محمد العامري : تاريخ المغرب ، ص١٦١ .
(٣) محمد الهادي : ما يجب أن تعرف عن تونس ، ص ٦٠ .
(٤) محمود مقديش : نـزهة الأنظار ، حـ١/ ٢٤٢ الزركلي : الأعلام حـ ٦ / ٦ ، ابن مخلوف ، شجرة النور الزكية ، حـ ١/ ٤٥ .

موسى بن عبد الحق القيرواني عرف بحلولو فقيه أخذ عـن البرزلي قال عنه السخاوي (وهو أحد الأئمة الحافظين لفروع المذهب) [١] وفي سـنة ٨١٥هـ ـ ولي قـضاء طرابلس ثم عزل وعاد إلى تونس وتوفي سنة ٨٩٨هـ له (شـرح علـى إشـارات الباجي في أصول الفقه) و (الضياء اللامع في شرح الجوامـع) و (شـرح عقيـدة الرسالة) وشرح على (تنقيح الفصول للشهاب الدين القرافي يسمي (التوضـيح في شرح التنقيح) وله (اختصار نوازل شيخة البرزلي)[٢] وشهد العصر الحفصي شيوع ظاهرة التصوف ، والتصوف ، في حقيقته هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن الدنيا . وسميت الصوفية اشتقاق من لبس لصوف الذي اتخـذوه شعاراً لهم يميزهم عن بقية الناس الذين يلبسون فاخر الثياب [٣] ، وهو دليـل علـى زهدهم وانعزالهم عن الدنيا . ويعود نشر هذا المذهب في إفريقية إلى سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين وهو أندلسي الأصل ولد بأشبيلية ، وقدم إلى بجاية ، وتتلمذ علـى عدد من الصوفيين ثم تحول إلى المشرق [٤] حيث تلقى تعليم كبار شيوخ التصوف من أمثال القشيري [٥] والغزالي ، وقد أبدي تفوقاً عظيم في مجال التصوف فاظهر العديد من الكرامات التي جعلت منه ولي من أولياء الله في نظر الناس البسطاء الذين يجهلون

---

(١) الضوء اللامع ، حـ ٢٦١/٥ .

(٢) البغدادي : هداية العارفين ١٣٦/١. محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين حـ٢ / ١٦٥، ١٦٦

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ٤٦٧ .

(٤) الغبريني :عنوان الدراية ، ص ٢٢ .

(٥) القشيري هو أبو القاسم بن عبد الكريم بن هـوازن بن عبد الملك بن طلحه النيسابوري المولـود سـنة ٣٧٦هـ شيخ خراسان في عصره زاهداً وعالماً كان السلطان البا أرسلان يقدمه ويكرمه ، تـوفي سـنة

٤٦٥هـ له مصنفات منها " الرسالة القشيرية " . حاجي خليفة : كشف الظنـون ، جـ ١ / ٥٢٠ .
السبكي ، الطبقات ، جـ٣ / ٢٤٣ ، ٢٤٨ .

حقائق الدين الإسلامي الصحيحة ، وقد ذاع صيته عند خلفاء بني عبـد المـؤمن ، فخشوا من سطوع أمره فأرسلوا في طلبه ، فاستعد الشيخ أبو مـدين للـذهاب إلى مراكش ، وعندما وصل إلى تلمسان ،نـزل بموضع يقال لـه (القّبـاد) ، فـأراد الراحة من عناء السفر ، فنام في هذا الموضع وكانت ايتة فيه حيث تـوفي سـنة ٥٩٤هـ [١] وهكذا بدأت بذرة التصوف في إفريقية ، وقد ساعدت عوامـل عـده على انتشاره ، ومنها موافقته لأهواء الناس البسطاء وهذا ما يفسر لنا انتشارة الكبير في الأرياف والقرى حيث يكثر فيها الجهل وتنتشر الخـزعبلات ، أيـضاً سـاهمت هجمات المسيحيين على السواحل المغربية ، وانعدام الأمن ، ناهيـك عـن تفـشى الطاعون والأوبة في إفريقية [٢] ، كل هذه العوامل جعلت الناس يلجئون إلى هـؤلاء المتصوفين للدعاء لهم باعتبارهم أولياء لله في الأرض حسب مفهومهم الضال .

واتخذت الصوفية عدة أسماء تبعاً لمؤسسيها فالشاذلية تنسب إلى الـشيخ نـور الدين أبو الحسن الشاذلي ، والذي يعتبر مؤسسا للصوفية في أفريقية ، وهو من بـلاد الريف بالمغرب الأقصى حيث ولد ببلدة غمارة سنة ٥٩٣هـ ، وقد رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج بمكة المكرمة ثم التحق ببغداد وتلقى العلم عن شيوخها ،ثم عاد إلى بلاده ومنها إلى تونس حيث أقام بقرية (شاذله) وإليها ينسب ، وفي تونس تعـرف

---

(١) الغبريني : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٢) محمد الهادي : ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس ، ص ٦١.

على الشيخ أبي سعيد الباجي [٣] ولازمه وانتفع منه ، ثم ما لبث أن انتقل أبو الحسن الشاذلي إلىمصر بعد أن نشر تصوفه في تونس ،وقد عرفت طريقته بالشاذلية وقد قيل أنه بالغ في الدروس حتى فقد بصره ، وهو أول من أحضر القهوة إلى بلاد تونس حتى تساعد أتباعه على السهر من أجل العبادة ، وقد توفى الشيخ الشاذلي في مصر سنة ٦٥٦هـ . [١]

ومنها (العروسية) والتي تنسب إلى أحمد بن عروس الهواري المولود سنة ٧٧٨هـ وسافر إلى المغرب الأقصى حيث أقام مدة ، ثم عاد إلى تونس ولازم الصلاة بجامع الزيتونة ، وشاع خبرة حتى سمي بـ (سلطان المدينة) والتف حوله الناس ، وبنى له السلطان الحفصي محمد المنتصر الزاوية المعروفة باسمه ، وحماه السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان عندما أراد بعض الناس قتله بسبب ما ارتكبه من الكبائر وازدراؤه للعادات والأعراف ، وهذا مما قوي من جانبه وجعل الناس يلتفون حوله حتى كادوا أن يعبدونه (والعياذ بالله) ، وقد توفى سنة ٨٦٨هـ [٢] ونظم السلطان له موكباً كبيأر يسير بجنازته ثم ظهرت فرقة أخرى من الصوفية هي (الشابية) نسبة إلى قرية (الشابة) والتي ولد ا الشيخ أحمد بن مخلوف الشابي سنة ٨٠٣هـ والذي

---

(٣) أبو سعيد الباجي ، ولد سنة ٥٥١هـ قرب منوبة من أحواز تونس ، رحل إلى مكة وحج ثم إلى الشام وعاد إلى تونس واشتهر بالصلاح والتف حوله الأتباع ، توفى سنة ٦٢٨هـ ، أحمد عامر ، الدولة الحفصية ، ص ١٠٩ – ١١٠ .

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢) أحمد عامر ، الدولة الحفصية ، ص ١١٠ .

تلقى علومه عـن الشيخ ابن عـروس [٣] وارتحل إلى القيروان حيث شـاع خـبرة وكثر أتباعـه ، وقـد بقيت الشابية حتى قدوم الأتراك حيث تشتت شملـهم سـنة ٩٦٦هـ .

ولم يكـن التصوف مقتصراً على الرجال بـل أن هناك من النساء من اشتهر به ، ومنهم السيدة المنوبية عائشة بنت عمران بن الـحاج سليمان ، والتي ولـدت سنة ٥٨٩هـ بقرية (منوبة) وحفظت القرآن الكريم ، وكانت تمتـهن الـصوف وغزله ، ثم انتقلت إلى العاصمة تـونس واتصلت بالشيخ أبي الحسن الشاذلي وتلقت عنه طـريقته ، وبنت لها زاويـة انعزلت فيها للعبادة ، وروي أ ا ختمت القـرآن في حيا ا ١٥٢٠مرة [١] وإن أخر ما سمع منها عند احتضارها قوله تعـالى : { إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون }[٢] وتوفيت سنة ٦٦٥هـ وكانت في زمن الخليفة المستنصر الحفصي .

وقـد تمخض عن الصوفية ظهور مؤلفات تتنـاول سـير ومناقـب الأوليـاء الصوفيين ، ومن أشهر المؤلفين في هذا ا ال ، علي بن عمر بن محمـد أبي القاسـم الهواري ، وهـو تونسي الأصل ولد سنة ٥٨٤هـ ، وكـان من أصحاب الـشيخ أبي سعيد الباجي ، ألـف عـدة كتب في مناقب الأولياء منها " مناقـب الأوليـاء

---

(٣) محمد الهادي : ما يجب أن نعرف عن تاريخ تونس ، ص ٦٢ .

(١) أحمد عامر ، المرجع السابق ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) سورة النحل ، آيـة ١٢٨ .

وبيان تربا م ومزارا م) و (مناقب أبي الحسن الشاذلي) و أبي سـعيد البـاجي [٣] وغيرها .

٢ - علوم اللغة العربية :

حرص المسلمون على دراسة فنون اللغة العربية الثلاثة سواء النحو أو الأدب أو البلاغة ، وذلك لتعلقها بعلوم الدين وتسهيلها لفهم أحكامه . ففي النحو تدارس طلاب العلم في أفريقية كتاب(سيبويه)[١] و(ألفية ابن مالك) [٢] وكتاب (الجمل) للزجاجي [٣] و (المفصل) للزمخشري .

وبعض كتب ابن عصفور [٤] ومنها (المقرب) ، ولم يقتصر الأمر على دراسة هذه الكتب فقط ، بل قام أدباء تونس بوضع الشروحات والمختصرات [٥] على هذه الكتب تسهيلاً لطلبة العلم .

---

(٣) محمد محفوظ : تراجم المؤلفين ، جـ ٣ ، ص ٢٢٧ .

(١) سيبويه أبـو بشر عمر بن عثمان بن قنبر الحارثي الملقب بسيبويه ، إمام النحاة وأول من بـسط علـوم النحو ، ولـد سنة ١٤٨هـ وتوفى سنة ١٨٠هـ ابن العماد ، شذرات الـذهب ، جـ ١ / ٢٥٢ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ٨ / ٣٥١ .

(٢) ابن مالك ، هو أبي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك ، المولود سنة ٦٠٠هـ ، والمتوفى سنة ٦٧٢هـ إمام في النحو ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب (الخلاصة) الذي عرف بين الناس باسم (الألفية) جمع فيـه خلاصة علمي النحو والتصريف وأشار فيه إلى مذاهب العلماء وبيان ما يختاره من الآراء من مقدمة كتاب شرح ابن عقيل ، تأليف محمد بن محيي الدين عبد الحميد ، جـ ١ ،صـ ٧ ، ١٠ .

(٣) الزجاجي : هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي شيخ العربية في عصره من كتبه (الجمـل الكبرى) و (الزاهر) توفى سنة ٣٣٧هـ مخلوف : شجرة النور الزكية ، ١ / ٢٢٦ . التنبكتي : نيـل الابتهاج ، ص ٧٤ .

(٤) ابن عصفور : سبقت الترجمة لـه .

ومـن أبرز هذه الشروحات (شرح حاشية الكشاف) و (شـرح شـواهد المقرب) لابن القصار أحمد بن محمد بن عبد الرحمن التونسي المتوفى سنة ٧٩٠هـ ، ومنهم علي بن محمد بن علي القرشي القلصادي المولود سنة ٨١٥هـ والمتوفى سـنة ٨٩١هـ وكان يعمل مدرساً في غرناطة ثم رحل إلى المشرق ، فعاد واستقر في بجاية ، وله عدة مختصرات نحوية منها (مختصرين في العـروض) و (شـرح ألفية مالـك) و(شرح الجمل) للزجاجي .

ومنهم أيضاً أبو عبد الله محمد بن الحسن التميمي الفلقي كان بارعاً في علـوم العربية الثلاثة ولكنه كان أشد إبداعاً في النحو ، فكان يسير على سنن أبي الفتح ابن جني[١] وله كتاب في النحو سماه (الموضح في علم النحو) [٢] .

---

(٥) الغبريني : عنوا ن الدراية ، ص ١٢٣ .

(١) ابن جني أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي من أئمة الأدب والنحو ، كان أبوه مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي . توفى في بغداد سنة ٣٩٢هـ له عدة مصنفات منها " الخصائص " و " المحتسب " و " اللمع " وغيرها ، ابن العماد : شذرات الذهب ٣/ ١٤ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ١/ ٢١٣ ، الغبريني ، عنوان الدراية ،ص ٧٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٢ .

أما البلاغة [٣] فلم تحظى باهتمام كبير من أدباء أفريقية ، ويرى ابن خلدون أن السبب في ذلك أنهم يعتبرون العلوم البلاغية " شيء كمالي في العلوم اللسانية " [٤] ولم يأخذوا من علوم البلاغة إلا بعلم البديع وذلك لإضفاء جمال على اللفظ ، فأكثروا من المحسنات البديعية من جناس وسجع ونحو ذلك ، مما أدى إلى التكلف والمبالغة في السجع والجناس ، ومن أهم ما ألف في هذا العصر كتاب (البديع والسجع الهديل في أخبار النيل) و (درة التالي في عيون الأخبار ومستحسن الأشعار) لأحمد بن يوسف بن حمدون القفصي التيفاشي [١] وهو أديب وشاعر تونسي ولد سنة ٥٨٠هـ ، رحل إلى المشرق ثم عاد إلى قفصة وتولى القضاء بها من قبل السلطان أبو

(٣) علم البلاغة : البلاغة هي الانتهاء والوصول ، قال ابن منظور " بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً وصل وانتهى ، تبلغ بالشيء وصل إلى مراده والبلاغ ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب ، والبلاغ الكفاية ، الإبلاغ الإيصال ،بلغت المكان بلوغاً وصلت إليه وكذلك إذا شارفت عليه " والبلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، وتشمل علم المعاني ،وعلم البديع وعلم البيان ، ونشأت البلاغة في القرن الثاني للهجرة ، حيث أخذ العلماء في بحث أصول بلاغات العرب وتدوين آرائهم في معنى كلمة البلاغة فظهرت مؤلفات منها وصية لبشر بن المعتمر من زعماء المعتزلة متوفى سنة ٢١٠هـ ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٧هـ والفصاحة للدينوري المتوفى سنة ٢٨٠هـ وهكذا نشأت البلاغة وأصبحت علماً قائماً بذاته ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة بلغ ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ . ، ومن مقدمة كتاب الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني شرح ، محمد عبد المنعم خفاجي ، جـ ١ ، ص ٤ ، ٥ .

(٤) المقدمة ، ص ٥٥٢ .

(١) نسبة إلى تيفاشي الواقعة شمالي قسنطينة من القطر الجزائري ، وقيل أنها من قرى قفصة ، وفي الروض المعطار قال بينها وبين الأربس مرحلة وهي بقرب ملاق ، الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص ١٤٦ ، ومحمد محفوظ : تراجم المؤلفين ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

زكريا الأول [٢] تـوفى سنة ٦٥٥هـ ومنها كتاب : (نظم تلخـيص المفتـاح في البلاغة) للخطيب القزويني [٣] .

و (مواهب البديع في علم البديع) لابن خلوف أحمد بن عبد الرحمن الحميري المولود بقسنطينة سنة ٨٢٩هـ [٤] .

أم الأدب في أفريقية فقد التزم النثر منه جانب التكلف والإكثار من المحسنات البديعية فكـان الأديب يجشم نفسه العناء الكبير من أجل الحصول علـى سـجعة ملائمة ،مما يؤدي إلى الإخلال في المعنى من أجل استقامة اللفظة ، ومن طريـف مـا يذكر هنا أن أحد الأدباء وكان رئيساً للقضاء عزل قاضي من أجل الحـصول علـى سجعة مناسبة حيث قال : " أيها القاضي بـ (قم)[١] قد عزلناك فقم " ويدلنا ذلك على التدهور والتقعر الذي وصل إليه النثر وأن كان فيه مبالغة واضحة من كتـاب الأدب ، حتى أوائل القرن الثامن الهجري حيث تمكن ابن خلدون من إدخـال فـن الترسل في أفريقية ، وفن الترسل هو مطابقة الكلام المقتضي الحال وإطلاق الكـلام بترسل بدون سجع إلا في النادر ، وكان ابن خلدون يهدف إلى تحرير الرسائل مـن قيود السجع المتكلف ، الذي كانت تحور به الرسـائل ، وقـد قوبلـت طريقتـه

---

(٢) الزركلي : الأعلام ، ١ / ٢٥٩ ، البغدادي : إيضاح المكنون ، جـ ١ / ٤٥٩ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ٤ / ٧٥ .

(٣) الخطيب القزويني هو جمال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن خطيب دمشق ولد سنة ٦٦٦هـ ـ أشهر مؤلفاته (تلخيص مفتاح البلاغة) (والإيضاح في علوم البلاغة) توفى سنة ٧٣٩هـ مـن مقدمـة الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، تحقيق محمد خفاجي ، جـ ١ ، ص ٥ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ ٢ / ١٢٢ ، محمد محفوظ ، المرجع السابق ، جـ ٢ / ٢٢٩ .

(١) محمد العامري : تاريخ المغرب ، ص ١٥٥ .

بالاستغراب في بادئ الأمر لأن أدباء تونس لم يعتادوا مثل هذا الأسلوب في كتاباتهم ، إلا أن إدخال هذا الفن إلى تونس يعتبر البداية لعهد أدبي عظيم [2] .

وقد نوه القلقشندي ببراعة الكتاب التونسيين فقال : " إنهم يعوضون التعابير العادية الواضحة بألغاز حقيقية يصعب فكها " [3] .

وقد ظهرت عدة مؤلفات نثرية منها " تحفة الدروس ونزهة النفوس " والدر النظيم ونفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين " [٤] وهي مؤلفات لعبد الله محمد بن أحمد التجاني المولود سنة ٦٧٥هـ وهو أديب وشاعر اعترف له الأقران برئاسة الشعر والنثر ، وتولى كتابة الإنشاء في عهد السلطان الحفصي أبي يحيى اللحياني ، ولم تذكر المصادر تاريخياً محدداً لوفاته وإنما ذكر أنه اختفى بعد الاضطرابات التي حدثت في تونس سنة ٧١٧هـ [٥] .

أيضاً ظهرت الشروحات على القصائد فقد ألف محمد بن علي بن الشباط التوزي ، المولود بتوزر سنة ٦١٨هـ وتولى القضاء فيها ، وتوفى سنة ٦٨٤هـ له شرح على قصيدة الشقراطيسية [١] في ثلاثة شروحات كبير ووسط وصغير كما أن

---

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٣) صبح الأعشى ، ٥/ ٢٥٠ .

(٤) ابن شبرين هو محمد بن أحمد بن شبرين الجذامي السني الأصل أندلسي ، انتقل إلى غرناطة وتولى قضاءها ثم نزل في تونس سنة ٧٠٣هـ . النيفر ، عنوان الأريب ، جـ١ ، ص ٢٩١ .

(٥) رحلة التجاني ، ص ١٩ ، ٤٦ ، النيفر ، عنوان الأريب ٢٩١ .

(١) الشقراطيسية : هي قصيدة لأمية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وهي من ١٣٥بيتاً ، من البحر الوسيط وهي لعبد الله بن الشيخ يحيى بن علي بن زكرياء الشقراطيسي التوزري أديب ، توفى سنة ٤٦٦هـ ، محمد محفوظ : تراجم المؤلفين جـ ٣ ، ص ٢٠٤ .

له شهرة في تخميس القصيدة يتناولها بالشرح [٢] من جميع النواحي الأدبية واللغوية والصرفية والبيان والآثار والتاريخ وسماه " صلة السمط وسمة المرط " وهو في أربعة أجزاء ، وأيضاً له شرح القصيدة التي وجهها الشاعر المصري الدماميني [٣] إلى السلطان أبي العباس [٤] .

أما الشعر فإنه كان أشد نقاوة وأقرب إلى الفصاحة من لغة النثر ، وقد شهد تطوراً عظيماً ، ويعود ذلك إلى اهتمام سلاطين بني حفص بالشعر وتربية أبنائهم على الأدب وحفظ الشعر ، بل إنهم كانوا يتباهون بقول الشعر ولا يجدون في ذلك عضاضة [٥] بل أننا لو عدنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا أن ولاية أفريقية لم تعط إلى الأمير عبد الله إلا بسبب أبيات من الشعر وذلك أن الخليفة الموحدي العادل كان يبحث عن وال لأفريقية فعندما دخل عليه عبد الله الحفصي فسأله عن أحواله ، وكان جواب عبد الله الحفصي أبيات من الشعر قال فيها :

حال متى علم ابن منصور بها ... جاء الزمان إليه منها تائباً [١]

---

(٢) النيفر : المرجع السابق ، ١ / ٢٦٠ ، رحلة التجاني ، ص ١٥٧ .

(٣) الدماميني : هو بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني نحوي أديب مصري توفى سنة ٨٣٧هـ ، مدح الأمير الحفصي أبا العباس بقصيدة بديعية ، ابن أبي دينار ، المؤنس ،ص ١٥٢، السراج ، الحلل السندسية ، ٢ / ١٨٥ .

(٤) الزركلي : الأعلام ، ٧ / ١٧٢ . ، العبدري : الرحلة ،ص ٥٠ .

(٥) محمد العامري : تاريخ المغرب ، ص ١٢١ .

(١) محمد العروسي المطوي : السلطنة الحفصية ، ص ١٠٩ .

ثم إن الأمير المؤسس أبو زكريا كان شاعراً وله ديوان شعر بل أنه كان يتـولى الفصل أو الحكم على شعر الشعراء في البلاط الحفصي ،ومن ذلك أنه تحاكم إليه ابن عمر وعثمان بن عتيق المعروف بابن عربية وابن الأبار والكومي فأنشدهم شعراً يبين أفضلهم فقال :

ألا أن مضمـار القـريض لممتد ... بـه شعر السبق أربعة لـد

فأمـا ا لي فهو شـاعر جمـة ... أتـى أولاً والناس كلهم بعـد

وأمـا المصلي فهو حبر قضاعـة ... بـادبة تزهو الإمـارة وا د

وأمـا المسلي فالمعـاوي أمـة ... أتـى ثالثاً لكـن يلين ويشتد

وبعدهم الكـومي أقبل تـالياً ... وكـم جاء سباقاً مسومة النـهد

وهم علماء الناس مـا عنهم غنى ... وهـم شعراء الملك مـا منهم بـد (٢)

وقد أراد بشاعر جمة ابن عربية ، وحبر قضاعه أبا عبد الله بـن الأبـار ،وأراد بالمعاوي أبا القاسم بن محمد بن معاوية اليحصبي ،وأراد بالكومي أبا زكرياء يحيى بـن محمد الغليظ (٣) .

وأيضاً له شعر في رثاء أبنة أبا يحيى ،جاء فيه :

الاجـازع يبكـي لفقـد حبيبـه ... فإني لعمري قـد أضـر بي الثكـل

لقد كان لي مـال وأهـل فقـد م ... فها أنـا لا مـال لـدي ولا أهـل

---

(٢) التجاني : الرحلة ، ص ٣٧٦ .

(٣) النيفر : عنوان الأريب ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .

سـأبكي وأرثـي حسـرة لفراقهم بكـاء قـريح لا يمل ولا يسلا [١]

وكـان الخليفة المستنصر الحفصي أيضاً مجيداً للشعر ومن شعره مـا ذكـره المقري [٢] :

ما لي عليك سوى الـدموع معـين إن كنت تغدر في الهـوى وتخـون
من منجدي غير الدمـوع وإنما لمعيـنة مـمـا استغاث حـزين

أيضاً كان يخاطب جنده بأبيات من الشعر عندما أراد دعوتهم لأخذ أرزاقهـم فقال :

ليحضـر كل ليـث ذي منـال زكـا فرعـاً لإسداء النـوال
غـداً يوم الخميس فمـا شغلنـا بأسـْد الوحش عن أسد الرجال

وبرع المستنصر في فن (الإجازة) وهو نظم صدر بيت من الـشعر ومطالبـة شاعر آخر بنظم العجز ، فحكى أن المستنصر استعرض جنده يوم العيد ،فإذا بشاب جميل الهيئة من بني النعمان ، فناداه ، فحمر وجهه خجلاً فأنشد السلطان قـائلاً : " كلمتهَ فكَلمت صفحة خده ".

وطلب من الحاضرين إتمام البيت ،فلم يأتوا بشيء فقال السلطان مكملاً صدر البيت " فتفتحت فيه شقائق جـده " [١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .
(٢) نفح الطيب ،جـ ٢ ،ص ٣٢٣ .
(١) المقري : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ .

أراد بذلك شقائق النعمان ، وله أيضاً قصة مع الغساني [٢] في هذا الفن ، حيث يروى أنه لما كان أول المحرم من سنة ٦٥٩هـ حضر الغساني بين يـدي الـسلطان المستنصر ، فـ ل المطر فقال السلطان : اليوم يوم المطر ، فقال الغساني: ويوم رفـع الضرر ، فقال السلطان : أية فما بعدها ؟ فقال الغساني :

والعـام عـام تسعـة كمثل عـام الجوهـري [٣]

واشتهر الأمير أبو بكر أيضاً بقول الشعر ونظمه حيث نظم أبيات حماسـية في وصف معاركه مع بني عبد الواد [٢]ومنهم أيضاً السلطان أبي العباس أحمد ، حيـث طلب مرة كاتب إنشائه يحيى بن خلدون ، وكان يحيى يشرب الخمر ، فخاف علـى نفسه ، إن هو طلع إليه وهو مخمور ، فكتب إليه أبيات من الشعر قال فيها :

أصـــبح العبـــد يحـــي كـــصباح ابـــن اكـــتم
شـــــغلته الحمـــــي وهـــو بـــالأمر مهـــتم
فخـــشي مـــن رقيـــب فـــرأى الـــدر اكـــتم

فلما قرأها يحيى وقع بخطه تحت خطه .

قر عينـــا بعيش صفوة بك قـــد تم

---

(٢) الغساني : أبو العباس أحمد بن إبراهيم ، أديب وشاعر ، كان كاتباً للعلامة في العهد الحفصي ، ولد سـنة ٦٠٠هـ ، وتوفي سنة ٦٦٨هـ . النيفر : عنوان الأريب ، جـ١ ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٦ .
(٣) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٨ ، ٥٠ ، الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ١٨٣ .
(٤) القلقشندي : صبح الأعشي ، ٥ / ١١٥ .

أنت أزكى عبيدي ها هنا كنت أو ثم

وقيل أن ذلك كان سبباً في توبة يحيى بن خلدون [١] .

وحرص السلاطين الحفصين على مداعبة الأدباء وملاطفتهم ، ومن ذلـك أن الأديب الفقيه محمد بن يحيى بن الحباب [٢] التونسي دخل على السلطان أبي عصيدة ، فوجده قد أكل عصيدة فأنشده أبو عصيدة مداعباً :

لقـد فاتك الجدي يا بن الحبـاب بخبـز ثميـد كثير اللباب

ولم يبقـى منـه سـوى عظمـة وذاك لعمري طعام الكلاب

فلما وصل في إنشاده إلى قـوله طعام بادره الفقيـه بقـوله : " طعـامكم طعامكم " [٣] .

وقد كان الشعراء يتوافدون على البلاط الحفصي من تلقاء أنفسهم أو عن طريق عقد الجلسات الأدبية والتي كثيراً ما تنعقد في البلاط الحفصي أو في بيوت الأمـراء والأعيـان [٤] .

---

(١) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٣٢ .

(٢) ابن الحباب محمد بن عمر المعافري التونسي ، الأصولي ، إماماً في العقليات ، أخذ عن ابن القاسـم بـن زيتون وغيره من الفقهاء ، له مؤلفات منها (اختصار المعالم الأصولية لفخر الدين الرازي) و (تقييد على المقّرب) لأبن عصفور ، توفي ٧٤٩هـ . الضياف : الإتحاف ، جـ ١ / ١٧٧ . ابـن القاضـي : درة الحجال ، ١١٥/٢ ، ١١٦ . ومقديش : نزهة الأنظار ، ٢٣٢/١ .

(٣) محمد العامري : تاريخ المغرب ،ص ٥٨ .

(٤) أحمد عامر : الدولة الحفصية ، ص ٦٧ .

هذا وقد شهد العصر الحفصي كوكبة عظيمة من الشعراء التونسيين الذين كان لهم مشاركة في جميع أغراض الشعر ، إلا أن الشعر الديني حقق تفوقاً على جميع أغراض الشعر ، حتى إن بعض الشعراء قصروا شعرهم عليه ، وقد برز في هذا النوع من الشعر أبو يعقوب .

يوسف بن علي بن عبد الملك البكري المعروف بابن السماط والمولود بالمهدية سنة ٦١٣هـ والمتوفي سنة ٦٩٠هـ ، وتميز شعره بالجودة وقصره على مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وشعره مدون ومما قاله في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أعد الحديث فليس بالمملول	عن خير مبعوث وخير رسول
واملأ مسامعنا بطيب حديثه	فهو الشفاء لحر كل غليل
وأدأب عليه مصلياً ومسلماً	فكذا أنت في محكم التنزيل
وأخص بترداد السلام ضريحة	في كل شارقة وكل أصيل
وإذا رأيت العيس تحدو نحوه	فاختر مواطئهن للتقبيل [1]

وأكثر الشعراء من الشعر الديني حتى إن الشاعر أبو عبد الله التميمي القلعي كان في كل عام يكتب ديواناً من الشعر ، وقد عاش وهو يدون الشعر ثلاثاً وأربعين سنة ، فلو أنه دون شعره ذلك لاحتاج إلى مجلدات عديدة ،ويذكر أنه بدأ قول الشعر سنة ٦٣٠هـ ، وتوفى سنة ٦٧٣هـ [2] .

---

(١) النيفر ، عنوان الأريب ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٦ .

(٢) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٧٢ .

وظهر في الشعر الحفصي فن التخميس وهو التوسع في كل شطر بيـت مـن بيوت قصيدة قديمة بإضافة خمسة أشطار ، وبرز في هذا الفن محمد التوزري المعـروف بابن شباط والمتوفي سنة ٦٨٤هـ ، فقد قام بتخميس على القصيدة " الشقراطيسية " فقال فيها :

إبدأ بحمد الذي أعطى ولا تسـل   وذويـة ريب الأيـن والكسل

فالحمد أحلى جني من طيب العسل   والحمـد لله منا بـاعث الـرسل

هـدى بـأحمد مـن أحمد السبل [1]

ووصفه العبدري بأنه " تخميس لا بأس به " [2] وبرز في المدح الأديب أبو عمرو عثمان المعروف بابن عربية ، والذي أجازه الأمير الحفصي أبو زكريا بجائزة سنية ، فله ديوان في مدح السلاطين الحفصين سماه " قصائد المدح وقصائد المنح " ومن أجمل ما قاله مهنئاً الخليفة المستنصر ومعزياً لـه في أبيـه بأبيات قال فيها :

يلـذ الـزمان للفتى ثم يوقع   يضرر هـذا الـدهر ثمت ينفع

لئن قد طوى طود الإمامة مغرب   فلقد جـلا شمس الخلافـة مطلـع [3]

ولم يكن المدح قاصراً على السلاطين وإنما مدحت المدن التونسية أيضاً فظهر شاعر في

---

(١) النيفر ، عنوان الأريب ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ .

(٢) الرحلة ، صـ ٥٠ .

(٣) النيفر ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧١ .

أوائل القرن السابع من قسنطينة يدعى أبو علي حسن بن عمر الفكون ، وكان قد أبرع النظم ، امتدح مدينة بجاية بقصيدة قال في مطلعها :

دع العراق وبغـــداد وشامها فالناصرية [1] مــا أن مثلها بلد

بر وبحر وموج للعيون بـه مسارح بـان عنها الهم والنكد

حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع حيث الغنى والمنى والعيشة الـرغُد[2]

ومن أجمل ما قيل في شعر المناسبات ، شعر أبو القاسم الرحوي وهو أديب تونسي سابق شعراء عصره ، اعترف الأدباء بفضله وأعدوه من فحول الشعر ، كان حياً سنة ٧٧٩هت لـه شعر في مدح السلطان المريني عندما استولى على تونس ، حيث أنشده قصيدة همزية [3] جاء فيها :

أجـابك شرق إذ دعوت ومغـرب فمكـة هشت للقـاء ويثرب

ونـاداك مصر والعـراق وشامة بداراً فصدع الـدين عندك يشعب

وحيتك أو كـادت تحيي منابـر عليها دعـاة الحق باسمك تخطب[4]

أما الرثاء فقد برز فيه على بن إبراهيم بن أبي القاسم التجاني حيث رثاء شيخه ومعلمه قاضي الجماعة ابن الغماز [5] في مؤلف أطلق عليه " تسلية القلب الحـزين في

---

(١) يقصد بالناصرية بجاية .

(٢) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣٣٤ .

(٣) النيفر ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢٦ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٥) سبقت ترجمته .

مراثي قاضي المعين " وجمع في هذا المؤلف جميع المراثي التي قيلت في شيخه وتميز شعر التجاني بالجودة وهذا ما أشار إليه العبدري عندما قال عنه " وأما أبو الحسن فهو آية الزمن من إجادة معنى وتنقيح لفظ وسرعة بديهة ، وكثيراً ما يمليه ارتجـالاً فيجـود ويتفن "[١] ، وقد ولد التجاني في سنة ٦٣٥هـ وتوفى سنة ٧١٤هـ .

ومن أغراض الشعر التي شهدها العصر الحفصي أيضاً فن الغزل والوصـف ، فالشاعر قد يصف راحلته أو مدينته ، فهذا الفن كان مزدهراً عند الحفصين ، وقـد يصف الشاعر زهرة قرنفل أو حتى ما لقيه من مشقة في أي عمل من الأعمال .

فهذا الشاعر أبو إبراهيم التونسي[٢] يصف سبخة تـوزر الـسواخة المعروفـة بتاكمرت وما لقيه مع السلطان في قطعها من مشقة :

قطعنا التاكمرتُ سـرى وسيرنا   صبيحة يـومنا حـتى الزوال
فلا تسأل لـما قاسيت فيـها   مـن الأهـوال والكرب الثقال
عـناءٌ لـيس يشبهه عـناءٌ   يضيق لـديه متسع المقـال
وليل لا تسير بـه نـجومٌ   كـأن نيطت إلـى بعض الجبال
وأريـاح تصـم الأذن منها   ـب عـن اليمين أو الشمال[٣]

أما الشعر الغنائي فكان معـروفاً في تونس ، وهـذا ما تـدل عليه قصيدة (ناعورة الطبوع) للشاعر أبي عبد الله محمد بـن الظريف التونسي المولـود سـنة

---

(١) الرحلة ، ٢٥٧ .

(٢) هو أبو إبراهيم بن إسحاق بن حسينة التونسي ، أديب وشاعر ، كان من كتاب الدولة الحفصية وصاحب السلطان أبا يحيى زكريا الحفصي سنة ٧٠٦هـ لفتح جزيرة جربة ، النيفر عنوان الأريب ١/ ٣٠٦ .

(٣) النيفر ، عنوان الأرينب ١ / ٣٠٩ .

٧٨٧هـ ، فقد ضمن قصيدته ألقاب الطبوع الموسيقية المعروفة في تونس وكانت قصيدته تتناول مدح النبي صلى الله عليه وسلم ومنها :

من سفك دمعي ومن تحبير أجفاني	صغت الهوى حلية من حر نيران
ومن نحولي ومن سقمي وشدة ما	ألقاه من فرط أشواقي وأشجاني
رثى العزول لحالي حين أبصرني	من بعد ما كان بالتعنيف ينهاني
وصل الحبيب فلا ابغي به بدلاً	ليس التبدل والسلوان من شأني
من لا مني في الهوى والحب قلت له	إليك عني فإن الحسن أدماني [١]

وهي كما قلنا تدل على شيوع الموسيقى في تونس قديماً وما يؤكد أن التونسيين عرفوا الغناء وأجادوه ما ذكره الزركشي [٢] حين قال " إن الأمير أبا فارس عبد العزيز رفع عن المغنيات ا ابي والمغارم التي كن ملزومات ا من قبل " ولم تكن قصور الأمراء تخلو من عود أو مغنية ، بل إن الجيش كانت له فرقة تعرف بأصحاب النفير يقومون بدق الطبول والنفخ في الأبواق عند صحبة الأمير وتنقلاته في سفره [٣] ، وكانت الأبواق والطبول تمثل آلات العزف الرسمية عند الحفصيين .

وذكر التيفاشي[٤] طريقة أهل أفريقية في الغناء فقال " فأما أهل أفريقية في الغناء مولدة بين طريقتي أهل المغرب والمشرق فهي أخف من طريقة أهل الأندلس أكثر نغماً

---

(١) النيفر ، عنوان الأديب ، ١/ ٣٣١ ، ٣٣٢ . حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، جـ١، ص ٢٣١ .

(٢) تاريخ الدولتين ، ص ١١٦ .

(٣) أحمد عامر ، الدولة الحفصية ، ص ٦٨ .

(٤) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، جـ ١ ، ص ٢٣١ .

من طريقة أهل المشرق ، وكذلك أشعارهم التي يتغنون بها هي أشعار المولدين ،فمن أشعارهم الملحنة التي يتداولون الغناء فيها في سائر هذا الإقليم ، صوت :

ومنفرد بالحسن خلْو من الهوى   عليم بأسباب القطيعة والعتبِ

ثم أضاف " حضرت جارية مغنية في مجلس عظيم من عظماء تونس ، تغني في هذا الشعر ، تشتكي الكميت الجرى لما جهدته ، فمر عليها في غناء هذا البيت وحده مقدار ساعتين من الزمان " [١] ، والغناء في بلاد المغرب يقوم على ، نشيد ، واستهلال ، وعمل ، ومحرك ، وموشحة وزجل [٢] وجميعها لها أدوار أو بحور في الأغاني العربية .

ولم يقتصر الشعر على الرجال فقط بل إن النساء عرفن الشعر فكان منهن الأديبات والشاعرات فمن البيت التجاني اشتهرت زينب بنت أبي إسحاق إبراهيم ، وكانت ذات خيال واسع وعرفت بنبوغها في القريض البديع ، واشتهرت لها أبيات في ذكر حبيبها (تميم) ملغزة فيه باسمه :

يقولون إلي هذا حبيبك ما اسمه ؟   فما استطعت إفشاء وما استطعت أكتم

فقلت اسمه ميم وحرف مقدم   فهذا اسم من أهوى فديتكم أفهموا

وفي شعر الترسل برزت خديجة المعافري ، فقد اشتهرت بأدبها ، وفصاحتها ، ورقة شعرها [٣] .

٣ - التاريخ والجغرافيا :

---

(١) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٣١ .
(٢) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ .
(٣) أحمد عامر ، الدولة الحفصية ، ص ٨٨ .

عاصرت الدولة الحفصية عدد من المؤرخين كان لهم أثر كبير في نقل تاريخ الموحدين والحفصين إلينا وقد ارتبط التاريخ الحفصي بعدة مؤرخين منهم ابن النخيل محمد بن إبراهيم بن عبد العزيز بن نخيل الذي كان كاتباً عند والي إفريقية من قبل الموحدين عبد الواحد الحفصي ، وقد ألف كتاباً أسماه " تاريخ الدولتين الحفصية والموحدية " تحدث فيه عن تاريخ أمراء الطوائف وعن الدولة الموحدية وزعيمها ابن تومرت وخلفائه وعن ثورة ابن غانية ، وعن عبد الواحد الحفصي وأخلاقه وصفاته ، وقد أشار إليه التجاني في رحلته ، وقد توفى ابن النخيل سنة ٦١٨هـ بعد أن سجن من قبل والي إفريقية أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن .[١]

ومنهم عبد الله محمد بن الشيخ أبي القاسم بن علي ابن البراء التونسي التنوخي المتوفى سنة ٧٣٧هـ حيث ذكر الزركشي[٢] له كتاباً في التاريخ مرتب حسب السنين في ست مجلدات .

ومنهم ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن الحسن جابر الحضرمي ، وهو مؤرخ وفيلسوف وعالم اجتماع ولد سنة ٧٣٢هـ بتونس واعتنى والده بتعليمه وتربيته ، ثم مات والده بالطاعون الذي اجتاح تونس سنة ٧٤٩هـ وتولى الكتابة في الدولة الحفصية فكان يكتب العلامة للسلطان أبي إسحاق الحفصي " الحمد لله والشكر لله " ثم انتقل إلى فاس واتصل بالأمير أبي عنان ظل في خدمته حتى دبرت له مؤامرة سجن على إثرها سنة ٧٥٨هـ حتى سنة ٧٥٩هـ حيث توفى أبو عنان المريني وأطلق سراح ابن خلدون فرحل إلى غرناطة ، ثم إلى بجاية ومنها إلى تونس مسقط رأسه حيث اتصل بالسلطان أبي عبد الله الحفصي وتولى الحجابة عنده ،

(١) ابن سعيد الأندلسي ، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، ص ٩٨ . التجاني : الرحلة ، ص ١٠٨ ، ١٤٧ .

(٢) تاريخ الدولتين ، ص ٦١ ، ١١١ .

وتصدر للتدريس بجامع الزيتونة ثم عكف على التأليف حيث ألـف كتابه المشهور في التاريخ (العبر) وتعـتبر المقدمة جزء منه ، وقدمه هدية للسلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز ، ثم رحل ابن خلدون إلى مصر حيث تولى القضاء فيها وبقـى فيهـا إلى وفاته سنة ٨٠٨هـ [٣] .

ومنهم أبو العباس أحمد بن حسن بن القنفذ أو ابن الخطيـب وهـو كاتـب قسنطيني اتصل بالسلاطين الحفصين وتولى القضاء والفتيا والخطابة في جامع القـصبة توفى سنة ٨٠٩هـ وقد ألف كتاباً في التاريخ أسماه (الفارسية في مبـادئ الدولـة الحفصية) وهو سرد للأحداث التاريخية يبدأ فيه من بداية نشأة الدولة الحفـصية إلى انتهاء الكتاب في سنة ٨٠٦هـ [١] .

ومنهم أبو عبد الله محمد أحمد بن الشماع الذي كان والده أبو العباس أحمد على اتصال بسلاطين بني حفص حيث كان هو المتولي لغسل وتكفين السلطان أبي فـارس عبد العزيز ،فهذا يدل على مكانته المميزة عند بني حفص ، وكان والده أيضاً متوليـاً لقضاء محله وكان أبو العباس أحد تلاميذ ابن عرفة ، وقد ألف ولده محمـد كتابـاً يتناول تاريخ الدولة الحفصية منذ نشأ ا أطلق عليه اسم " الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية " وقد توفى ابن الشماع سنة ٩٣٦هـ [٢] .

وكان آخر المؤرخين الحفصين محمد بن أحمد بن اللؤلؤ الزركشي ، كان كاتبـاً بديوان الإنشاء في الدولة الحفصية ولد سنة ٨٢٠هـ وتوفي سنة ٨٨٣هـ له كتاب

---

(٣) الزركلي : الإعلام ٤ / ١٠٦ ، ١٠٧ . الشوكاني ، البدر الطالع ٢٣٧/١ ، ٢٣٩ ،السيوطي ، حسن المحاضرة ١/ ٤٦٢، ابن العماد ، شذرات الذهب، ٦٧/٧ ، العسقلاني ، أنباء الغمر ، ٣٣٩/٢، ٣٤٠ .

(١) ابن القنفد : الفـارسية ، ص ٣٧ ، ٤١ ، وبـرنشفيك ، تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، جـ ٢ ، ص ٤١٤ .

(٢) ابن الشماع : الأدلة النورانية ،ص ١٦ ، ١٩ ، برشفيك ،تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، ٢/ ٤١٥

في التاريخ يسمى " تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية " وقد سبق أن ذكرنا أن المؤرخ ابن النخيل له كتاب بنفس الاسم وربما دل ذلك على أنه أخذ تسمية كتابه من ابن (النخيل) وقد نقل الزركشي في تاريخه عن ابن خلدون وابن القنفد القسنطيني ، ينتهي من سرد أحداث تاريخه إلى سنة ٩٣٢هـ .

أما الجغرافيا فقد لمع بعض الجغرافيين المغاربة الذين مزجوا علم الجغرافيا والتاريخ فكانت كتب الرحلات من أهم العلوم التي أدت إلى إغناء العلوم التاريخية الجغرافية وكما أدت هذه الرحلات إلى معرفة العالم من حولنا وإلى تشجيع الرحلات بين البلدان وتسهيلها ، وكان من أعظم الرحالة خلال هذا العصر الرحالة ابن بطوطة الذي بدأ رحلته سنة ٧٢٥هـ وانتهى منها سنة ٧٥٦هـ فاستمرت ثلاثين عاماً زار خلالها بلاد المغرب والشام والحجاز والعراق ومصر وتركيا والهند وغيرها من بلدان العالم ، وقدم لنا من خلال رحلته وصفاً جغرافيا يشمل المدن ككل ووصف نواحيها وأرباضها وآثارها ومعالمها وحدد الأبعاد بين المدن بمقاييس ذلك العصر بالفراسخ والأذرعة والأيام ،كما أضاف معلومات تاريخية قيمة لكل مدينة زارها ، فوصف النواحي العمرانية ، وبلاطات السلاطين ، وعاداتهم في الاستقبالات ،وصف الكنائس والمساجد التي مر بها ، وتعرض في وصفه إلى العادات والأعراف الموجودة في كل البلدان التي زارها ، فكانت رحلته ممتعة للقارئ أدت إلى جذبه ومعرفته للكثير من البلدان التي يجهلها [1] .

ومنهم الرحالة العبدري المغربي الذي مزج في رحلته بين الوصف الجغرافي الدقيق للأحوال المناخية للمدن والبلاد التي زارها مع ذكر المسالك والممرات

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة ، ص ٧ ، ٨ ، ١٥ / ١٦ .

والوصف الثقافي والعلمي ، فهو عندما يتحدث عن إحدى البلاد التي زارهـا فإنـه يذكر العلماء فيها ويذكر مؤلفا م وأشعارهم .[٢]

ومنهم التجاني أبا محمد عبد الله الذي ترك لنا من خلال رحلته وصفاً للطـرق والمداخل التي سلكها وتحدث عن القبائل وأقسامها والحياة العلمية والثقافية فيها[٣] .

(٢) العبدري : الرحلة ، ص ٥ ، ٩ .

(٣) برنشفيك : تاريخ أفريقيا ، جـ ٢ / ٤١٧ .

المبحث الثالث : العلوم العقلية وأشهر علمائها :

أما النوع الثاني من العلوم فيتمثل في العلوم العقلية التي يهتدي إليها الإنسان بفكره وعقله (١) ، وقد ظهر منها في العصر الحفصي علم الطب الذي شهد ظهور عدد من الأطباء .

ومنهم عهد السلطان أبي زكرياء الأول أحمد بن محمد بن الحشا أبو جعفر وهو طبيب تونسي ألف كتاباً في الطب عنوانه (مفيد العلوم ومبيد الهموم) وهو عبارة عن كتاب يذكر فيه الألفاظ الطبية الموجودة في كتاب (المنصوري) لأبي بكر الرازي ، فهو يذكر اللفظ واشتقاقه من العربية أو الفارسية ويوضح معناه ويأتي بما يقابله في لهجة أهل المغرب(٢) . وقد فاق العالم الإسلامي أوروبا في مجال الطب حيث أرسل ملك صقلية إلى المستنصر الحفصي يطالبه بطبيب لمعالجتها وأرسل أيضاً السلطان اللحياني إلى ملك أرجونة خايم الثاني طبيباً لمعالجته (٣) .

وفي عهد السلطان أبي فارس أنشأ بيمارستاناً عظيماً في تونس ، وكان من أشهر أطباء تونس في هذا العصر أحمد بن أبي العباس الخميري وهو طبيب تتملذ على يد الصقالبة له كتاب (تحفة القادم) وهو يشتمل على سبعة أبواب في الصحة وقد أهداه إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز ومنهم الطبيب عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن التونسي كان حياً سنة ٨٨٩هـ له كتاب في الطب أسماه (الطب في تدبير المسافرين ومرض الطاعون) وأيضاً ابن القويع محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يوسف

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٧٨ .

(٢) محمد محفوظ : تراجم المؤلفين ،جـ ٢ / ١٤٣ .

(٣) برنشفيك : تاريخ أفريقيا ، جـ ٢ / ٣٩٣ .

الهاشمي القرشي المولود سنة ٦٦٤ هـ وكان له اهتمام بالطب [٤] فكان دائم النظر في كتاب ابن سينا (الشفاء) وقد امتدحه ابن كثير بقوله [١] " ممن جمع العلوم الكثيرة والعلوم الأخروية الدينية الشرعية والعلمية وكان مدرساً بالمنكوتمرية وله وظيفة في المارستان المنصوري " .

وفي عهد السلطان عثمان كان هناك طبيباً يدعى أبو القاسم إبراهيم الأنصاري ألف كتاب بطلب من الأمير عثمان وسماه (درة السلوك الموضوع لسيد الملوك) وهو عبارة عن فصلان الأول في حفظ الصحة والثاني في المفردات الطبية وكان ذلك في سنة ٨٦٣هـ [٢] .

واهتم الحفصيون بعلم الفلك والنجوم ، فعرفوا علم الأزياج [٣] وظهرت مؤلفات في هذا العلم منها مؤلفات ابن الكماد أحمد بن علي التميمي الذي ضبط الأزياج قبل سنة ٦٧٩هـ ، أيضاً كان هناك كتابان ألفهما القاضي القسنطيني ابن القنفذ في علم الفلك وهما (تسهيل المطالب في تعديل الكواكب) وكتاب (شرح منظومة أبي الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني) وهو كتاب في علم النجوم أهداه إلى الوزير المريني .

أما بالنسبة لعلم الحساب الذي هو ضروري لقسمة التركات فقد اهتم الحفصيون به فكان الطلاب يدرسون المبادئ الأولية للحساب حتى يتمكنوا من

---

(٤) محمد محفوظ ، المرجع السابق ، جـ ٢ / ٢٤١ . برنشفيك : المرجع السابق نفسه ، جـ٢ / ٣٩٤ .

(١) البداية والنهاية ، ١٤ / ١٨٣ .

(2) محمد محفوظ : المرجع السابق ، جـ ٢ / ٢٠٧ .

(٣) علم الأزياج : الزيج جدول حسابي يبين مواقع النجوم ويحسب سير الكواكب ، ومنه يستخرج التقويم ، عمرو فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ،ص ١١٦ . والخوارزمي أبو عبد الله محمد ، مفاتيح العلوم ص ١٢٧

معرفته وكذلك علم المنطق حيث كان يدرس كتاب في المنطــق وهــو (الجمــل) للخونجي [٤] .

(٤) برنشفيك : نفس المرجع السابق ، جـ ٢ / ٣١٤ .

المبحث الرابع : العلاقات الثقافية بين الدولة الحفصية ومصر والأندلس ودول المغرب العربي :

وبعد استعراض ما وصلت إليه تونس من نهضة ثقافية وحضارية عظيمة يحق لنا التساؤل هل هذه النهضة تونسية بحتة أم أن هناك مؤثرات ثقافية خارجية ساهمت في هذه النهضة ؟

نقول نعم هناك مؤثرات خارجية تمثلت في أربع قنوات رئيسية وهي :

الأندلس :

تسبب العدوان المسيحي على مدن المسلمين في الأندلس إلى هجرة آلاف من الأندلسيين فراراً بدينهم من وحشية الأسبان وكان لتونس نصيب الأسد من هؤلاء اللاجئين الذين اتخذوا من التعليم مهنة للارتزاق [١] لاسيما وأن الدولة الحفصية كانت في بداية ظهورها ، فكانت بحاجة إلى الاستفادة من هؤلاء اللاجئين في مختلف المجالات وقد كان التأثير الأدبي أقوى وأشد ظهوراً ،وبسبب كثرة الأدباء الذين هاجروا إلى تونس ومنهم ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن أحمد المعروف بابن الأبار القضاعي البلنسي ، أديب ، حافظ ، شاعر أصله من رندة[٢]

---

(١) الطالبي : دراسات في تاريخ أفريقيا في الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط ، ص ١٨٨ .

(٢) رندة مدينة من كورة بلنسيه وهي اليوم مدينة صغيرة في مديرية فسطليون وتقع على بعد ٢٠كم غرب فسطليون قاعدة المديرية وكانت تابعة على أيام المسلمين لكورة بلنسيه ، ابن الأبار ، مقدمة الحلة السيراء لحسين مؤنس ص ١٤ .

ولد ا سنة ٥٧٥هـ وتتلمذ على يد أبي عبد الله بن نوح [(١)] وأبي الخطاب [(٢)] بـن واجب وأبي الحسن [(٣)] .

وصحب أبا الربيع بن سالم [(٤)] أكثر من عشرين سنة ، نشأ في بيت علم فقـد كان والده من أهل العلم قرأ على طائفة من العلماء وأجازوه وقرأ عليه ابن أبي الأبار وانتفع بعلمه [(٥)] وقد أثنى علية العلماء فقال عنه ابن عبد الملك المراكشي [(٦)] " محدثاً مكثراً ضابطاً عدلاً ثقة ، نافداً يقظاً ذاكراً للتواريخ على تباين أغراضها متبحـراً في عـلوم اللسان نحواً ولغةً وأدباً ، كاتباً بليغاً شاعراً مغلقاً مجيداً ، عنى بالتأليف وبحث فيه " .

كان كاتباً لوالي بلنسيه أبي عبد الله بن أبي حفص البباسي ، ثم كاتباً عند خليفة البياسي على بلنسيه ابن مردنيش ، فلما هاجم الأسبان بلنسيه وحاصروها أرسل بن

---

(١) أبي عبد الله أحمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن نوح الغافقي البلنسي الأندلسي ، عالماً بالقراءات والفقه والعربية ، توفى سنة ٦٠٨هـ ، ابن الأبار – التكملة رقم ١٥٥٦ .

(٢) أحمد بن محمد بن عمر القيسي البلنسي أبو الخطاب بن واجب ، حامل راية الرواية بشرق الأنـدلس ولي قضاء بلنسيه وشاطبه ، توفى سنة ٦١٤هـ ، الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٣١٠ .

(٣) على بن أحمد بن عبد الله بن خيرة أبو الحسن ، خطيب بلنسيه ،فقيه محدث تـوفى سـنة ٦٠٤هـ ، الغبريني ، عنوان الدراية ص ٣١٠ .

(٤) سليمان بن موسى بن سالم بن حسان أبو الربيع الحميري، خطيب عالم بصناعة الحديث متقدم في نقادهـا وله معرفة بطرق الإسناد ، توفى سنة ٦٣٤هـ الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ٣١٠ .

(٥) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٤ .

(٦) الذيل والتكملة ، ٦/ ٢٥٨ .

أبي مـردنيش كاتبه ابن الأبار إلى الأمير الحفصي أبي زكرياء الأول طالباً منه المساعدة ، فأنشد الأمير الحفصي قصيدته السينية المشهورة وهي قصيدة طويلة ومنها قوله :

أدرك بخيلـك خيـل الله أندلـساً | إن الـسبيل إلى منجا ـا درسـاً
وهب لها من عزيز النصر ما لتمست | فلم يزل منك عز النـصر ملتمـسا
وحـاشى مـما تقـاسيه حشاشتها | فطالما ذاقت البلوى صـباح مـسا
يـا للجزيرة أضـحى أهلها جزراً | للحـ ـادث وأمسى جدها تعسا [(١)]

وكانت هذه القصيدة سبباً في تقرب ابن الأبار من الأمير أبي زكريا .

وعقب سقوط بلنسيه في يد الأسبان سنة ٦٣٦هـ رحل ابن الأبار إلى تـونس وأقام في بجاية إلى أن استدعاه أبو زكرياء الحفصي وولاه خطة الكتابة في بلاطه ولكنه لم يستمر فيها طويلاً بسبب غروره ، فعندما أراد السلطان الحفصي تقسيم خطة كتابة الإنشاء إلى خطتين بحيث يكون هناك موظف يتولى تحرير الوثائق الرسمية وموظف أخر يقوم بكتابة العلامة ، واختار لكتابة العلامة أحمد الغساني وهو أندلسي الأصل أيـضاً وكان مجيداً للخط المشرقي وأبقى ابن الأبار لتحرير الوثائق ولكن ابن الأبار لم يرق له هذا الوضع فرفض الانصياع للأوامر السلطانية ، واستبد بكتابة العلامـة ، فعاقبـه الأمير أبي زكرياء بالحرمان [(٢)] والرحيل إلى بجاية فأنشد قائلاً :

أطلب العـ ـ ـزفى لظى | وذر الذل ولو في جنات الخلود

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٣٥ . النيفر : عنوان الأريب ، جـ ١ ، ص ٣٨١ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٣٩ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٢٥ – ٢٦ .

وهذا لعمري مما يدل على غرور ابن الأبار واحتقاره للبلاط الحفصي ، وسوء تصرف من ابن الأبار ، وأشار الزركشي إلى هذه الحادثة فقال : " ثم أخر لسوء خلقه وإقدامه على التعليم في كُتب لم يؤمر بالتعليم فيها " (٣) .

وفي بجاية استنجد ابن الأبار بالمستنصر ابن الأمير أبي زكريا وطلب منه التوسط عند أبيه لعودته إلى وظيفته ، فقبل الأمير أبـو زكريا عودته ، وألف ابن الأبار كتاب (إعتاب الكتاب) ، يضرب مثلاً للسلطان الحفصي أبو زكريا عـن حلـم الملـوك وعفوهم عن أخطاء الكتاب ، وهو محاولة لاستعطاف أبي زكريا للعفو عنه (١) .

وفي عهد المستنصر زاد غرور ابن الأبار واستكباره ، ومما زاد مـن غـروره وحقده على الخليفة الحفصي أن المستنصر كان إذا ورد إليه نص أدبي أو بلاغي فيـه غموض يطلب من ابن الأبار توضيحه ، مع أنه كان لا ينظر إليه إذا حـضر مجلـسه أحياناً وهذا تقليل من شأنه فلم يتمالك ابن الأبار إلا إنشاد بيتين قال فيهما :

أمري عجيب في الأمـور بين التواري والظهـ ـور

مستعمل عنـ ـد المغيب ومهمل عند الحضـ ـور (٢)

ومما زاد من غضب المستنصر عليه كثرة الوشايات التي سعى لها منافسة الغساني وذكر أن السبب في الإيقاع به وتفتيش بيته وقتله ، أنه جرى بالمجلس يوماً حديثاً عن مولد الواثق ابن المستنصر الحفصي ، فأراد ابن الأبار إحضار بطاقة يسجل فيها ساعة

---

(٣) تاريخ الدولتين : ص ٢١ .

(١) بن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٢ .

(٢) محمد العامري : تاريخ المغرب ، ص ٦٣ .

مولده حتى يعرفه طالعه فلما أخبر المستنصر الحفصي بما كان من أمر ابن الأبار غضب وقال :

" هذا فضول ودخول فيما لا يعنيه من أمرنا " [٣] فأمر بسجنه وأرسل الغساني لتفتيش داره فوجد في كتبه عدة أبيات في هجاء المستنصر منها بيت يقول فيه :

طغـى بتـونس خـ ـلـف   سمـ ـ ـوه ظلمـ ـاً خليفـة

وبيت أخر قال فيه :

عـق أبـ ـ ـاه وجفا أمـه   ولـم يقـل مـ ـن عثرة عمه

فلما قرأها المستنصر أمر بضربه وتعذيبه ومن ثم قتله وإحراق كتبه [١] .

وذكر المقري [٢] سبباً أخر لقتله وإحراق كتبه وهو وجود كتاب في التـاريخ لابن الأبار يسيء فيه للمستنصر ويبدو أن كلا السببين المذكورين سـاهم في قتلـه وإحراق مـؤلفاته فالإساءة كما يبدو لنا مـوجودة سواء كانت عن طريق أبيـات الشعر أو عن طـريق تأليف كتاب يسيء إلى الخليفة المستنصر ، وكان موت ابـن الأبار سنة ٦٥٨هـ . وبلغت مؤلفاته خمسة وأربعين مؤلفاً ولكن المستنصر أحـرق معظمها .

ونذكر منها كتاب (الحلة السيراء) وهو أحسن كتب ابن الأبـار وأعظمهـا فائدة وكتاب (إحضار المرهج في إحضار المنهج) وله (الاستدراك) و (در السمط

---

(٣) الزركشي :تاريخ الدولتين ، ص ٢٧ .

(١) محمد محفوظ : تراجم المؤلفين ، جـ ١ / ٢٦ .

(٢) نفح الطيب ، جـ ٣ / ٣٤٩ .

في خير السبط) و (معدن اللجين في مراثي الحسين) و (إعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب) و (أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً من أربعين مصنفاً) (وكتاب التكملة لكتاب الصلة) وله (ديوان شعر على الحروف) وله (قطع الرياض في بديع الأغراض) [٣] .

ومنهم أبو المطوف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي ولد بجزيرة شقر سنة ٥٨٠هـ أديباً بلاغياً ، أجاد النثر والنظم وله معرفة بالرواية حيث أكثر من سماع الحديث أخذ عن علماء الأندلس وهم شيوخ ابن الأبار مثل أبي الخطاب وأبي الربيع ،ثم رحل إلى المشرق وأجازه جماعة من علماء المشرق ، ثم عاد إلى الأندلس وتولى القضاء بأريوله وشاطبه ، ثم ورد إلى الأمير الموحدي في مراكش فولاه قضاء سلا ومكناسة ومنها قدم إلى أفريقية حيث كتب قصيدة إلى الأمير زكريا يستنجده لإنقاذ الأندلس جاء فيها :

شاقة غب الخيال الوارد   بارقة هاج غرام الهاجد
صدق وعد للتلاقي ثم ما   طرقاً إلا بخلف الواعد
وكلا الزورين من طيف ومن   وافد تحت الدياجي وارد

إلى أن يقول مادحاً السلطان أبي زكرياء الحفصي :

إنما الفخر لمولانا أبي   زكرياء بن عبد الواحد
ملك لولا حلاه العز لم   يجر بالحمد لسان الحامد

---

(٣) ابن الأبار : الحلة ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .

ولو أن العـذب أبـدى رغبـة عنـه لـم يشف غليـل الـوارد
فضله مثل سين الشمس وهـ ـل لسيني الشمس يرى مـن جاحد[1]

ثم استوطن بجاية ودرس فيها الفقه والأدب إلى أن استدعاه الخليفة المستنـصر وقربه منه وولاه قضاء وقابس وكان من خاصة جلسائه ،وكان شديد الحرص علـى خدمة الملوك وشديد الرغبة في المظاهر الدنيوية وهذا ما ذكره المستنصر عندما سـئل عنه فقال : " ذلك الرجل رام إفساد دنيانا علينا فأفسدنا عليه دينه " (١)

وتوفى أبو المطوف سنة ٦٥٨هـ وترك مؤلفات قيمة في علوم النثر والشعر ، فله (التبيان في علم الكلام) و (التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات) وهو رد على كتاب (التبيان في علم البيان المطّلع على إعجاز القرآن) لكمال الـدين أبي محمد بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري المعروف بالسماكي الزملكاني ولـه مجموعة رسائل (٢) ومنهم أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بـن علـي الحـضرمي المعروف بابن عصفور من أهل أشبيليه ولد ا سنة ٥٩٧هـ وتتلمذ على يد أبي علي الشلوبين (٣)

(١)الغبريني ،عنوان الدراية ، حسن ٢٩٩ ، البغدادي ، إيضاح المكنـون ، ١ / ٣٢٣ ، النيفـر ، عنـوان الأديب ، جـ ١ / ٣٩٣ ، ٣٩٧ .

(١) المراكشي : التكملة ، جـ ١ ، ص ١٥٠ .

(٢) محمد بن شريقة المغربي : أبو المطوف أحمد بن عميرة ،ص ١٥٦ .

(٣) أبـو علي الشلوبين هـو عمر بن عبد الله لأزدي من كبار العلماء باللغة والنحو ولد بأشـبيليه سـنة ٥٦٢ هـ ، وينسب إلى حصن الشلوبين في جنوب الأندلس له " شرح المقدمة الجزولية " و " القوانين " وغيرها ، توفى سنة ٦٤٥هـ . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ٣٤٥ .

وكان حافظاً متقناً ، كثير المطالعة ، ورحل إلى بجاية وسكنها في عهد الأمير أبي زكريا ،وكان معلماً للمستنصر ابن الأمير أبي زكرياء الحفصي ، وبعد وفاة الأمير أبي زكرياء وتولي ابنه المستنصر للحكم ، قرب أستاذه ومعلمه منه فأصبح ابن عصفور من جلسائه وخاصته وأنشأه ابن عصفور مدرسة في تونس درس فيها مؤلفاته للطلبة وكانت مؤلفاته عظيمة الفائدة في النحو واللغة والأدب وكان من أشهرها (المقرب) وكان له أثر كبير عند النحاة حيث تناولوه بالشرح والتعليق والاختصار .

والجدير بالذكر أنه ألفه بإشارة من الأمير الحفصي الأول أبي زكرياء وله (شرح الإيضاح) و(سرقات الشعراء) و(شرح المتنبي) ، و (مختصر المحتسب) و (المقنع) و(كتاب الهلالية) و(شرح جمل الزجاجي) و(شرح ديوان الحماسة) و (كتاب البديع وإنارة الدياجي) [١] . وله تفسير جزء من القرآن قال عنه الغبريني " وسلك فيه مسلكاً لم يسبق إليه من الإيراد والإصدار والأعذار وما يتعلق الألفاظ ثم المعاني ثم إيراد الأسئلة الأدبية على إنحاء مستحسنة " [٢] .

توفى ابن عصفور سنة ٦٦٩هـ وقيل في سبب موته أنه دخل على المستنصر يوماً وهو جالس برياضة في إريانة في القبة على الجابية الكبيرة ،فقال السلطان الحفصي مفتخراً " قد أصبح ملكنا عظيماً " فأجابه ابن عصفور قائلاً " بنا وبأمثالنا " وهذا ما يؤكد غرور الأندلسيين واحتقارهم للحفصيين ،فغضب المستنصر من رد ابن

---

(١) الزركلي : الإعلام ٥ / ٢٧ ، البغدادي ،إيضاح المكنون ١/ ٥٢٧ السيوطي ، بغية الوعاة ٢١٦/٢ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٥/ ٤٤٤ ، العبدري ، ٣٧ .

(٢) عنوان الدراية ، ص ٣١٨ .

عصفور ، فأوعز إلى بعض خواصه بقذفه بثيابه في مياه الجابية وتثاقلوا في إخـــراجه وكان ذلك اليوم شديد البرد ، وبعد إخراجه أصابه البرد فمات بعد ثلاثة أيام (٣) .

ومنهم حازم بن محمد بن الحسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري الأوسي القرطاجني ولد بقرطاجنة سنة ٦٠٨هـ وكان والده فقيهاً تولى قضاء مرسية أكثر من أربعين سنة وتوفى سنة ٦٣٢هـ وبعد سقوط قرطاجنة في يد الأســبان هـاجروا إلى المغرب الأقصى ولكن الوضع لم يلائمه نظراً لشدة الاضطرابات والفتن في الــسلطة الموحدية ،ففضل الرحيل إلى تونس وفي تونس سمع المستنصر الحفصي بحازم القرطاجني وبما يتمتع به من سلوك حسن وعلم بليغ فقد كان بحراً من بحور البلاغــة ،وحافظــاً للغات العرب وأشعارهم ،أضف إلى ذلك أنه كان بارعاً في الخط ،وهذا سبب دخوله إلى البلاط الحفصي وتوليته لديوان الإنشاء ، وقد حصل على إجازات مــن علمــاء المشرق وهذا يدل على سعة علمه وتفوقه على أدباء عصره تخرج عليه عــدد مــن العلماء منهم راشد القفصي وابن رشد (١) وأبو الحسن التجاني وغيرهم وله مؤلفات عدة من أشهرها المقصورة التي نظمها في مدح الخليفة المستنصر (٢) بــسبب تجديــده

---

(٣) النيفر : عنوان الأريب ، ١/ ٣٩٩ ، ابن القنفذ ، الفــارسية ، ص ١٢٣ ، الضياف ، الأتحاف ، جـ ١ / ١٦٢ .

(١) ابن رشد رحالة ، ومحدث وشاعر ولد بسبته سنة ٦٥٧هـ وتوفى بفاس سنة ٧٢١هـ ، اشتهر برحلته " ملئ العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة ، حازم القرطــاجني منــهاج البلغاء وسراج الأدباء . تحقيق محمد خوجة ، ص ٣٥ .

(٢) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص ٣٥ ، الزركلي ، الأعلام ٢ / ١٥٩ ، السيوطي ، بغية الوعاة ١/ ٤٩١ ، ٤٩٢ .

للحنايا الرومانية التي تحمل قنوات الماء من جبل زغوان إلى جنات أبي فهر والقصبة بتونس ، وجمع في هذه القصيدة شتى أغراض الشعر من مدح وغزل وحكمة ومثل ووصف ووعظ وغير ذلك من الفنون وتحتوي على ألف بيت كافاءه عنها المستنصر بألف دينار وقد قال فيها :

يا ظبية أشبه شيء بالمها ترعى الخزامي بين أشجار القنا
لقد جمعت الظلم والأظلال إذ واريت شمس الحسن وقت الضحى(٣)

وقد عارض ا أيضاً قصيدة ابن دريد (١) وله أيضاً منهاج البلغاء وسراج الأدباء وحديقة الأزهار وحقيقة الافتخار في مدح النبي المختار وهي قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وله قصيدة في النحو على حرف الميم ومجموعة قصائد ومخطوطات وله ديوان شعر (٢) وهو مع اتساع عقله إلا أنه كانت فيه سذاجة وهذا ما ذكره صاحب الإحاطة حيث ذكر له قصة تدل على سذاجته في شؤون الحياة العملية فقال : " روي الشيخ أبو العباس الكاتب ببجاية قال : كنت أوياً إلى أبي الحسن حازم القرطاجني بتونس ، وكنت أحسن الخياطة ، فقال لي : إن المستنصر خلع عليّ جبة من لباسه وتفصيلها ليس من تفصيل أثوابنا بشرق الأندلس وأريد أن تحل أكمامها وتصير مثل ملابسنا ، فقلت له وكيف يكون العمل ؟ فقال : نحل رأس الكم

---

(٣) حازم القرطاجني : المرجع السابق ، ص ٣٢٠، النيفر ، عنوان الأريب ١/ ٤٠٤ .

(١) ابن دريد هو أبو بكر بن محمد بن الحسن الأزدي ، اللغوي والشاعر ، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣هـ وتوفى سنة ٣٣١هـ ، وقصيدته تتضمن مدح مكيال أمراء فارس ، السيوطي ، بغية الوعاة ١/ ٣٠، ٣٣ .

(٢) البغدادي ، هديه العارفين ١/ ٢٦٠ ،ابن القاضي ، درة الحجال ١/ ٢٥٤ .

ويوضع الضيق الأعلى والواسع بالطرف ، فقلت له : ومما يجبر الأعلى فإنه إذا وضع في موضع واسع سطت عليه فـرج ، ما عندنا ما نضع فيها إلا رفعها بغيرها ، فلـم يفهم ، فلما يئست منه تركته وانصرفت " .

وقد علق صاحب الإحاطة بقوله " فأين هذا الذهن الـذي صـنع المقـصورة وغيرها من عجائب الكلام " (٣) .

ومنهم أحمد بن محمد بن القرشيي الشريف الغرناطي ، نزل بتـونس ، حـافظ وأديب ومحدث قدم إلى تونس واستقر ا وتصدر للتدريس في جامع بجاية الكـبير ، درس أيضاً بالمدرسة التي أسسها الأمير أبو زكريا الثاني " المعرضية " وتـوفى سـنة ٦٩٢هـ ولـه عدة مؤلفات منها (المشرق في علماء المغرب والمشرق) (١) وهـو تراجم للمؤلفين من معاصريه المغاربة والمشارقة .

ومنهـم أبو العباس أحمد بن إبراهيم الغساني ، كان كاتباً عند المستنصر وكان مجيداً للخط المشـرقي وصفه ابن سعيد في المغرب قال : " قال بم أصفه ؟ ولـو أن النجوم تصير لي نثراً لما كنت أنصفه وكفاك أني اختبرت الفضلاء في البحر المحيط إلى حضرة القاهرة فما رأيت أحسن ولا أفضل عشره منه ، ولما فارقته لم أشعر إلا برسالة منه وقد وافتني بالإسكندرية من حضرة تونس وفيها قصيدة فريدة منها :

---

(٣) لسان الدين ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ١/ ٢٠٨ .

(١) مخلوف :شجرة النور الزكية ، ا / ١٩٩ – الغبريني – عنوان الدراية ، ص ٣٤٧، الزركشي ، تـاريخ الدولتين ، ص ٤٠ ، ٤١ .

إيـه أبـا الحسن استمع شدوي فقد يصغي الحمام إذا الحمـ ـام ترنمـا [٢]

كان له دارين في الجزيرة وفي أخر أيامه أوقفها على الضعفاء وقـد أورد لنـا الشماع حكاية تدل على غنائه وترفه ، حيث ذكر أن الأمـير الحفـصي الأول أبـا زكرياء استدعى أبا العباس الغساني قال : " فوجدته جالساً على كرسي من خـشب وبيده إبرة وهو يرفع ثوبه فسلمت عليه وأمرني بالجلوس وإذا بخادم قد أتاني بمائـدة مغطاة وأتى بطست ورفع عن المائدة فإذا فيها غذاء واحد وخبز غـير نقـي فأكـل وأكلت فلما فرغ قال انصرف بسلام فخرجت وما كدت أن أخرج حـتى وقفـت عندي حيرة فعرفت بذلك ابن أبي الحسين فقال لي : ماذا صنعت ؟ فقلـت لـه : لا شيء إلا أني لما دخلت عليه نظر في شزرا فقال لي : دخلت عليه بثيابك هذه ؟ فقلت له : نعم : فقال لي :من هاهنا أتى عليك تراه أخبرك أن كسوته الثياب المرفعة وأكله الخشن من الطعام ، فإذا انتهيت من فعلك ولبسك الثياب الرفيعة وإلا فلا تلومن إلا نفسك " [١] . وقد توفى الغساني سنة ٦٦٨هـ [٢] .

ومنهم على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلـف الغرنـاطي ويعرف بابن سعيد أبي الحسن ، أديب وشاعر ولد بغرناطة سنة ٦١٠هـ ، ثم رحـل لأداء فريضة الحج سنة ٦٤٠هـ ومات والده في الطريق ، ثم نزل القاهرة والتقـى بعلمائها وفي سنة ٦٥٢هـ نزل تونس وخدم المستنصر الحفصي ونال مكانة مرموقة

---

(٢) المقري ،نفح الطيب ، ٣/ ٥٧ .

(١) الشماع : الأدلة البينة ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) النيفر : عنوان الأريب ، ا/ ٤٢٣ .

عنده وقد كان مساهماً في عدة علوم فجاءت مؤلفاته متنوعة في الجغرافيـا والتـاريخ والأدب فله عدة مؤلفات منها (الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة) (والقـدح المعلي في التاريخ المحلي) و(مختصر الجغرافيا) و(المغرب في حلي المغرب) .وقد توفى سنة ٦٧٥هـ .[٣]

ومنهم محمد بن الحسين بن أبي الحسين سعيد بن خلف العنسي ، كانـت لـه مساندة للأمير أبي زكـريا الثاني وكـان يلقب برئيس الدولة وقد قال عنـه ابـن القنفذ : [٤] " كان كبير داره وخاصة رجاله من غير الموحدين وكان رئيساً الدار من الداخلة والأندلس وغيرهم " لـه (ترتيب المحكم لابن سيدة) رتبه علـى أواخـر الكلم كصحاح الجوهري [١] و (خلاصة المحكم) وهو اختصار له ، توفى ابن سعيد بتونس سنة ٦٧١هـ [٢] .

---

(٣) الزركلي : الأعلام ٢٦/٥ ، السيوطي ، بغية الوعاة ، ٢٠٩/٢، ابن القاضي ، درة الحجال ٢٤٠/٣ ، ٢٤١ .

(٤) الفارسية ، ص ١١٦ ، ١٣٢ .

(١) الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد وأصله من بلاد الترك إمام في اللغة والأدب رحل إلى العراق والحجاز ثم رجع إلى نيسابور وفيها ألف الصحاح ، توفى سنة ٣٩٣هـ ، أحمد عبـد الغفـور العطـار ، مقدمـة الصحاح ، ص ١٠٨.

(٢) لزركلي : الأعلام ، ٧ / ٣٣٤ .

ومنهم في الطب ابن البيطار (٣) وابن الرومية (٤) وابن اندراس محمد أصيل مرسية ونزيل بجاية واسمه يوسف وهو الطبيب الخاص للمستنصر وقد توفى سنة٧٢٩ هـ (٥) .

ومنهم أبو بكر محمد بن محيى الدين بن محمد بن سيد الناس اليعمري الأشبيلي ، ولد سنة ٦٠٠هـ (٦) كان آية عصره في الحفظ والاستذكار ، حتى قيل أنه يستظهر عشرة آلاف حديث (٧) بأسانيدها ، فكان على علم برجال الحديث والفقه من غريب وصحيح أو حسن وكان إذا قرأ الحديث أسنده إلى أن ينتهي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان عالماً برجال الصحابة رضوان الله عليهم واحداً واحداً فيعرفهم نسباً واسماً وتاريخاً .

نزل بجاية وولي الإمام والخطابة بجامعها الأعظم ، وتصدر للتدريس ا ، وكان له معرفة بالقراءات ، فلما ذاع صيته ، استدعاه المستنصر الحفصي ، فلما دخل عليه طلب منه المستنصر أن يقرأ بين يديه آية من كتاب الله (١) فقرأ قوله تعالى :

---

(٣) ابن البيطار : هو أبو محمد عبد الله بن أحمد ، عالماً بالعشب ،له مؤلفات حول فائدة الأعشاب توفى سنة ٦٤٦هـ ، المقري ،نفخ الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٤) ابن الرومية أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي خليل ،الأموي الأشبيلي الغساني . المقري : المصدر السابق ، جـ ٢ ، / ٥٩٦ .

(٥) براشفيك : تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، جـ ٢ / ٣٩٣ .

(٦) يذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ أن ولادته سنة ٥٩٧هـ ، جـ ٥ / ٢٩٨.

(٧) وفي نيل الابتهاج أ ا سنة آلاف حديث .

(١) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٢٩١، ٢٩٢ .

{ فبما رحمةً من الله لنت لهم ولو كنـت فظـاً غلـيظ القلـب لأنفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمـر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكيلن } [٢] .

فأعجب بقراءته وقربه منه حتى كان من أخص جلسائه وله مـصنفات منـها كتاب أمهات الأولاد قال عنه الذهبي " يدل على سيلان ذهنه وسعة حفظه وسـعة إمامته " [٣] ، وقد توفى ابن سيد الناس بتونس سنة ٦٥٩هـ .

ومنهم محمد بن جابر بن محمد بن القاسم بن حسان العنسي الـوادي أشـي تونسي المولد حيث ولد ا سنة ٦٧٣هـ وهو صاحب الرحلتين إلى المـشرق سـنة ٧٣٤ هـ - ٧٧٥هـ ، ومن أشهر تلامذته ابن خلدون ، وابن فرحـون ، وابـن عرفة ،له برنامج يحتوي على أسماء شيوخه ومروياته توفى سنة ٧٤٩هـ [٤] .

---

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ٤/ ٢٣٥ .

(٤) الوادي أشي :برنامجه ، ص ٨ ، ٩ .

صقليـة :

أما القناة الثانية التي ساهمت في حضارة تونس فهي صقلية والتي تعتبر تابعة من توابع المملكة التونسية وبعساكرها فتحها أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ في عهـد الدولة الأغلبية [١] .

ثم سقطت صقلية في يد النورمان سنة ٤٨٤هـ فهاجر إلى تونس عـدد مـن الصقالية وكانت صقلية تزخر بالعلماء والأدباء ومنهم المازري الذي ودرست مؤلفاته في تونس وكان طلاب العلم التونسيين يرحلون إليه لأخذ العلم منه أو للحصول على إجازة علمية منه [٢] إلا أن الاستفادة العظمى من الصقالبة كانت في المـجال الطـبي حيث تتلمذ أبناء تونس على أيديهم وكان لهم أكبر الأثر في نشر الطب في تونس .

ومنهم أحمد بن عبد السلام الشريف الحسيني الصقلي أبو العباس الطيب ، كان يدرس الطب في جامع الزيتونة ، ثم اشتغل في المارستان الذي أسسه أبو فارس عبـد العزيز الحفصي ، له (مداواة الأمراض) وشرح أرجوزة أبي علي بن سيناء في الطب

---

(١) دولة الأغـالبة تنسب إلى مؤسسها إبراهيم بن سالم التميمي الذي ثبته الرشيد في حكم أفريقيـا سـنة ١٨٤هـ وأسرة الأغالبة راقية في مضمار الحضارة عملت على نشر الحضارة الإسلامية في الـبلاد الـتي خضعت لنفوذها (أفريقيا وصقلية) كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور وشيدوا المساجد والحـصون وشجعوا الأدب والعلوم ،وسقطت الدولة الأغلبية على يد عبد الله الشيعي سنة ٢٩٦هـ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٠١/١٨٠ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص ٢٨٦ ، ٢٩٩ .

(٢) علي الزهراني : الحياة العلمية في صقلية ، ص ٩٠ ، النيفر ، المصدر السابق ، ١/ ٣٥٥ .

وكتاب في حفظ الصحة وقد قسمه إلى قسمين ، قسم في أمراض النفس ومداواتها والأخر في صحة الجسم وله أيضاً المختصر في الطب [٣] .

ومنهم أيضاً محمد بن عثمان الشريف الحسيني الصقلي من مواليد تونس ومن أسرة اشتهرت بالطب في العصر الحفصي له (المختصر الفارسي) ألفه باسم السلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي وقد امتاز بأوصاف أمراض لم يسبق لأحد قبله في أمراض المخ والعينين والقلب والمعدة والكلى وله رسالة في التحفظ من مرض الوباء [١] .

دول المغرب :

أما بالنسبة لفاس فقد امتدت الصلات الثقافية معها فكان علماء تونس يرحلون إليها لتلقي العلوم فقد كانت فاس تمثل أرقى العواصم الإسلامية ثقافة ، وكانت تونس بالمقابل لا تقل مكانة عنها ، فكان علماؤها يرحلون إلى تونس للقاء علمائها والحصول منهم على إجازات علمية ، فقد حصل الرحالة محمد بن سعيد بن محمد الرعيني الفاسي على إجازة [٢] علمية من القاضي التونسي ابن عبد السلام .

وأثبت ابن عبد السلام تفوقه علمياً ، عندما قدم السلطان المريني أبو الحسن إلى تونس ومعه مجموعة كبيرة من الفقهاء ومنهم أبو عمر عثمان بن عبد الواحد التنالفتي وأبو حسون زيان بن أمريون العلوي وأبو زكريا يحيى بن سليمان العسكري والحاج أبو الحسن الناميسي وغيرهم [٣] فكان السلطان المريني يعقد المجالس والمناظرات

---

(٣) محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين ، جـ٣ / ٢٤١ ، برنشفيك ، تاريخ أفريقيا ، ٢/ ٣٩٠ .

(١) محمد محفوظ : المرجع السابق ، جـ ٢ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، برنشفيك : المرجع السابق ، جـ ٢ / ٣١١

(٢) محمد محفوظ ، المرجع السابق ، جـ ٣ / ٣٢٥ .

(٣) ابن بطوبطة : الرحلة ، ص ٦٦٦ .

فحضر يوماً مجلس القاضي ابن عبد السلام ومعه طائفة من كبار أعلام فاس فناقشوا وأبدوا اعترافا م فكان القاضي ابن عبد السلام يقاطعهم واحداً بعد الأخر [٤] .

أما بالنسبة للقناة الثقافية الأخيرة فهي تتمثل في بلاد المشرق الإسلامي فكانت الرحلة إلى المشرق تعد علامة بارزة في تاريخ أي عالم أو أديب ، فمنذ نشوء الحركة العلمية في أقطار المغرب لم تنقطع رحلة علمائه إلى المشرق إلا في عصور الحروب والاضطرابات وهذه الرحلات لها أثرها في انتقال مؤلفات المغاربة إلى المشرق ومؤلفات المشارقة إلى المغرب ، فالمذهب المالكي لم ينتشر إلا بفضل المشرق وخاصة إلى مصر التي كانت زعيمة العالم الإسلامي ، وزخرت بأعلام ذوي شهرة ومكانة في كل المعارف .

مصر :

وقد أشار ابن خلدون إلى فضل مصر فقال " ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع " [١] وقد رحل ابن زيتون إلى مصر مرتين وأدرك تلامذة فخر الدين الرازي فاستفاد منهم فعاد إلى تونس ونشر علومهم وكذلك الصدفي وابن رشد القفصي وغيرهم بل أن الصوفية أخذت بذورها من المشرق فناشرها الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحل إلى مصر ثم عاد إلى أفريقيا ونشرها بين أبناء الأفارقة ثم رحل مرة ثانية إلى مصر حيث استقر ا إلى أن مات سنة ٦٥٦هـ [٢].

---

(٤) المقري : أزهار الرياض ، جـ ٣ / ٢٨ .

(١) المقدمة ، ص ٤٣٤ .

(٢) الدولاتلي :مدينة تونس في العهد الحفصي ، ص ٨٧ .

بل إن هناك علماء استقروا في مصر مثل الربعي محمد بن أبي القاسم بن عبـد السلام التونسي المولود سنة ٦٣٩هـ ورحل إلى مصر واستمع إلى علمائها وتـولى قضاء الإسكندرية سنة ٧٠٩هـ ، بقى فيها إلى أن توفى سنة ٧١٥هـ [٣] .

ومنهم أيضاً ابن سبعين المتصوف الذي استقر بمكة وكان طلاب العلم المغاربة يرحلون إليه لأخذ العلم منه [١] وهكذا انتشرت التأثيرات المـشرقية مـن سـورية ومصرية وحجازية إلى بلاد أفريقيا لتندمج مع الحضارة الإفريقية ، أيضاً وجـد مـن المشارقة من هاجر إلى أفريقيا مثل الحسيني علي بن محمد الغزالي الشاذلي والذي ألف كتابه : " عمدة الراغب الأريب وعدة الموهوب اللبيب " في عهد السلطان الحفـصي أبي عمرو عثمان ومنهم أبو زكرياء المرجاني الموصلي من المتصوفين .

وقد ذكر الغبريني له قصصاً طريفة في الكرامات [٢] ، اشتهر أمره في تـونس ، وأصبح مقصد للناس ، ومن الموصل أيضاً وجد في أوائل القرن السابع الهجري تقـي

---

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ٦ / ٣٧ ، ٣٨ . ، ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ٤ / ٢٦٠ .

(١) الغبريني : عنوان الدراية ، ص ٢٣٨ .

(٢) ومن بعض هذه الكرامات ما ذكره الغبريني في كتابه عنوان الدراية ، ص ١٧٨ أنه عندما رجع المرجـاني إلى بلاده الموصل اشتهر أمره وكان سبب ذلك إن بعض السوداوات من غسالات الثياب كانـت علـى رأسها رزمة من الثياب فأخذت منها في الزحام في سوق البحر ، فسارت إليه متلهفة ضـارعة مـستغيثة وأخبرته بقصتها ، فقال : أنت ما تغسلين ثياب الفقراء ، لو غسلت ثياب الفقراء ما ضاعت لك الرزمة ، ثم أخذ عكازه في يده وسار معها إلى رواء هو للوزير أبي عبد الله بن ياسين ،فدخل الرواء وصعد إلى غرفة فيه وأخرج الرزمة من وراء القصيل الذي هو علف الدواب وأعطاها الرزمة وانفصلت ورجع إلى موضعه وهذه القصة تدل على بعض الألاعيب التي يقوم ا هؤلاء المتصوفون الذين يدعون علـم الغيـب حـتى يصدقهم الناس ويكسبوا ثقتهم فيلجأون إليهم في قضاء حوائجهم .

الدين الموصلي الذي اشتهر أمره في بجاية وقال عنه الشيخ أبي الحسن والحرالي : " إنه من أساطين الحكمة " ، أيضاً وجد رجل من أصبهان [٣] يدعى أبو العباس الجدلي الشريف وقد طاف بلاد المشرق والصين والهند ، ثم قدم إلى أفريقيا في عهد المستنصر [١] .

وفي القرن التاسع الهجري وجد الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل في تونس ، ووصف نزهة قام بها في ضواحي تونس الجنوبية في صحبة مجموعة من الشعراء الأندلسيين [٢] .

وهكذا نرى تمازج الأفكار بين المشرق والمغرب في العهد الحفصي .

وخلاصة القول من ذلك كله أن البلاد التونسية شهدت في هذا العصر ازدهاراً ثقافياً شهد بروز عدد من العلماء كابن خلدون ، وابن عرفة ، البرزلي ، وغيرهم .

---

(٣) أصبهان : أو أصفهان مدينة عظيمة كانت عاصمة إقليم من أقاليم العراق العجمي يطلق عليه اسمها وكانت تتألف من مدينتين متجاورتين وهي جي واليهودية وجي هي القصبة وهي من أصح المواضع تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء ولهذا اختارها الملوك سكناً لهم ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٢٦٩/١

(١) الغبريني : المرجع السابق ، ص ١٨٠ ، برنشفيك : تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ، جـ٢ / ٣٦١

(٢) الدولاتلي : مدينة تونس في العهد الحفصي ،ص ٨٥ .

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين ... وبعد ...

فأن هذا البحث تناول محاور عديدة لمظاهر النشاط الحضاري في الدولة الحفصية وقد توصلت من خلال هذه الدراسة إلى نتائج ومنها :

١ – يعتبر العصر الحفصي من أبرز العصور الإسلامية في بلاد المغرب ، سواء من الناحية السياسية التوسعية ، بحيث امتد النفوذ الحفصي ليشمل كافة بلاد المغرب بعد أن خضعت دولتي بني عبد الواد وبنو مرين في فاس للسلطان أبو زكرياء وأعلنوا الطاعة والدعاء له على المنابر ، ثم جاءت بيعة مكة المكرمة مؤكدة بأن الحفصيين هم أجدر من يحمل لقب خلفاء المسلمين في هذا العصر .

٢ – امتازت تونس بأنظمة إدارية شاملة ومنظمة ضمنت لها السيطرة على أنحاء إفريقية ، ومتابعة ما يجري فيها .

٣ – امتازت كذلك تونس باقتصاد له كل خصوصيات الدول الكبرى ، فكانت تونس تستورد ما يحتاجه السكان من مواد غذائية ، ثم تصدر الفائض من إنتاجها ، وكذا نظمت تونس تجارتها مع دول البحر المتوسط عن طريق عقد معاهدات مع كبرى الدول الأوربية .

٤ – أن تعدد السكان وأجناسهم أدى إلى وجود نظام الطبقات في إفريقية ، وبالتالي أدى اختلاف الأجناس إلى كثرة الصراعات وتدهور الأوضاع السياسية في الدولة .

٥ – كان للهجرة الأندلسية أكبر الأثر في رفع مستوى الحياة العلمية والثقافية في تونس بصفة خاصة وبلاد المغرب بصفة عامة .

٦ – تعتبر النهضة الثقافية التي شهدها العهد الحفصي سمة مميزة لهذا العهد ، ويعتبر العلامة ابن خلدون الذي شهد العالم أجمع بعبقريته خير شاهد على هذا التطور

الثقافي ، وكذلك الإمام الفقيه ابن عرفة الذي أعلنت بلاد المغرب غلق باب الاجتهاد بعد وفاته .

٧ – ومن الملاحظ أيضاً تفوق العلوم الدينية على كافة العلوم الأخرى ، وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على السياسة الدينية التي انتهجها سلاطين بني حفص منذ قيام دولتهم .

٨ – كان للعصبية أثرها في قيام دول المغرب الأقصى ، فلقد قام الحفصيون بالحكم اعتماداً على عصبيتهم من قبائل المصامدة .

٩ – تشابه الدويلات ، سواء في مشرق العالم الإسلامي وغربة في عوامل النشأة وأسباب الضعف واعتمادها في أول قيامها على مؤسس قوي كأبي زكريا محمد بن عبد الواحد في بني حفص ، وإبراهيم بن الأغلب في دولة الأغالب وعبد الرحمن بن رسمت في الدولة الرستمية .

١٠ – تميز النظام السياسي عند الحفصيين لفترة طويلة بالاستقرار وعدم التنازع عن انتقال السلطة ، وحل مشكلات الأسرة الحاكمة في نطاق محدود .

١١ – اهتم الحفصيون بالجيش والأسطول وتكونت فرقهم العسكرية من البربر والعرب والأندلسيين والمماليك من الترك والفرنجة .

١٢ – ازدهرت العمارة في العهد الحفصي وبنوا كثيراً من المدارس والمساجد والربط ، والطرق والفلاع وتأثروا بالفن الأندلسي .

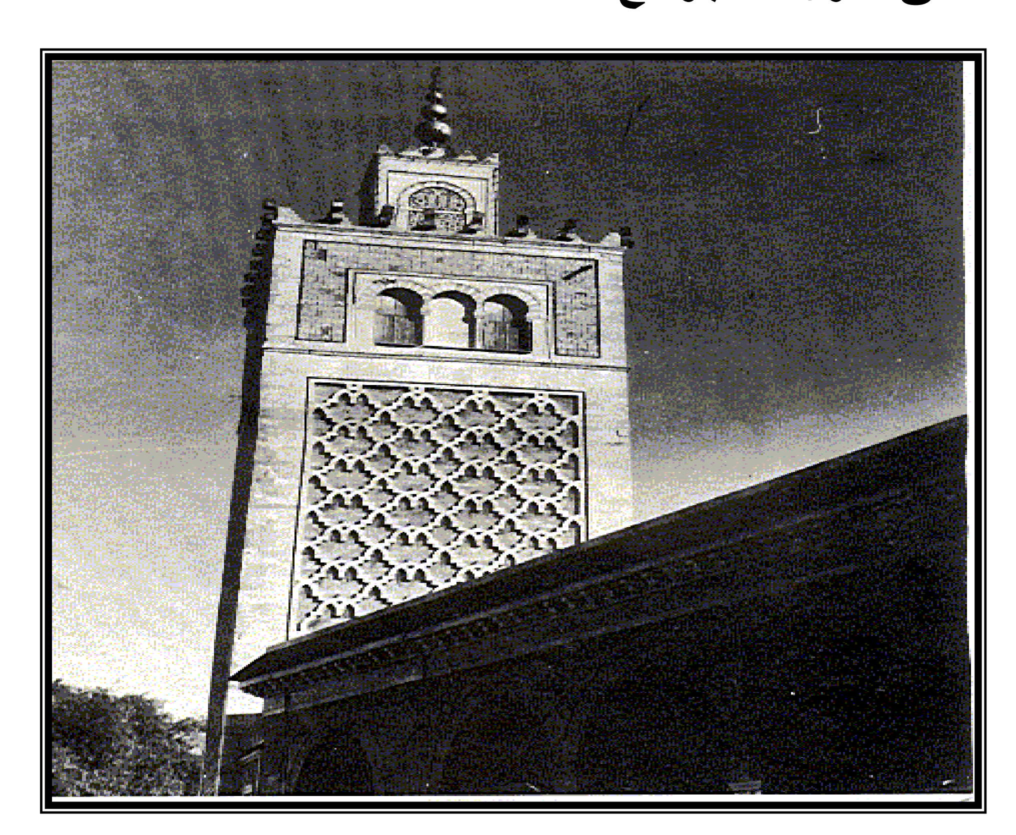
١٣ – لم يكن تحرير القدس من أيدي المسلمين هو السبب في الحروب الصليبية فلقد هاجمت الدولة الحفصية في تونس حملة صليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٦٨ هـ فهل الطريق إلى تحرير القدس يمر بتونس .

هذا وبالله التوفيق ....

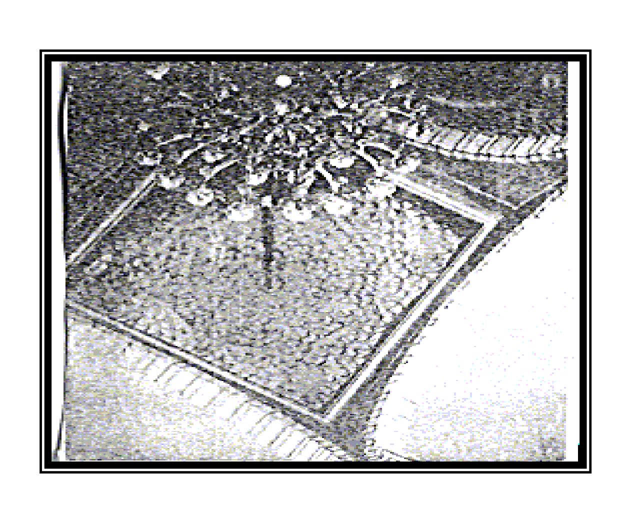
الملاحق

جميع هذه اللوحات التقطت من كتابي (السلطان الحفصية) للعروسي وكتاب (حول مدينة تونس العتيقة) لسليمان زبيس .

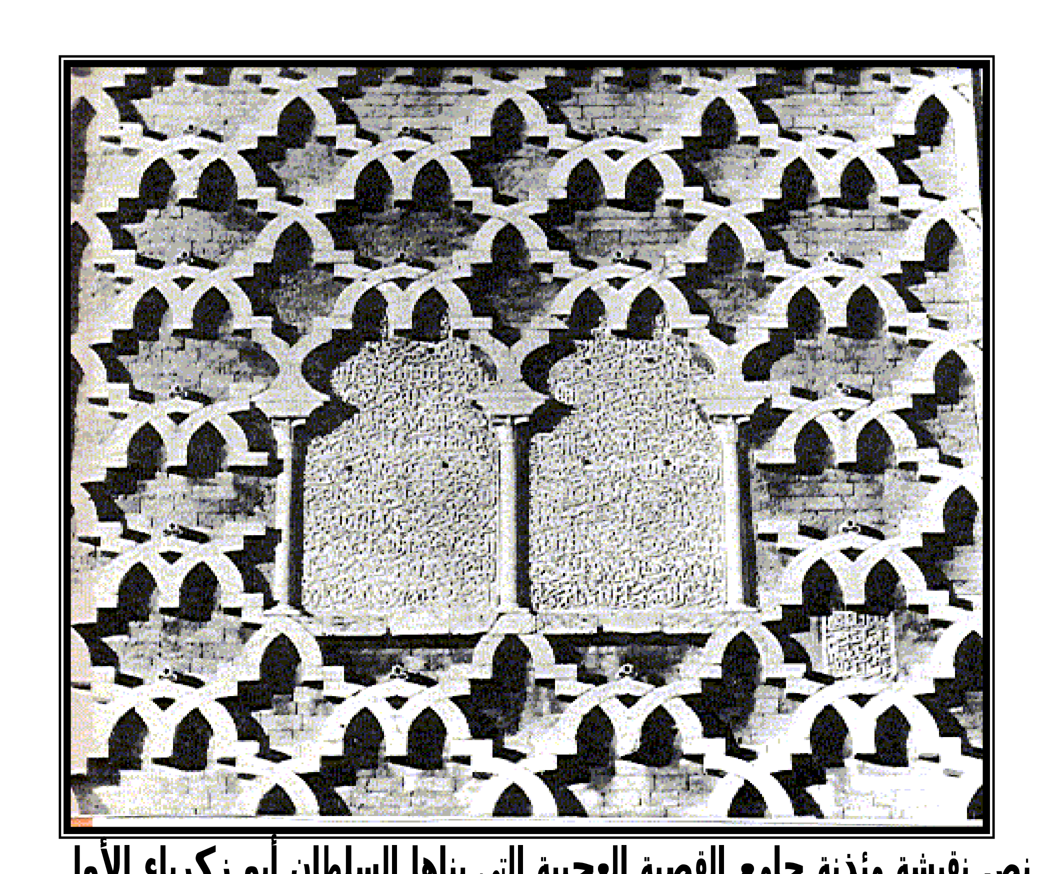
الملحق الأول : الجوامع :



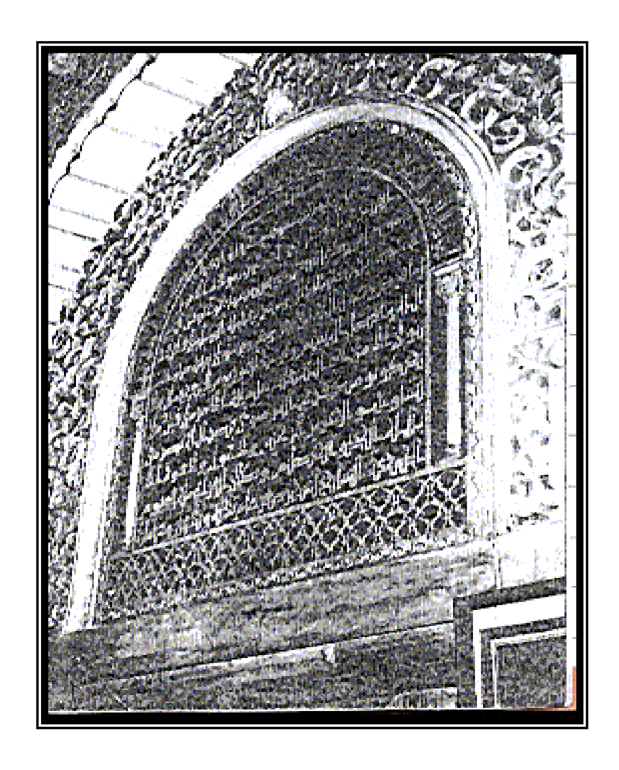
جامع القصبة بتونس العاصمة بناه أبو زكرياء الأول



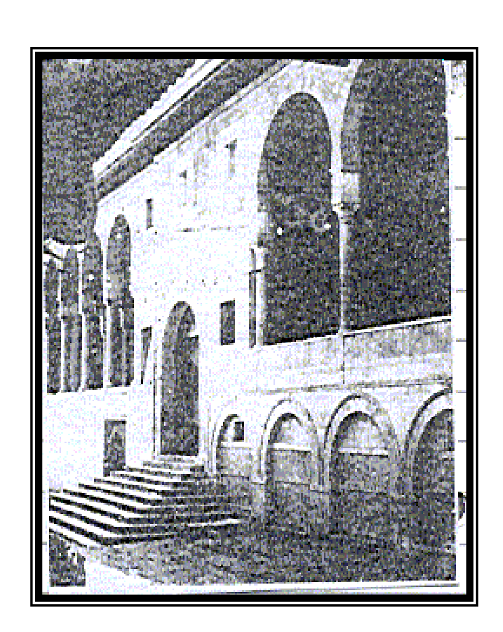
جامع القصبة (قبة البهو)



نص نقيشة مئذنة جامع القصبة العجيبة التي بناها السلطان أبو زكرياء الأول



وهذه نقيشة أخرى بأعلى المحراب لنفس الجامع

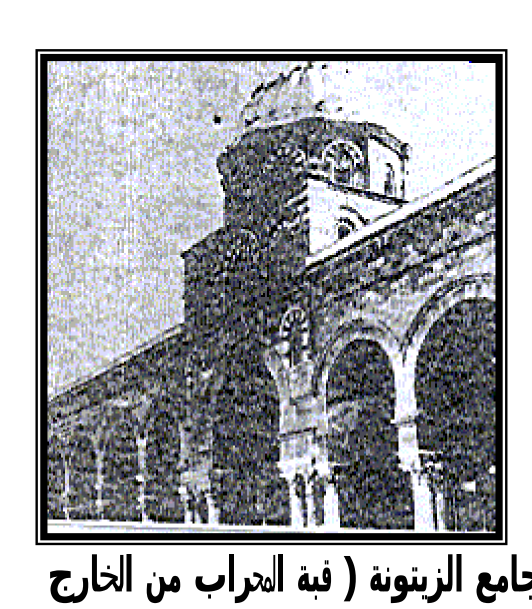


جامع الزيتونة (الواجهة الشرقية)

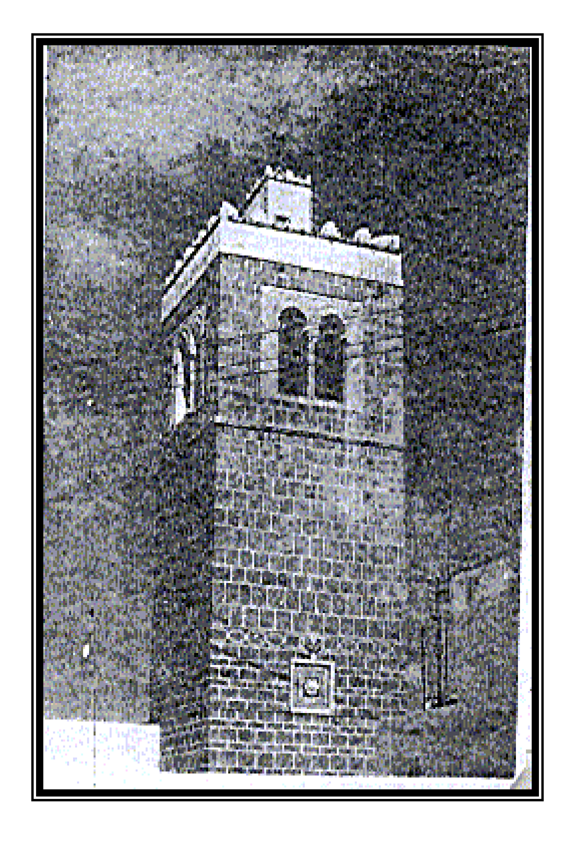


جامع الزيتونة

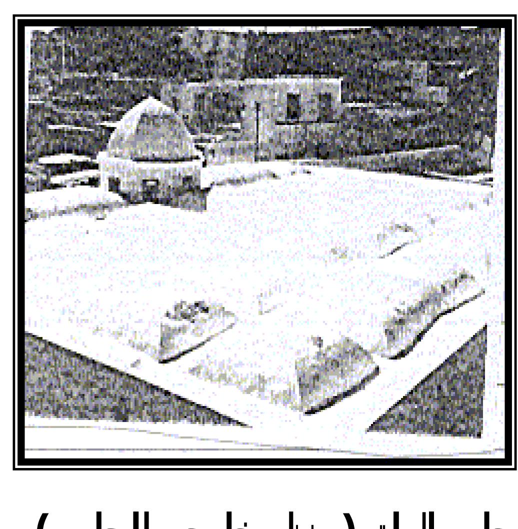
(قبة المحراب من الداخل)



جامع الزيتونة (قبة المحراب من الخارج



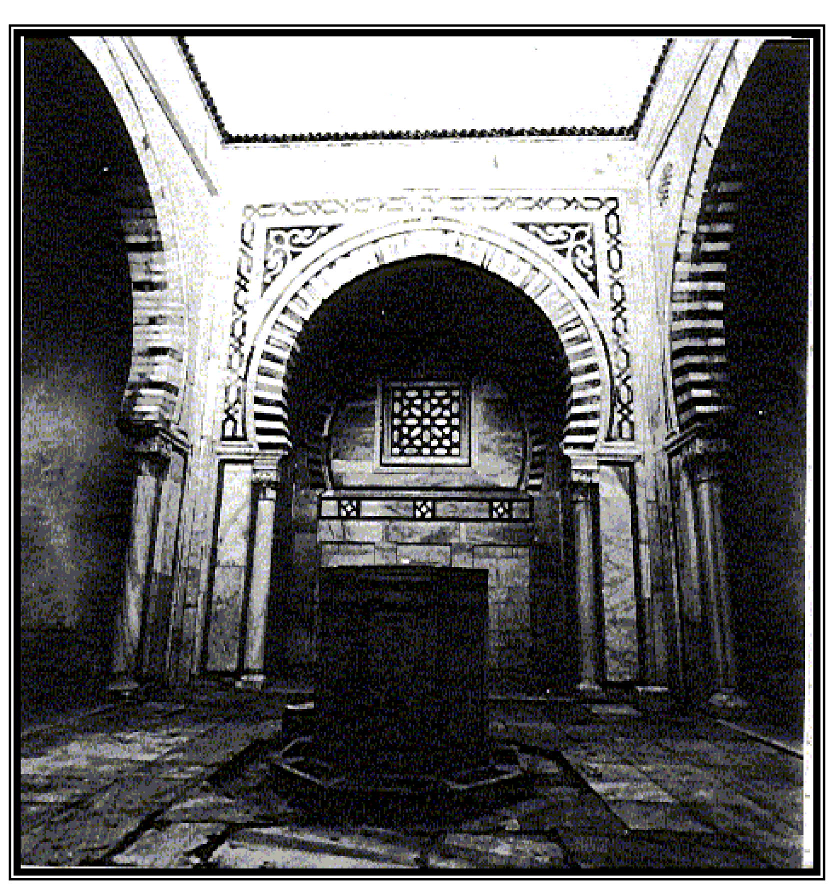
جامع الحلق (الصومعة)



جامع الحلق (منظر خارجي للجامع)



ميضاة السلطان أبي عمرو عثمان بدرب عبد السلام قرب سوق العطارين



جامع التوفيق (الهواء) الذي بنته الأمير عطف زوج أبي زكرياء الأول ، وأم المستنصر (وهو منظر لبيت الصلاة من الجامع)

الملحق الثاني : الأسواق :



سوق العطارين الذي أنشاه السلطان أبي زكرياء الأول في
الفرن السابع



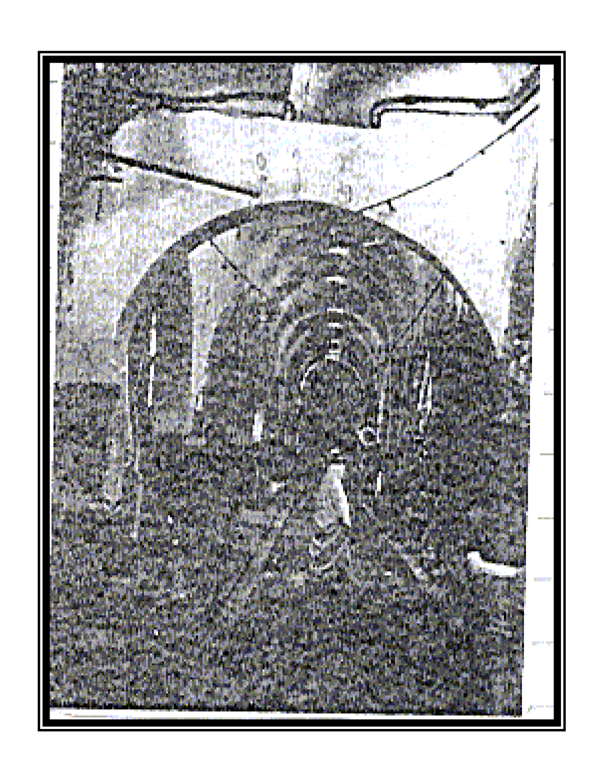
سوق الفكة



سوق الشواشية



سوق السراجين



سوق القماش أسسه السلطان أبي عمرو عثمان القرن التاسع الهجري

ثالثاً : المدارس :



المدرسة الشماعية التي أنشاها السلطان أبو زكرياء الأول سنة ٦٣٣هـ
وهذه الصورة (للصحن وبيوت الطلبة)



المدرسة المنتصرية أسسها محمد المنتصر وأتمها أبو عمرو عثمان – الصورة
(الصحن وباب المسجد)

رابعاً : آثار فنية أخرى :



خزف من العهد الحفصي



الحنايا الحفيصة بناها المستنصر الأول



ج الأندلس بتونس العاصمة

المصادر والمراجع

اعتمدت في ترتيب المصادر على الترتيب الهجائي بعد حذف ال ، ابن ، أبو ، من الكنية أو اللقب مع مراعاة الترتيـب على الكنية أو اللقب التي تنسب المؤلف إلى بلدة أو مدينته أو جدة أو أبيه أو صفة بارزة في خلقه وخلقة ، كما اعتمـدت في ترتيب المراجع على الترتيب الهجائي أيضاً مع مراعاة الترتيب على الاسم الأول .

أولاً : المصادر

١- القرآن الكريم

(أ)

ابن الآبار (أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي – توفى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م)

٢- الحلة السيراء – تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، في جزئين – القاهرة ١٩٦٣م

الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد) .

٣- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق – نابولي ، روما ١٩٥١م .

الآمدي (سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد) .

٤- الإحكام في أصول الأحكام – دار الكتب العلمية - بـيروت ١٤٠٠هـ ـ / ١٩٨٠م .

(ب)

البيذق (أبو بكر الصنهاجي ، كان حياً في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري)

١- أخبار المهـدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين - نشر عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٧١ م .

ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي) .

٢- رحـلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار ، شرحه وكتـب هوامشه – طـلال حرب - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان – تـوزيع مكتبة عباس أحمد الباز - مكة المكرمة .

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز - توفى سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٧م)

٣- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب - جزء " من كتاب المسالك والممالك " الجزائر ، ١٩١١م .

(ت)

التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم التجاني – توفى سنة ٧٠٧هـ) .

١- الرحلة - تونس ط ١٩٥٨م – تقديم حسن حسني عبد الوهاب – مجلد واحد .

الترجمان الميورقي (أبي محمد عبد الله المتوفى سنة ٨٣٢هـ) .

٢- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب - ت - عمر وفيق الداعوق ، ط الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، دار البشائر الإسلامية للطباعة - بيروت - لبنان .

ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي – توفى سنة ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م .

٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ط القاهرة ١٩٣٥م .

التنبكتي (أحمد بابا التنبكتي) .

٤- نيل الابتهاج بتطريز الديباج - القاهرة ١٣٢٩هـ .

(ج)

الجوهري (إسماعيل بن حماد الجوهري ، أبو النصر – توفى سنة ٣٩٣هـ) .

١- صحاح الجوهري (تاج اللغة وصحاح العربية) – ت – أحمد عبد الغفور عطار - دار الملايين – بيروت – ١٣٩٩هـ .

ابن جبير (محمد بن أحمد – توفى ٦١٤هـ / ١٢١٧م) .

٢- رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، ط القاهرة ، سنة ١٩٥٥م .

(ح)

حاجي خليفة (مصطفى عبد الله توفى ١٠٦٧م .

١- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - وكالة المعـارف – اسـطنبول ١٣٦٠هـ .

ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفـضل ، المتوفى سنة ٨٥٢هـ) .

٢- الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – ت - محمد سيد جاد الحق – دار الكتب الحديثة – القاهرة .

٣- أنباء الغمر بأنباء العمر – ت- الدكتور / حسن حبشي – نشر ا لمس الأعلى للشئون الإسلامية - بالقاهرة. الحميري .

الحميري (محمد عبد المنعم)

٤- الروض المعطار في خبر الأقطار – ت – د / إحسان عباس ، مكتبـة لبنـان – بيروت ١٩٧٥ م .

(خ)

ابن الخطيب (ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب) .

١- الإحاطة في أخبار غرناطة – مصر – ١٩٧٣م .

الخطيب القزويني (جمال الدين أبو المعالي - توفى سنة ٧٣٩هـ .

٢- الإيضاح في علوم البلاغة – شـرح وتعليق محمد عبد المنعم خفـاجي – ط الثالثة - ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م الناشر المكتبة الأزهرية للتراث .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ) .

٣- تاريخ ابن خلدون المسمى – ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذو ي الشـأن الأكبر - ضبط الحواشي – خليـل شـحادة – مراجعة الدكتور سهيل زكار – دار الفكر للطباعة والنشر .

ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد - توفى ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) .

٤- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – ت – إحسان عباس – ط بيروت سـنة ١٩٧٢

الخوارزمي (أبو عبد الله محمد بن يوسف – ت . ٣٨٧هـ / ١٩٩٧ م .

٥- مفاتيح العلوم - ط القاهرة – سنة ١٣٤٢هـ .

(د)

ابن الدباغ (عبد الرحمن أبو القاسم بن ناجي) .

١- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان – ت - الدكتور محمد الأحمدي أبو النور والدكتور ماضور - تونس ١٩١٤م .

ابن أبي دينار (أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) .

٢- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس – ت - محمد الشمام – المكتبة العتيقـة - تونس .

(ذ)

الذهبي (محمد بـن أحمد بن عثمان بن قيمـاز ، شمس الدين أبو عبد الله – ت ٧٤٨هـ) .

١- تذكرة الحفاظ – دار إحياء التراث العربي - بيروت .
٢- سير أعلام النبلاء – جماعة من المحققين – مؤسسة الرسالة – بيروت – سـنة ١٤٠٢هـ .

(ز)

الزركشي (محمد بن إبراهيم الزركشي) .

١- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية - ت- محمد ماضور – المكتبة العتيقة ، ط الثانية ١٩٨٩م تونس .

أبي زرع (أبي العباس أحمد بن أبي زرع ، توفى منتصف القرن الثامن الهجري) .

٢- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فـاس ، نشر – كارل يوحن نور تبرغ ١٨٤٣ م .

(س)

السبكي (تاج الدين بن علي بن عبد الكافي – ت ٧٧١هـ / ١٧٣٠م) .

١- طبقات الشافعية الكبرى – ت – عبد الفتاح محمد الحلو – ومحـود محـد الطناحي ، ط القاهرة ، ط الأولى .

السخاوي (محمد بن عبد الرحمن شمس الدين – ت ٩٠٢هـ) .

٢- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع – دار مكتبة الحياة – بيروت .

السراج الوزير (محمد بن محمد الأندلسي – ت ١١٤٩م) .

٣- الحلل السندسية في الأخبار التونسية – تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة – دار الغرب الإسلامي – بيروت لبنان ١٩٨٤م .

السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري) .

٤- الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى – ت - جعفر ، ومحمد الناصـري ابـني المؤلف ، الدار البيضاء – ١٩٥٤م - ثلاثة أجزاء .

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن – ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

٥- تاريخ الخلفاء – ط القاهرة سنة ١٩٥٢م - ت - الشيخ محي الدين عبـد الحميد .

٦- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - تحقيق أبو الفـضل إبـراهيم – ط القاهرة – سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

٧- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة – ت – محمد أبو الفـضل إبـراهيم عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

(ش)

الشماع (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع) .

١- الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية – ت - د / الطـاهر محمـد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

الشوكاني (محمد بن علي – ت . ١٢٥٠هـ) .

٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع – مطبعة السعادة – القاهرة ، سنة ١٣٤٨هـ .

(ص)

ابن صاحب الصلاة (كان حياً سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٨م .

١- المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين – ت - عبد الهادي التازي - بيروت - سنة ١٩٦٤م .

(ط)

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ، توفى ٣١٠هـ)

١- تاريخ الأمم والملوك - ط القاهرة ١٩٣٩م .

(ع)

عبد الملك (محمد عبد الملك المراكشي ، توفى ٧٠٣هـ) .

١- كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة – نشر إحسان عباس ومحمد بن شريفة ، بيروت .

العبدري (محمد بن محمد) .

٢- الرحلة المغربية – تحقيق محمد الفاسي – الرباط ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ م .

ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي ، كان حياً سنة ٧١٢هـ) .

٣- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – قسم الموحدين – ت - إبـراهيم الكتاني – محمد بن تاويت – محمد زنيبر – عبد القادر زمامـة – دار الغـرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، دار الثقافة – الدار البيضاء – المغرب – ط الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٥٨م .

ابن العماد (عبد الحي بن العماد الحنبلي – أبو الفلاح – ١٨٠٩ هـ) .

٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب – ط القاهرة ، ١٩٣١م .

(غ)

الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله - ٦٤٤هـ - ٧١٤هـ) .

١- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية – ت - عـادل نويهض – ط الثانية ١٩٧٩م – منشوررات دار الأفاق الجديدة- بيروت .

(ف)

ابن فرحون (برهان الدين بن فرحون المالكي) .

١- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب – ت د/ محمد الأحمـدي أبـو النور – دار التراث العربي بالقاهرة - ط ١٩٧٢م .

الفيروز أبادي (محمد بن يعقوب الشيرازي – مجد الدين ت ٨١٧هـ) .

٢- القاموس المحيط – المطبعة الحسينية – القاهرة ١٣٤٤هـ .

(ق)

ابن القاضي (أحمد بن القاضي) .

١- درة الحجال في أسماء الرجال – ت - محمد الأحمدي أبو النـور – مـصر – ١٣٩٠هـ - ١٣٩٤هـ ١٩٧٠م – ١٩٧٤ م .

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله – ت ٨٢١هـ) .

٢- نهاية الأرب في معرفة لسان العرب – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

٣- صبح الأعشي في صناعة الإنشاء – القاهرة – ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

ابن القنفذ (أحمد بن حسين بن علي) .

٤- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية – ت – محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي – تونس ١٩٦٨ م .

(ك)

ابن كثير (إسماعيل بن عمر – ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .

١- البداية والنهاية – ط بيروت – سنة ١٩٦٦م .

(م)

المراكشي (عبد الواحد) .

١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب – ت - الدكتور محمد زينهم ، محمد عزب ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م . القاهرة .

المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي – ت / ٤٨٥هـ / ١٤١٤م) .

٢- البيان والأعراب عماً بأرض مصر من الأعراب – نشر – عبد ا يد عابد ، مع دراسة في تاريخ العروبة في وادي النيل – القاهرة ١٩٦١م .

٣- السلوك لمعرفة دول الملوك – ت محمد مصطفى زيـادة – ط القاهرة ١٩٥٦م

المقري (الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني) .

٤- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب – دار صادر – بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م - ت الدكتور إحسان عباس .

٥- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، القاهرة ١٩٤٢م .

ابن منطور - محمد بن مكرم الانصاري جمال الدين الإفريقي المصري (ت ٧١١ – ١٣١١م) .

٦- لسان العرب – دار صادر – بيروت ، سنة ١٣٨٨هـ .

ابن موسى الأندلسي (علي بن موسى الأندلسي ، توفى ٦٨٥هـ) .

٧- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة – ت / إبـراهيم الأبيـاري – مطبعة دار المعارف - مصر ١٩٦٧م .

(ن)

النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي) .

١- تاريخ قضاة الأندلس – المسمى (كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة – منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

(هـ)

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري – ٢١٨هـ) .

١- السيرة النبوية – ت – مصطفى السقا – إبراهيم الأبياري – عبد الحفيظ شلبي ، دار القلم - بيروت – لبنان .

(و)

الوادي أشي (محمد بن جابر الوادي أشي) .

١- برنامج الوادي أشي – ت – محمد محفوظ – دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان ، ط الأولى ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .

الوزان الفاسي (الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي) .

٢- وصف أفريقيا – ترجمة – محمد جحي ،ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان - ط الثانية ١٩٨٣م – الشركة المغربية للناشرين - المتحدين - جزآن

(ي)

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).

١- معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان ، ثمانية أجزاء - القاهرة ١٢٣٣م – دار إحياء التراث العربي – بيروت لبنان .

ابن يحيى (أبو الفضل أحمد بن يحيى) .

٢- (وصف إفريقية والمغرب والأندلس) من كتاب مسالك الأبـصار – نـشر حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس – بدون تاريخ - مجلد واحد .

ثانياً : المراجـع :

(أ)

أحمد بن أبي الضياف .

١- إتحاف أهل الزمان في أخبار تونس وعهد الأمان .

ت – لجنة من كتاب الدولة للشئون الثقافية – الدار التونسية للنشر ١٣٩٦هـ

أحمد بن عامر .

٢- الدولة الحفصية - صفحات خالدة من تاريخنا ا يد - دار الكتب الشرقية – تونس .

أحمد توفيق المدني .

٣- كتاب الجزائر – القاهرة ١٩٦٣م .

أحمد مختار العبادي .

٤- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس - مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر – الإسكندرية .

إسماعيل باشا البغدادي .

٥- هدية العارفين – مكتبة المثني - بغداد ١٩٥١م .

إسماعيل سرهنك .

٦- تاريخ دول المغرب ، تقديم ومراجعة الدكتور / حـسن الـزين ، دار الفكـر الحديث للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

(ت)

توفيق سلطان اليوزبكي
١ – دراسات في النظم العربية والإسلامية .
(١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م)

(ح)

حسن حسني عبد الوهاب .
١- ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية - ط الثانية - الناشر مكتبة المنار تونس - جزآن .

حسين مؤنس

٢- تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلاديين ، العصر الحديث للنشر – لبنان – ط الأولى - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

(خ)

خير الدين الزركلي .
١- الأعلام ، درا العلم للملايين – بيروت ١٩٨٠م . ط الخامسة ، ١٠ مجلدات

(ر)

روبار برنشفيك .
١- تاريخ إفريفية في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى اية القرن الخامس عشر الميلادي ، دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط الأولى ١٩٨٨م ، ترجمه إلى العربية حماد الساحلي – جزآن .

(ز)

زامباور .

١- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي . أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود ، مطبعة جامعة فؤاد الأول - الإدارة الثقافيـة بجامعة الدول العربية – القاهرة – ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

(س)

سعاد ماهر .

١ – البحرية في مصر الإسلامية ، ط القاهرة سنة ١٩٦٧م .

سعيد عبد الفتاح عاشور .

٢- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، ط القاهرة ،سنة ١٩٧٦م .

السيد عبد العزيز سالم .

٣- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة للنـشر - الإسكندرية .

سليمان مصطفى زبيس .

٤- حول مدينة تونس العتيقة . وزارة الشئون الثقافية ، تونس ١٩٨١م .

(ش)

شارل اندري جوليان .

١- تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس – الجزائر – المغرب الأقـصى) مـن الفـتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠م . تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة – الـدار

التونسية للنشر – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٣٩٨هـ ـ - ١٩٧٨م – تونس – ثلاثة أجزاء.

(ع)

عبد الرحمن على الحجي .

١- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٨٩٢ – ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢م) . دار القلم - لبنان - ط الثانية ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .

عبد الله عنان .

٢- عصر المرابطين والموحدين ، القاهرة ، ط الأولى ١٩٦٤م .

عقيلة الغناي .

٣ - سقوط دولة الموحدين ، منشورات جامعة بنغازي – ليبيا – ط الأولى ١٩٧٥م

عبد الرؤوف محمد عثمان .

٤ - محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأتباع والابتداع . طبع رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء – الرياض – ط ثانية ١٤١٤هـ .

عبد العزيز الدولاتلي .

٥- مدينة تونس في العهد الحفصي - تعريب محمد الشابي ، وعبد العزيز الدولاتلي ، دار سداس للنشر ١٩٨١م ، تونس .

علي محمد الصلابي .

٦- صفحات التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي (دولة الموحدين) ،جـ ٥ - دار البيارق للنشر – عمان .

علي سعيد الزهراني .

٧- الحياة العلمية في صقلية الإسلامية ، ط ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

(غ)

غوستاف لوبون

١ – حضارة العرب ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، مطبعة يحي البابي الحلبي .

(م)

محمد الخضري بك .

١- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، مكتبة الفيصلية – مكة المكرمة .

محمد الطالبي .

٢- دراسات في تاريخ إفريقية في الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – تونس – منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨٢م .

محمد العروسي المطوي .

٣- السلطنة الحفصية – تاريخها السياسي ودورها في المغـرب الإسـلامي ، دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

محمد النيفر .

٤- عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب ، تذييل واستدراك ابن المؤلف على النيفر ، دار الغرب الإسلامي ، ط الأولى ١٩٩٦م - جزآن .

محمد الهادي العامري .

٥- تاريخ المغرب العربي – في سبعة قرون بين الأزهار والذبول من القرن الـسابع الهجري إلى ختام القرن الثالث عشر ، الشركة التونسية للنشر والتوزيع .

٦- ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ، تعريب محمد الشاوش ، محمد عجينه ، الطبعة الثانية ، سـراس للنـشر سـنة ١٩٨٥ م .

محمد بن الخوجه .

٧- تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد . ، تونس ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

٨- صفحات من تاريخ تونس . تقديم وتحقيق – حماد الساحلي – الجيلاني بن الحاج يحيى ، دار الغرب الإسلامي - بيروت – لبنان .

محمد بن ناصر الدين الألباني .

٩- كتاب صحيح سنن الترمذي باختصار السنة ، إشراف – زهـير الـشاوش- الطبعة الأولى - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م - المكتب الإسلامي .

محمد محفوظ .

١٠- تراجم المؤلفين التونسيين ، دار الغرب الإسلامي – بـيروت – لبنـان - ط الأولى ١٩٨٢ – ٥ أجزاء .

محمد محمد مخلوف .

١١- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ،القاهرة ١٣٥٠هـ ، مجلدان .

محمد محي الدين عبد الحميد .

١٢- شرح ابن عقيل ، المكتبة العصرية - بيروت .

محمود السيد .

١٣- تاريخ دولتي المرابطين والموحدين - مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية - ١٩٩٩م .

محمود مقديش .

١٤- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار - ت – علي الزواري – ومحمـد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي – ط الأولى ١٩٨٨م - بـيروت – لبنـان – جزأن .

مصطفى أبو ضيف أحمد .

١٥- أثـر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مـرين ، (٥٢٤ – ٨٧٦ هـــ) (١١٣٠ – ١٤٧٢م) – ط الأولى ١٩٨٢م - مطبعة دار النشر المغربية – الدار البيضاء .

ثالثا : دوائر المعارف والمجلات المتخصصة .

دائرة المعارف الإسلامية :

المجلد السادس – مادة تونس ، نقلها إلى اللغة العربية ،أحمد الشناوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، وعبد الحميد يونس حافظ جلال ، وزارة المعارف العمومية ،بقلـم محمد الخضر حسين .

الفهرس